www.alkottob.com

سـودوم
سـباق الإوزّ البـرّي

www.alkottob.com

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-unecriv@net.sy

mail :
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

❑❑

www.alkottob.com

www.alkottob.com

إبراهيم الخليل

سـودوم
سـباق الإوزّ البـرّي
رواية

www.alkottob.com

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق – 2004

www.alkottob.com

www.alkottob.com

إشارة:

"كل ما في هذه الرواية من أحداث وشخصيات متخيَّل
إلا اسم الكاتب فهو حقيقي.."

إبراهيم

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الإهـــداء

إلى الرقة...
والرقة فقط.

إبراهيم

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الكتاب الأول
عرش على الماء

[وكان عرشه على الماء]

((قرآن كريم))

www.alkottob.com

www.alkottob.com

رشف الدكتور عبد الله آخر قطرة من فنجان قهوته الصباحيّة.

وقد شعر بلذّة لا متناهية، لا يعرفها إلاّ الخبير الدَّرب، والذواقة المدمن، فدبَّ نشاط جديد، وروح عافية في عروقه، استعداداً ليوم معتاد من آلاف الأيام التي عاشها في بلدته الصغيرة، اللاطئة على خاصرة الفرات، يوم يتراكم مثل قطعة نقدية في حصالة طفل حالم بألعاب، وهدايا، وأنهار، وألوان لم يعرفها قوس قزح.

وضع فنجانه الفارغ على طاولة أمامه، إلى جانب تمثال صغير، نصفي من النحاس المعتق "الإيبوقراط"، وحين نهض، بدت قامته المديدة في الصالون الأنيق، الذي أشرفت على ترتيبه يد عارفة وخبيرة بأساليب المدن، وقد شابها انحناء واضح في تقارب الكتفين، وانحناء الظهر، لم يقلل من رشاقتها الرياضيّة، بينما شعره السبط يسترسل، وقد تدلت خصلة جثلة على الجبين منه.

الصالون واسع، توزعت على جدرانه لوحات مختارة بذوق فنان، عارف وبصير، منها العالمي الذي جلبه معه، خلال أسفاره الكثيرة، ويغلب عليه الطابع الأندلسي الذي أغرم به، لأن فيه.. كما يزعم . رائحة الأجداد الذين بادوا، ومنها المحلي الذي اقتناه من المعارض النادرة في دمشق وبيروت.

خطا نحو الباب.

فامتلأ صدره وخياشيمه برائحة الصباح، وحين فتح الباب الخارجي، ونزل الدرجات القليلة إلى الشارع، تغيّر كل شيء، المناظر، والأحاسيس، والناس، وكأن حاجزاً رقيقاً يفصل بين عالمين أو كونين مختلفين، بيوت شائهة من الفخار والطين، وأزقة فرعية ملتوية، ووجوه صفراء، امتّصها الجوع والخوف وسنوات القهر.

. مرحباً حكيم.

www.alkottob.com

حيّاه أحد الجوار العابرين.. فردّ:

. أهلاً.

الشارع أو الزقاق . لا فرق . يستقيم هنا، وقد لمسته يد العناية، لقربه من السوق فاصطفت على جانبيه الدكاكين، بينما استقرّت دائرة الريجي فيه، ممّا أعطاه امتيازاً ومكانة، وفي زاوية منه يلوذ مشرب صغير لتقديم المشروبات الروحية، أطلق عليه الناس "وادي جهنم" لرداءة مشروباته، يؤمّه حثالات السكارى من عتالين وعمال مياومين ومتبطلين، حيث تقوم داخله مراهنات عجيبة على الشراب، انتهت في بعض الأحيان نهايات مأساوية، فتلك الجلود الضاربة إلى الخضرة كجلود الضفادع، والعيون الحمر المطفأة والأيدي التي لم تعرف غير السكاكين "الكندرجية"،

أو السكائر الملفوفة، والأقداح، لا يمكن النظر إليها بحياد أو طمأنينة، فقد كانت تقوم بينهم وبين صاحبها الآشوري "آدم" مشاحنات حول الحساب، وعدد البطحات.. خاصة مع العجوز جاسم، فتدور الحوارية المألوفة:

. جاسم يا حبيبي، شربت بطحتين وهذه الثالثة.

. لا.. لا.. أبداً، بطحة واحدة... بطحة..

. جاسم...

. اسمع آدم.. براس نبيك محمد .. بطحة واحدة.

. يا حبيبي... بربك هذا كلام بطحة واحدة يا رجل؟! قل عشر بطحات.

. أنا سكران يا آدم؟

. أنت طينة يا حبيب آدم...

وفي البدايات كان الدكتور عبد الله يقطع المسافة بالسيارة، ليظلّ محافظاً على مشاعره الأثيرة، التي خرج بها من المنزل، ولكنه أدرك فيما بعد مبلغ خطر ذلك على مشاعر الناس، وعلى مهنته، فكفّ عن ذلك، ليظل بينهم وقريباً منهم.

. الحكيم قادم.

أصوات هامسة من عجائز وشابّات تعلقت أنظارهن بقدمه اليمنى التي ينقلها برزانة وثقة، وقد شاب مشيته عرج خفيف لا يدركه إلا المدقق الخبير.

. الحكيم وصل.

قالت عجوز باهتمام فرّدت كنتها الشابّة:

www.alkottob.com

. حكيمك يختال مثل الحصان.

. لكنه حصان أصيل، وله لسن يطلع الحيّة من الغار.

. نشوف.

رفع الدكتور عبد الله خصلة الشعر عن جبينه، حركة اعتادها منذ صغره، ثم ابتسم وهو يعبر الصفوف البشرية، التي امتدت من مدخل العيادة إلى الطابق الثاني، وفي صالة الانتظار، تصفح الوجوه التي اعتادها، وعرفها، هذه الوجوه مرسومة بألوان قاتمة ومعتمة، امتصّ عافيتها، وجفف رونقها شموس الحصاد، وشقاء القطن، والركض في البراري وراء الأغنام، والأباعر، ونشّف جلدها الشاي والدخان والوقت العسر، وجوه وراء ملامحها الجاسية عوالم من الخرافات والحكايات الأسطورية التي طالما تألق بها في محاضراته، ومجالسه الحميمة، فكسب سمعة راسخة في صالونات دمشق وبيروت.

وفي صدر الصالة طالعته كالعادة صورة لفتاة بدوية تحمل حزمة من سنابل القمح الصفراء، فيشع منها الذهب والنماء، والرغبة الجارفة في الإفناء والغناء في لهاث البراري الشابّة، صورة أدمن رؤيتها منذ أعوام، جلبها أحد العاملين عنده، وعلّقها إلى جانب القسم الطبي دون أن يقصد غاية محددّة.

فتح الممرض الشاب الباب، فدلف إلى الداخل، الغرفة التي يستقبل فيها مرضاه بسيطة الأثاث، أقرب إلى العري إلاّ من بعض الآيات القرآنية المعلقة، والكراسي القليلة، ومقعد طويل للمعاينة، وطاولة من الخشب تناثرت الأقلام وبعض زجاجات الأدوية على سطحها بإهمال غير مقصود.

خلع معطفه، وبعد أن علّقه على المشجب، وارتدى مريوله، أسند ظهره إلى الكرسي المريح، وابتسم لكل شيء للصباح، وللناس، ولصوت الباعة في السوق القريب، ولرائحة الأدوية والمرضى، ومن النافذة تدفق نور الشمس، وقد بدت من وراء ظهره أسطحة المنازل الواطئة ورتابة حركة المخلوقات، وإيقاع المولد الكهربائي الذي مازال يعمل منذ بداية الاحتلال الفرنسي، دون توقف.

مرّ رفّ من الحمام، رآه بطرف عينه قريباً من النافذة، حين دخل عليه أول مرضاه، عجوز ناحلة. أطلت خصلة حمراء شاحبة من شعرها المصبوغ بالحناء من خلال عصبتها السوداء، وقد امتلأ وجهها برسوم بدائية لوشم . كان يوماً . يزين وجهاً وسيماً معافى، عجوز تنقل خطاها بثقل، وهي تتكئ على كتف شابّة حلوة بزّيها التقليدي، تبدو وكأنها كنتها، وحين جلست على الكرسي تنهدت، وهي تمسح

www.alkottob.com

غبشاً لا يزول عن عينين كانتا يوماً جميلتين، ثم قالت بصوت بدا للدكتور عبد الله وكأنه يأتي من العالم الآخر:

. مرحباً.. حكيم.

. يا هلا بأم عويد. خير.

. جاءك كل خير.. يا حكيم.

. واضح.. الصحة عال والحمد لله.

. عشرون عاماً مرّت يا حكيم، والخوف جديد عليّ.. قل لي يا حكيم..

. نعم ..

. عزرائيل؟ هو عزرائيل الذي نعرفه أم تغيّر هو الآخر؟

. وكلي الله يا أم عويد.. عزرائيل هو عزرائيل إلاّ إذا كان لك رأي جديد.

ـ ونعم الوكيل يا حكيم.. ولكن إذا كان هو عزرائيل الذي نعرفه، ليش أنا خايفة يا حكيم؟ ليش الرائحة تغيرت؟ صاحبي الذي أعرفه من قبل كانت له رائحة الذيب، أما الجديد فله رائحة الضبع يا حكيم..

. الوقت شين يا عجوز.

. الوقت يبدّل الرائحة؟

. يبدّل.

. حتى رائحة الموت؟

. أبعدي الموت عن فكرك.. فأنت والحمد لله أكثر شباباً من كنّتك.

. اضحك على خالتك.. اضحك..

وقام من مكانه مطلقاً فكاهة قديمة، تعرفها، فأشرق وجهها، وفارقتها الحيرة، وبدأت تعدّد سلسلة أوجاعها التي لا تنتهي.

***

للموت والحياة معناهما الخاص في العيادة.

فهما صديقان أليفان، يشربان الشاي والقهوة، ويستمعان إلى أحوال المواسم، وغارات الجراد على الزرع، والخوف على القطن من الدودة، التي تفتك بأجراسه الخضراء، وسط دخان التبغ، ورائحة الجلود التي دبغتها الشمس الكاوية، ولا يختصمان حول القسمة، فمكر الزبائن بات معروفاً، وسلطان الطبّ الحديث لا

www.alkottob.com

يعلو فوق سلطانها.

. الله.. الله..

ربما تتصاعد من صدر عجوز لطأ في الزاوية، يرقب وجوه القادمين، وجلّهم من القرى القريبة، والأرياف، ودخان سيكارته، يتصاعد، وفي عينيه نظرة غامضة، تدرك أن الوقت مثل الفرات، موجة تدفع أخرى حتى يصل المحيط المالح، فيغيب الصغير الحلو، في الكبير الأجاج، ولا مفر أو مهرب.

. كيف سأقول له؟

قالت شابّة سمراء، تتدلى من ورديه أنفها قطعة ذهبية، تخاطب قريبة لها فأجابتها المرأة:

. لا تقولي شيئاً.. الحكيم يعرف من غير كلام.

. يا ربّي..

. أنت خوّافة وهبلة.

واستسلمت لأمن حذر، بينما ظلّ وجه الممرض حيادياً وراء طاولته، وأمامه أوراقه التي سجّل عليها أسماء المرضى وأدوارهم، وقد بدأ مع مرور الوقت، يفقد اهتمامه بالمرضى الذين لا يجدون متعة إلاّ في الجلوس على الأرض والثرثرة الفارغة التي تصله بلا معنى.

ـ مائة مرّة قلت له يا حكيم، قل لي: اترك ابنك، أتركه، اهجر النسوان، أهجرهن، لكن الدخان لا، كل شيء إلاّ الدخان، فيهز رأسه ويقول هذا كلام مجانين، تترك الدخان يعني تتركه، رجل تبطحه سيكارة ليس برجل، عيب عليك، وأترك الدخان يا صاحبي وبعد شهر، أو شهرين، تعرف النفس الدنيّة، أرجع له، وترجع البلاوي والمصائب، فلا أعرف النوم أو الراحة.

قال رجل لجاره.. فردّ عليه:

. ابن آدم مثل الماء، كلما صادف مكاناً واطئاً ركض إليه.

. هي موتة موتة، فدخن عليها تنجلِ.

. هذا رأيك؟

وضحك الرجلان بودّ وصفاء، وقد تصالحت في الداخل أمور كثيرة تلوذ بظلام وخدعة وتصاعد الدخان.

. أووووف..

www.alkottob.com

تململت امرأة شابة بين يديها وليدها الناحل، الذي كفّ عن البكاء، وكانت تنظر بخوف إلى الباب المغلق مرتاعة، خائفة من وقوع ما تخشاه، فهذه تجربتها الأولى في الإنجاب.

. اهدئي..

قالت لها امرأة عجوز، والمكان يضيق حتى يتحول إلى ثقب إبرة، فرّدت ضارعة:

ـ من البارحة ما غمض له جفن، ولا عرفت النوم، ولم يطلع النهار إلاّ بعد أن طلعت روحي.

. هؤلاء هم الأولاد، شيب القلب، وعمى العين.

. لو كنت أعرف..

. تعرفين ماذا؟ الولد نربيه كلّ شبر بنذر، والبطن التي تلد واحداً، تلد عشرة.

قالت العجوز وهي تقرّر أمراً لا مفر منه، فما أكثر الذين دفنتهم صغاراً، وما أقل الذين عاشوا.

وحين كبروا غادروها إلى دنيا أخرى، ومع ذلك دعت لهم بالسعادة، ولم تزعل.

. ها.. انفتح الباب..

صاحت الشابة، ثم انسلت إلى الداخل بخفة الأفعى، دون أن تأبه بأحد من الحاضرين، وضاعت سدى صيحات الممرض الحيادي.

مع آخر مريض غادر، وبعد انصراف الممرض.

تنفس الدكتور عبد الله الرفاعي الصعداء، رفع قدميه، وأراحهما على الطاولة، وراح في غيبوبة ناعمة، وكأنه يغتسل من غبار الوقت، والكلمات، والأنفاس، والعبارات الفارغة، كما يغتسل الإوز في الفرات، وقد اختلط الحلم باليقظة القاسية، والواقع بالخيال الذي يجعل من السماء قبّة من الكريستال تطالها يد طفل، ومن أسفل العيادة جاءته أصواتهم المألوفة، ما أعجب مربيّ الحمام هؤلاء قد يقتلون أباهم من أجل طير، وقد يذهبون إلى آخر سورية من أجل طير آخر، مهووسون صغار، يتفاوضون أسبوعاً من أجل استرجاع طير اصطاده أحدهم لآخر، وحين لا ينفع الكلام يحتكمون للسكاكين، قال له أحدهم يوماً حين عاتبه على التجمع والضوضاء:

www.alkottob.com

. حكيم.. هذه سوسة لعينة لا خلاص منها.

وقد ظل الدكتور عبد الله حائراً، لا يفهم العلاقة بين تربية الحمام وتعاطي الحشيش، فأكثر المربين من المدمنين يجتمعون في دكان عارٍ أمام العيادة في الطرف المقابل، وهم مسحورون يدخنون، ويرقبون طيور الحمام تحجل بأبهة ملكية، لساعات طويلة كمتعبدين والهين، صامتين، ينتظرون معجزة تحدث، فتذكر يوم وزعت عليهم الحكومة زيتاً، أصاب الناس جميعاً بالعشا الليلي، فتحولت البلدة بعد الغروب إلى قرية للعميان، فكانوا يلزمون بيوتهم، ويتعرفون إلى بعضهم بعضاً بالأصوات، وعلى حاجياتهم باللمس، وحين امتنعوا عن تناول ذلك الزيت اللعين، عادوا إلى حالتهم الطبيعية.

. زمان عجيب.

قال الدكتور عبد الله.. ثم قام من مكانه.

***

. فتّح ورد "الباجلاً".

ترنّم إسماعيل الفارس باللحن، وهو يرى الدكتور عبد الله يغادر العيادة، فلم يكترث "أبو حنّا" الآشوري، فهو يعرف . كما يعرف جميع روّاد الحانة . أن إسماعيل يقول دائماً أشياء لا تخطر على البال، ولا يصدقها العقل، فالعالم عنده بعد الكأس الثالثة مهزلة، فمرة حكى لهم حكاية جدّه المجنون بصيد الظباء والنساء، حين عبر الحدود إلى تركيا، واختطف فتاة كردية جميلة، وفي طريق العودة لم يصبر عليها، خاصة وقد ضفّ الليل، وسطع القمر على تلك البراري الوحشية، فتوقف، بحث عن شيء، يربط به الفرس، وحين لم يجد، ربطها برجل الفتاة، واعتلاها في ذلك الخلاء، وكأنه من الجان، وقد اكتشف أنّ الفتاة أكثر جنوناً منه، ففي الصباح لم يستطع ركوب الفرس إلا بمساعدتها.

ـ كانت الدنيا قديماً يا صديقي في هذه المنطقة، باشوات الترك، وشيوخ البدو، ومخفر الدرك، ثم جاءت فرنسا، فلم يتغير الأمر كثيراً خياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام.

قال إسماعيل الفارس لنديمه وجاره المقابل فسأله:

. واليوم؟!

. انضاف إليهم أغوات القطن.

. والحكومة؟

www.alkottob.com

. أمنّا الكبيرة.

وسكت إسماعيل الفارس حين هبّت رائحة الشواء من بائع القلويات والكلاوي، تاركاً الخمارة تغرق في الدخان، ورائحة المشروب، وقد بدأت زهور الباقلاء، تتفتح في داخله، بينما صاحبه يدفع إلى جوفه آخر ما تبقى في كأسه، وهو يؤكد أن المكان تحوّل إلى سفينة حقيقية، تمخر نهر الفرات باتجاه البحر الكبير.

رائحة الشواء تهبّ، والحانة تستقبل زبائن جدداً، أنصاف بشر، من سنكري عجوز جوّال، جلس عند المدخل للراحة، وتناول كأس من العرق، ودلاّل سيارات في الكراج القريب، وصيّاد سمك صامت كصخرة، وكأنه ينتظر سمكة تعلق بصنارته.

. من أين جاء كل هؤلاء النغول؟

قال إسماعيل الفارس لصاحبه.

. دع أمر الخلق لربّ الخلق يا رجل.. واشرب.

أجاب الرجل.. ثم رفع كأسه عالياً.. وأردف:

. بصحتك..

. صحّة.

ـ إسماعيل.. كل الناس خير وبركة ماداموا يشربون العرق، ويقامرون، ويتركون لي نساءهم وحيدات في الليل.

. وهذا ما يسهل عليك إغواءهن.

. اشرب..

. اسمع يا صديقي.. السيد الوحيد هذه الليلة عندي هو البوكر.

مع مَنْ ستلعب الليلة؟!

. شلّة الوجوه المعروفة.

. وأين ستلعبون؟

. في بيت "الشريف".

. كرخانة في النهار، مقمرة في الليل، عاش الشرفاء.

ـ آه لو ترى بنات الرجل وهنّ يقدمن المازة والويسكي والعرق والابتسامات

www.alkottob.com

المشجعة، ويراقبن الأرصدة المكدسة أمام المحظوظين..

. ستموت على طاولة القمار..

. فليكن..

. يلزمنا بعض الشواء.. ما رأيك؟!

وقام الرجل دون أن ينتظر ردّاً من إسماعيل، وغاب.

. يجب ألاّ أسرف كثيراً في الشراب اليوم.

قال إسماعيل الفارس يخاطب نفسه، وقد تحرك السنكري العجوز مغادراً المكان بعد أن شرب كفايته، وقد توّرد خداه المغضنان، وعادت إليه قواه.

. العرق بلا شواء كالفراش بلا أنثى.

. أصبحت حكيماً يا صديقي.. هات.

وفرد أرغفة الخبز الحارة على الطاولة الخشبية الواطئة، وقد فاحت رائحة اللحم في المكان كعطر غريب، ومن بعيد تناهي إلى سمعه صوت بيرام الرهاوي يتغنى بزكية بنت زكوّر التي خانته.

***

حين أفاق بيرام الرهاوي متأخراً كالعادة.

رفع رأسه الكبير عن فراش القش، فاصطدمت عيناه بالجدران السود، والثقوب والمسامير، وكأنها وجه مجدور، وفي زاوية من الزوايا، تكوّمت كميّة كبيرة من ورق الصحف والقش، والأغصان الجافّة، والأخشاب، فإن بيرام لا يتورع عن القيام بعمليات سطو صغيرة وساذجة لحسابه الخاص، مقابل بعض الشبع والدفء أحياناً، وغير بعيد عنه، كان إبريق الشاي يقف كطاووس للأبهة والنشوة، وإلى جانبه كأس فارغة.

حرّك بيرام فخذه، فانغرست قدمه في التراب الفدر، وطارت علبة الدخان المعدنية من جيبه، فتذكر السيكارة، فتناولها بأصابعه الطويلة، فتحها، فصدر عنها ذلك الصوت المعدني الخافت، المرحب "تك"، وبارتعاش خفيف ولاهف، أخرج الورقة البيضاء الرقيقة، ليلفّ سيكارة، فتمزقت بين أصابعه فبصق بنزق.

كانت الغرفة أو ما يسمى غرفة عبارة عن خرابة، هجرها الناس، وتحاشوها، بعد أن كثرت حولها الأقاويل والشائعات، عن امرأة شابة تخرج في منتصف الليل غارقة بدمها، وهي تحمل رغيفاً من الخبز، تقسم عليه إنها بريئة من كل ما نسب

www.alkottob.com

إليها من فجور، وإن زوجها كان مجنوناً حين صدّق، وفعل بها ما فعل، ويوم سكنها بيرام الرهاوي، قال الناس إنه خاوى الجن، وأصبح خدين الأرواح، فأصبح نصفه قديساً، والنصف الآخر معلوناً عند الناس، ودخل بمجمله في زمرة الدراويش من أهل الحال والأسرار على قاعدة "يضع سرّه في أضعف خلقه" وهل هناك أضعف من بيرام؟!

خربة أو غرفة . فليكن . توالي من قبل على سكناها كثيرون، ولكن بعد مقتل المرأة لم يجرؤ مخلوق على الدنو منها، حتى جاء بيرام فاحتلها بقوة الجنون، وقد امتدت أمامها عرصة واسعة تملؤها الحجارة والصخور وأشواك العاقول.

لحظة أرَّث الرهاوي سيكارته، فرد قسمات وجهه، وراقب قدميه الحافيتين المفطرتين، وثوبه الحائل، الذي لوثته الأوضار وبقع الدهن، وكان شعر رأسه المدغل بالتراب والوسخ يشرئب، وحسّ الطمأنينة والهدوء يرينان على ملامحه مما يسلمه إلى استرخاء رعوي غير آبد، فجضَّ كحيوان مربوط:

. يا زكيّة.. يا بنت الكلب.

وعاود الصمت، فلاحت صورة أبيه الأصهب، ولبابيده، وأكوام الصوف، ورائحة العرق الحامض والماء.. فصاح:

. يا مسلم الرهاوي.. يا أبي الحقير.

وقد أحسّ برغبة حقيقية في قتل هذا الأب الخائر والمسكين، فاندفع يغني بشراسة طالما واراها بالهبل:

. فتح ورد "الباجلاَّ"

ثم سكت فجأة حين تذكر مبدأه: الغناء ممنوع بلا مقابل، فهو عندما يغني يجب أن يقبض مقابلا، ولا تهمّه طريقة التعامل التجارية بضاعة مقابل نقد، وإنما مقابل كل موّال أو أغنية، يأخذ سيكارة، أو رغيف خبز، وربما حفنة من السكاكر وبعض الشاي الأسود.

وكان بيرام الرهاوي ذا وجه أحمر تملؤه بثور ناعمة، وفي عينيه الصغيرتين تحت حاجبيه الكثيَّن، تستقر نظرة بلهاء غير مستقرة، وإلى فترة غير بعيدة، لم يكن يشكو من مرض، أو تغير يلفت الانتباه إليه، إلى أن حانت اللحظة.

كان الوقت صباحاً، وقد أفاق بيرام متعباً بعد ليلة حافلة، أمضاها في ركل اللبَّاد الملفوف بقدمه جيئة وذهاباً من أول الدكان إلى آخره، وهي الطريقة البدائية في صنع اللبابيد الصوفية، التي ورثها أبوه عن أجداده الرهاويين.

www.alkottob.com

تناول علبة أبيه ودرج سيكارة غليظة من التبغ المهرّب الثقيل، فصاحت به أمه:

. بيرام.. سيقتلك الدخان يا بني.

فلم يردّ، تناول كأساً من الشاي، وقريباً منه كان أخوه عطا يلهو بقطعة من الجبن الأبيض والزيتون، فالبيت آجار، والدكان آجار، ثم الصوف وهؤلاء البدو والفلاليح تفتحوا مثل الأبالسة، فلا يمكن غشّهم أو سرقتهم كما في الماضي، وفجأة اندقّ الباب الخشبي المتهالك، فقام بيرام بتثاقل، يحاول أن يطرد بقايا النوم، حافي القدمين، فتح الباب فأطل وجه دركي سمين.. بادره:

. بيت مسلم الرهاوي؟

. نعم .. أية خدمة؟

. أنت بيرام؟!

. نعم.. سيدي.

ومدّ له ورقعة رسمية، وأشار إلى ذيلها قائلاً:

. وقع هنا..

. أنا أمّي سيدي.. ثم على أي شيء أوقع؟

. وقع. ابصم لا يهم.. هذه تبليغة.

. تبليغة؟... ماذا تعني؟!

. تعني أنك مطلوب "للعسكرية".. فهمت يا حمار؟!

. فهمت سيدي.. عسكرية.

. ابصم.. يلعن "هيك" أشكال تريد تحرير فلسطين بكره.

وبصم بيرام الرهاوي، ثم عاد مطرقاً يجرجر قدميه خائراً، فاستقبلته أمه بنظرة خائفة حذرة، فلأول مرة يطرق بابهم ابن حكومة، فقالت متسائلة.

. ها.. بيرام ماذا يريد منك؟!

. عسكريّة بنت الكلب.. عسكرية.. فهمت؟!

وضربت صدرها بجماع يدها.. وصاحت:

. من أين جاءتنا مصيبة "العسكرية" هذه؟! أمان ربّي.. أمان.

وطالعتها صورة مسلم الذي بدأ يذوب، وكومة الصغار، والسعال الذي لا

www.alkottob.com

يتركه طوال الليل، وقال بيرام بنزق:

. أنا أكره العسكرية.. العسكرية بنت كلب.

وقالت الأم:

. كيف ندبر حالنا بدون بيرام يا ربّ؟!

وقال أخوه عطا:

. بيرام سيصبح عسكرياً؟

وقال أخوه الأصغر:

. سيخاف من بيرام كل أهل الحارة، ولن يضربنا أحد.

وتابع بيرام شرب الشاي والتدخين، فهو سيرحل وحيداً، وراء حيطان عالية، وأسلاك شائكة، ولن يستطيع رؤية أهله إلا في "المازونيات" وهات عمراً حتى تحصل على "مازونية"، ماذا لو كان لديه البدل النقدي؟! البدل النقدي.. وهزّ رأسه وهو المفلس ابن المفلس، وتذكر اللبابيد والزبائن المنتظرين، والصوف المكوّم، وهؤلاء الصغار.. يا رب.. قال في داخله ثم تحرّك إلى الدكان، حيث كان أبوه ينحني على الصوف النظيف المنفوش، يرتبه بصبر وعناية وخبرة، وقد غرقت نظراته في المساحات الملّونة، يتقراها بدراية وعشق، وقد تدّلت من طرف فمه سيكارته اللفّ، وضاقت عيناه تحت جمّة بيضاء، وبين لحظة وأخرى يتصاعد سعاله المشروخ، فيهتز بدنه كاملاً:

. بلغوني اليوم.. لازم ألتحق "بالعسكرية".

قال بيرام، فجمد الوالد للحظة، ثم سعل بقوة، قبل أن يقول باستسلام:

. العسكرية واجب وخدمة للوطن.

. واجب..

تمتم بصوت خافت، ثم استدار إلى الطرف الآخر تهاجمه رائحة العفن والعرق الحامض وعيناها، عينا زكية بنت زكور الواسعتان كعبّاد الشمس.

وظل بيرام ساكناً، ساجماً مدّة أسبوع، ثم أعلن جنونه:

. يا زكية.. يا بندورة حمراء..

صاح بيرام في السوق بين دهشة أبيه واستغراب الجيران.. ثم اندفع يغني بصوت حزين وجاد، ويرقص بجنون أسطوري:

مالي شغل بالسوق مرّيت أشوفك..

www.alkottob.com

وانطلق بيرام في الزحام حتى توقف أمام دكان زكوّر، وبدأ في شتمه والسخرية منه، فجاء الدرك، ولأول مرة يذوق طعم الخيزرانات والأحذية الثقيلة، ومع ذلك لم يتوقف عن الغناء بجعير هز المكان، وقال الناس:

. فقد بيرام عقله.

وقال أبوه:

. منه العوض وعليه العوض.. جُنَّ الولد.

وهذا ما أكدته اللجنة العسكرية الطبية في حلب، فأعفي من الخدمة، ولم يعد إلى بيته بعد التسريح، تحصّن في الخربة المسكونة، مع شبح الفتاة القتيلة، واستسلم الأب لقدر ابنه قائلاً:

. كان عقله يزن جبلاً .. ولكن...

وقالت أمه:

. لقد خاوى الجنّ، وتزوج من جنيه خلّف منها، وهي لا تتركه.

وقال الشيخ جنيد:

. الرجل عاشق، والعاشق إذا ذاب قلبه، اختلّ عقله.

وحده الدكتور عبد الله الرفاعي، تفهّم حالة بيرام الرهاوي، لكنه لم يبدِ رأياً وإنما قال:

. سيكثر أمثاله في المستقبل كلما تعقدت الحياة.

***

. يا زكيّة...

نادى بيرام وهو يعبر الحانة، فتابع إسماعيل الفارس أحاديثه غير المفهومة للعامّة، فقال لصديقه وهو يشرب:

ـ بتقديري بعد موت إبراهيم باشا الملّي، وانفراط عقد الكتائب الحميدية، لم تظهر زعامات حقيقية في المنطقة، وكل الظواهر التي كانت لا تعدو كونها صنيعة للسلطات المحلية: القائم قام ومخفر الدرك وشيوخ البدو، وقد حاولت فرنسا أن تضيف إلى الجاه العشائري قليلاً من سلطة الحكومة والولاء للحاكمين.

. إسماعيل.. من أين تأتي بهذا الكلام؟!

ـ هل نسيت أنني كنت المرافق الخاص للكابتن بونو ضابط الاستخبارات الفرنسية، لقد تعلمت منه كثيراً، وحفظت كثيراً من أحاديثه مع الزوّار، ثم لا تنسَ

www.alkottob.com

أنه الذي علمني القمار والسكر.

. ها.. نسيت.

. بصحتك..

. صحّة.

وتابع كل شيء حركته في ذلك الحيّز من الحانة، فأطلق إسماعيل حكمته الأخيرة قبل أن يقوم، ليستعد للعبة الليلة:

. البلد منذ البداية افترق إلى حلفين: حلف الأكراد، وحلف العشارين، وكل مَنْ جاء بعد ذلك "قراطة"، أتى به القطن أو مشاريع الحكومة أو الفقر. وفتح ورد "الباجلا".

وقام إسماعيل الفارس من مكانه، فتهيأ آدم الآشوري لطلب جديد، وتساءل إسماعيل لآخر مرة:

. ماذا يفعل حاج مامو العجوز الآن؟! وهل سيغلبنا في اللعب الليلة؟!

وهزّ رأسه نافياً مثل هذا الاحتمال إلا إذا كان هذا العجوز قد عقد حلفاً مقدساً مع إبليس.

***

www.alkottob.com

خطوة.. خطوة نزل حاج مامو من الجرداق.

وحين توسط الحوش، ملكته قوّة خفيّة، فسال زهواً، وكأنَّ حجراً في المكان يوطد زمانه المقبل، ويؤبد سلالته إلى أجيال، هو الذي نسلته امرأة أصابعها من ذهب، وعقلها من جواهر، امرأة عودته الرحلة، وعشق الماء والأسفار، وصلَّبته على نار هادئة، امتصّت كلَّ وهن خائر من شجرته، فكان يرقة الحرير التي تصنع من أوراق التوت الطريّة حريراً.

. عوّاد.

نادى بقوة آمراً، فطلع خادمه الموكل بالحطب والماء كالجني، ثم جاء يسعى، وأقدامه الحافية تدقّ الأرض، وصدره مفتوح للهباء.

. أمرك حاج.

. واحد طويل عريض مثلك...

قال الحاج وهو يتأمل عوّاد كما يتأمل عجلاً للفلاحة لا بشراً.. ثم تابع:

. العدّة.

وترك الحاج خادمه إلى دنّ الماء الفخاري، ليشرب قليلاً من الماء، وقد بدا الحوش واسعاً، أشبه بقلعة من القلاع، يتوسطه تل من الرماد الأسود والفخار والطوب المحروق، يؤكد الأهلون أنه من مخلفات التتار حين مرّوا في المدينة، وقد تركه الحاج على حاله، بل اتخذه مرصداً يرقب من فوقه ما يجري، حيث يجلس على قمته، منعزلاً ووحيداً مع عدته يفكر، ويشرب، ويدخن النرجيلة، ويحلم أحياناً، أو يتذكر رحلته الأخيرة إلى هذه المنطقة قبل عقود من الزمن الهشّ.

انحدر الحاج مامو من البيرة، محملاً سفنه بالأرزاق من زبيب وتين مجفف وحلاوة وبرغل، وهذا ليس بجديد، لكّن الجديد اصطحاب عائلته معه، فالفرات يعرف رحلاته التجارية من البيرة حتى عانة، وأغلب سكان ضفاف النهر، يعرفون سفنه، لكّن الذي لم يعرفه أحد هو أن الحاج يرحل رحيلاً أبدياً عن البيرة لأسباب

www.alkottob.com

تافهة، لكنها مؤرقة له، تحدّ من سطوته، وتربك لحظات سعادته.

فقبل ثلاثين عاماً جاءت امرأة شابة مع وليدها الطفل، وسكنت البيرة، كانت وحيدة، ومع ذلك لم يسألها أحد شيئاً، فأمام صرامتها وصدقها في المعاملة وليراتها الذهبية، سكت الناس، وحين كبر الولد وعرف الطريق إلى الشارع وملاعب الصغار، سألوه:

. ابن مَنْ أنت؟!

فاجأه السؤال.. فأجاب:

. ابن ماما.

ضحك الصغار بمكر وخبث، وصاروا ينادونه: ابن ماما، ولما شبّ كان يحمل خصائص الأم في شبابها من سيطرة وقوة، ولكنه لم يستطع محو اسمه من ذاكرة الصغار الذين كبروا، فحج إلى بيت الله الحرام، فتحول الاسم إلى حاج ماما، ورغم ثرائه، وامتلاكه للمال وقوة الشخصية، ظل الاسم يطارده حتى قرّر الرحيل، وبعد استقراره حرّف الاسم إلى حاج مامو، وبعد ضم البيرة إلى الجانب التركي، انطوت تلك الصلة إلى الأبد، فأكثر الحاج من الأولاد وشرب الخمرة وزراعة البطيخ الأصفر ثم جاء القطن.

***

. كل شيء جاهز يا حاج.

قال عوّاد، فاتجه، يصعد التل، وقد بدا البيت الواسع هادئاً، فالحاج زوّج الأولاد، الذين زرعهم في مشاريعه الكثيرة، للحفاظ عليها من السرقة والنهب، فهو لا يثق بالفلاليح، فكلهم لصوص عنده، وبعد موت زوجته اكتفى بالخادم، وزيارات الأولاد الأسبوعية، والمذياع الذي ينقل إليه الدنيا، ومباهج الغناء التركي الذي يعشقه.

جلس الحاج يشرب، ويدخن، ويخطط للعبة الليلة مع "الأوباش" كما يسميهم، لأنهم من صغار الكسبة، واللعب معهم يلّذ له، فرغم ثروة الحاج ومكانته وسطوته، يحبّ هؤلاء البشر، لكنّه حب من نوع خاص، فيه الشفقة التي تعلّمها من آرتين مادويان حين كان منفياً في منتصف العشرينات، فكان قريباً منه ومن رفاقه القادمين من بيروت بحكم عمله كرئيس للبلدية يومذاك، وفيه القسوة الشديدة على نوعية خاصة منهم كالبلهاء أمثال خادمة عوّاد، وغيره من العتالة والرعيان وماسحي الأحذية.

www.alkottob.com

مع أول بوادر النشوة الحقّة، ووسط الدخان، يتناول الحاج الغربال . وهو جزء من العدّة . وبدحرجه إلى أسفل التل، ثم يصيح بالخادم الواقف بين يديه كالصنم، لمراقبة نار النرجيلة.

. عوّاد.. هات الغربال.

وعوّاد اعتاد اللعبة، فأصبحت جزءاً من حياته، لذا تراه، ينطلق راكضاً إلى أسفل التلّ، ليعود بالغربال، بينما ينفث الحاج دخانه، ويشرب من كأسه، وهكذا كلما أعاد الخادم الغربال، دحرجه الحاج من جديد.

وعندما يحين وقت صلاة المغرب، ينحدر الحاج، ليتوضأ من البئر، ثم يصلي دون اعتبار لآراء الآخرين، فله فلسفته الخاصّة، فرأس بلا "كيف" يجب أن يقطع، وقلب بلا حب، قلب خربان وعقل بلا إيمان نصف عقل، ويوم أصابته علّة خطيرة، رفض تناول أدوية الدكتور عبد الله ونصائحه، وطلب كبّة نية وعرقاً..

ويوم لامه بعض الزوار على قسوته، وطلبوا الرحمة، بخادمه، التفت إليهم قائلاً بقناعة وإصرار:

. لست أرحم به، ولا أعدل من الله سبحانه حين خلقه نصف حمار، ثم ألبسه جلابيه وعقالاً، وأمره أن يمشي على اثنين.

وهناك سرٌّ لا يبوح به الحاج مامو إلا لخلصائه، فلقد رفض أن يرجم إبليس حين حج، وحجته في ذلك كما يقول:

. ولماذا أرجمه وليس بيني وبينه أية عداوة؟!

والرجل الوحيد الذي كسب ودّ الحاج واحترامه وإعجابه كان ديران، اللاعب الذي لا يهزم في القمار والشراب والنسوان.

. عوّاد..

صاح الحاج، ثم بدأ ينزل التل، متجهاً إلى البئر للوضوء، فلقد حان وقت الصلاة، وفهم الخادم ما يراد منه، فبدأ يلملم العدّة.

www.alkottob.com

بدا في الضوء الشاحب أطول من المعتاد.

سامقاً بجذعه العاري، وشعر صدره الأشقر الذي ينام فيه صليب فضي، يحف به جلال شعائري منحته إياه عزلة المكان الضارية، ووثنية لازالت أرواح قرابينها المهدورة بسخاء تسكن البيوت والحارات، وتطل من الوجاق العثماني، واللقى الأثرية من عقود خرز وأقراط لأميرات من ممالك البليخ والفرات البعيدة، وجرار فخارية لعطور أو زيوت طبية لا يعرف تركيبها غير كهان المعابد والزقورات، ودمى طينية لحيوانات غامضة بعيون شديدة الاتساع وأجنحة وقرون، وثمة نساء عاريات يكاد النبيذ يتفجر من أثدائهن المكشوفة، وأساور زينت بنقش يمثل الأم "تنحور ساج" ونصب لآلهة الينبوع تحمل جرتها، وقطعة نقدية نفر منها وجه الملك "ديكران" الكبير، كل ذلك التقطه بأسعار زهيدة من مهربي الآثار، أو من بعض الأصدقاء الأهالي.

وحين استدار واجهه منجل يدوي بقبضة من الخشب وسجاده من قطع القماش المنوع الألوان أشبه بلوحة بدائية، اشتهرت بصناعتها عجائز المدينة إرضاء لدوافع غامضة في إبداع يردن له أن يكسر رتابة الوقت الواحد، واللون الواحد حيث الرمادي هو سيد الدنيا، وحيث الإحساس بالتلاشي سرطان مدّرع يمضي بصمت وهدوء إلى هدفه دون اعتبار لأي شيء، تحرّك إلى ساحة الدار، وهو يتلمس بأصابعه العارية البلاط البارد، وأطياف الضوء تهجم على عينيه دفعة واحدة، وسط هذا الهدوء، فيتحول إلى كائن لا يهدم أفراحه اليباس، كائن بألف عين يشرب لون الورد ورائحة الصباح واللحم القرنفلي الذي يطلّ من حجارة البيوت.

هذا متحفك الصغير، ودنياك، ورأسمالك الرمزي، بل هو كونك الأثير يا ديران بعض الأشياء لا تريد أن تفهمها ولا أن تعبر عنها اللغة، حتى لا تفقد سحرها الأسطوري وسطوتها الماتعة، فأنت تريدها "لعبة بوكر" تتقنها الأصابع الواثقة وقناع الوجه الفريد، والأعصاب القادرة على الاسترخاء، هكذا مثل تجريد

www.alkottob.com

رائع ومثير وسط عماء شفّاف تلجه حذراً وطائعاً.

هذا أنت يا ديران تستسلم مختاراً لأهلاسك وغوايتك، وقد أثقلت روحك الأسماء والأساطير من آرارات وهايك ونايري، أثقلتك بالمشتهى وأنت الضائع المبدّد، وجميل أن تكون مبّدداً تبحث عن شظاياك في الألعاب والفخار وخرز السحرة وعيون الدمى الطينية المحروقة، ومع ذلك تنسى نفسك ساعة تدخل البنك، حيث تتحول إلى رجل بارد كالثلج وسط الغبار والقيظ.

حرمل وقطاً وحماد بهّي الضوء.

وبلدة على الفرات، ترث وجاهات الممالك المندثرة، ومجد المحاربين، وأنت يا ديران، مثل شجرة الإسفيدار نصفها في الماء وجذورها في تراب الشاطئ تشاقيها العصافير والريح، تترك باب توما ومتع دمشق، مزوّداً بعقل نصفه في الأرقام والسجلات، والنصف الآخر غارق في جنون التاريخ، تمسك بيد ملفات العملاء، وبالأخرى تتلمّس قلب هذه البلدة الفراتية السري بحثاً عن هدف لا تريد أن تنساه حتى لا تنسى مَنْ تكون، بينما الساعات القاتلة تدبّ كيرقات عمياء على السافي ولا مآل آمن.

هذا أنت يا ديران.

تخفي عارك المصرفي الصغير عن الإدارة، فماذا لو رأى أحد رؤسائك هذا المتحف المتواضع؟ بالتأكيد سيرفع يده الثخينة المثقلة بالخواتم الذهبية والرنين، وبعد أن يملأ فمه بدخان السيكار الفخم، ويحكّ رأسه الكبير، ويرمش بعيني زوج مخدوع.. يقول:

. مسيو ديران.. ما هذا؟!

ويصمت قليلاً ثم يتابع وهو يبحث عن قدّاحته المذهبة:

. يبدو أن الإدارة أخطأت فأرسلت نقاباً أثرياً لا مدير فرع وقد يستدير برزانة فيل، وبصوت مثقل بالفخامة والعراقة في التعامل وإملاء الأوامر التي لا تقبل الجدل، فيتابع كما علمه المعمرّون الفرنسيون الذين مازال يحمل لهم ذكريات طافحة بالوّد السريّ والإعجاب الساحر:

ـ مسيو ديران، يجب أن يكون بيت مدير الفرع صورة عن تفكيره ومكتبه وليس متحفاً، اعتقد أنك تفهمني، فسلامة الدفاتر ودقة الحسابات ليست كل شيء عند الإدارة، وأنا أرى أنّ شاباً في مثل ذكائك يجب ألاَّ يضيع وقته في مثل هذه التزّهات، نعم التزّهات بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالات، لذا سأعتبر نفسي

www.alkottob.com

وكأنني لم أرَ ما رأيت شرط أن تجد هذه الأشياء طريقها إلى خارج البيت سريعاً، ماذا تظنّ الزبائن يقولون؟!

وبلهجة حاسمة وخالية من كل تلوين عاطفي قد يقفل الحوار:

. سأعتبر الموضوع منتهياً.

***

باعد ديران بين ساقيه، وزمّ شفتين تحت أنف مستقيم.

صورة لحصان برّي شموس لا يعرف الهزيمة أو إسلاس القياد، ورنا من النافذة، فأطل بيت التعاويذي بمناعة حيطانه العالية، وسوره الذي يناطح الأفق، يصل بحبل سرّي غموض صاحبه وقبّة السماء الزرقاء، وإلى جانبه بيت "قره بيت" صانع عربات النقل الخشبية، وقد امتلأ الفناء المفتوح بجذوع التوت المتناثرة وكأنها جثث فرسان سقطوا في معركة وهمية دون أن تسيل من جروحهم الدماء، وإلى جانبها الأطواق الحديدية، وأحواض الماء المصنوعة من "التنك" الذي طالما راقبه وهو يغمس فيه الحديد المحمى، فيتصاعد نشيش الماء بخاراً ينعقد إكليلاً من الضباب المتأوه، ليتّم ذلك القران المقدس بين النار المتقدة والخشب.

وتظل عينا "قره بيت" باسمتين وسط العرق، والهواء اللافح، والبخار المتصاعد مع الحريق، ثم تمتّد لوحة من الغبار الهابّ مع كل حركة للهواء، تلوّنها الجراء العاوية، والأطفال القذرون، والفراشات التي تتناسل بحريّة في بستان البلدية القريب، وذكرته الفراشات يوم وصوله الأول، كان مرهقاً، بلله العرق والعطش وطول الطريق، وبعد أن اغتسل وتفقد المكان أحس بهدوء غريب، ففتح النافذة على الشارع العام، كان الوقت غروباً، لكنه رأى وهو غير مصدق آلاف الخفافيش والفراشات والأطفال والعصافير تختلط في عجينة واحدة من الضوضاء والألوان واللغة المبهمة، كسوف غريب يراه ولا يصدّق عينيه، قد يكون حقيقة وقد يكون وهماً تفجر في لا وعيه.

واستمع إلى نبض الدم في عروقه، فرد أصابعه وغطى بها جبهته البارزة وهجس بيأس:

. المكان بلا امرأة لا يطاق.

انفتل عائداً إلى كرسيه، اكتشف فضاء الغرفة والطاولة والكراسي وعلبة الدخان، فسكب لنفسه قدحاً من الويسكي، شرب منه جرعة فلذعته الحرارة الحريفة، فأسقط قطعة من مكعبات الثلج فيه وتذكر قول أبيه:

www.alkottob.com

. الأرمني لا يموت من كثرة العمل، لكنه يموت إذا لم يعمل.

وارتمى على الكرسي مهدوداً، مدّد ساقيه ثم تناول لفافة من علبة التبغ غرسها في فمه، فتسللت إليه رائحة التبغ، وحين تصاعد دخانها الأزرق، راقب أصابعه الحافية ترتاح على وثارة البساط الصوفي، فأحس بمتعة ساحرة وكأنه يداعب جسد امرأة عارية خرجت لتوّها من تحت البخار.

ـ التبغ فاخر، والشراب فاخر، والمكان بدائي، لو كانت هناك امرأة فاخرة لاختلف الأمر.

لمع هذا الشعور الحاني صافياً كالمرآة في عينيه، فذكر أول لقاء له مع أنثى في هذا المنفى . وليته كذلك . فالحالة تستدعي أن يسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية، يوماً جاءه المستخدم الصغير الذي أرشده إلى المنزل المخصص لسكناه دون موعد، ابتسم عن صف من الأسنان البيضاء، ودخل، تجوّل في المكان بحريّة مَنْ اعتاد على ذلك وكأنه معنيّ بكل ما في المكان.. ثم قال ضاحكاً:

. مسيو ديران.. اسمح لي.

. تفضّل.

. أنت ابن نعمة، وابن النعمة تعوّد الدّلال.

. شكراً.

وسكت على طريقة مَنْ عاشر السادة والمسؤولين وأهل الحلّ والربط فتعلم منهم كالببغاء ألا يقول كل شيء دفعة واحدة حتى لا يتهم بالثرثرة من جهة، ويضيّع وقع المفاجأة من جهة أخرى.. ثم قال:

. أقول: اسمح لي وقد يكون كلامي فيه تطفل.

. خذ راحتك، نحن في البيت لا في البنك.

ـ اسمح لي أن أعدّ فنجاناً من القهوة، أولاً ثم نتابع الحديث لكي يكون لكل كلمة طعمها، فالدعاء بدون "ملبّسة" باهت، وقد لا يستجاب.

واندفع إلى المطبخ وكأنه يعرف كل زاوية في البيت، وبعد لحظات عاد بعد أن أثار ضجة لا تصدق في المكان، حتى شجيرات الورد والكراسي استمعت بملل، وكأنها تراقب ما يجري بحذر.

. مسيو ديران اسمح لي من خلال ما رأيت أن أقول لك: المكان يحتاج إلى عناية، الأثاث والمطبخ والبلاط والسرير.

قال الكلمة الأخيرة بإيقاع خاص، وهو يبتسم، ويحاول أن يمثل دور الرجل الحريص على راحة معلّمه ورئيسه في العمل. فأجابه:

www.alkottob.com

. هناك امرأة عجوز من الجوار تتكفلّ بذلك.

. عفواً مسيو ديران، امرأة من هذا النوع لا تفهم في الذوق والنظافة ما يكفي، فقد يكون تحت أظافرها من الوسخ ما يقتل فيلاً.

دهش ديران من أسلوب الحديث، وفاجأه استخدام المفردات بشكل لا يتأتى إلا عن خبرة وإطلاع، فاعتاده حذر المصرفي الذي يريد أن يعتمد مشروعاً قد يكلفه الكثير رغم ضآلة أرباحه. فسأل:

. ماذا ترى أنت؟!

وجد السؤال قبولاً حسناً لدى الرجل، ففرد أساريره، وتخلّى عن حذره الزائد الموروث . كما يبدو . وقال باسترسال:

ـ أرى أنك بحاجة إلى بنت صغيرة، ونظيفة، تدّبر شؤون البيت، وإذا كنت محرجاً تأتي بعد خروجك إلى الدوام، لتأخذ حريتها في العمل، فتكنس وتغسل وتطبخ لك اللقمة، وقبل الساعة الثانية ترحل إلى أهلها، وهكذا كلَّ يوم، المهم أن تفهم المطلوب منها، ويكون لديها مفتاح البيت.

. وهل تعرف فتاة بهذه المواصفات؟

قالها وكأنه يلقي حجراً في بركة راكدة، وقد لذّ له أن يكسر رتابة الوقت وتزّمد اللحظات المنطفئة، حيث تدبّ عقارب الساعة مثل رتيلاء مؤذية، فأجاب الرجل:

. أعرف... بالتأكيد أعرف.

. ماذا تعرف أيضاً؟

. أعرف رغبات السادة.

. وهل تطلب آجراً عالياً؟!.

. ومتى كان السادة أمثالك يسألون عن الأجر؟!

. لنفترض الأمر من باب العلم بالشيء.

. لن يكن الأجر موضع خلاف، فالفتاة بحاجة، وكل ما يأتيها منك بركة.

ورشف جرعة كبيرة من القهوة السوداء الكثيفة، وهو يتلمّظ، ويراقب كل حركة تصدر عن مسيو ديران، ويده المشعّرة لا تفارق "عقاله الأسود" على كوفيته البيضاء، وهو ينكسه إلى اليمين، ثمَّ الشمال، وكأنه مولج بتحريك هذا الشيء المدوّر حتّى لا تفارقه شجاعته.

. سأعلمك كضيف مع أنك لم تأتِ بناء على دعوة.

www.alkottob.com

وهبّ غبار لزج مسيو ديران، غامض وغير مفهوم البتّة، فتثاقل اتصاله بما حوله، فتحوّل القادم الرجل إلى حالة عائمة كدبس دبق، وماع الموقف، لم يعد هناك ما يسمى بالناس، بل رنين في حمالة مفاتيح فيها مفتاح للمرحاض، فتذكر قول والده:

. كن دائماً في موقف المشتري لا البائع.

ومع أن الرجل خنس مثل فروة خروف وليد ودائخ، لكنّ الاتصال لم ينقطع، ومثل لقلق فاقد ريشة ذهبية تقوده إلى مصائر الجبال تأوّه، ثمَّ رفع رأسه.

. ماذا تريد بالضبط؟!

قال مسيو ديران متأففاً وكأنّ أسراباً من البعوض اللّوح تهاجمه دفعة واحدة، فردّ الرجل:

. أريد راحة تاج رأسي ومعلّمي.

فاجأ تركيب الجملة الاستعاري ديران، فتوقف كثيراً عند التاج والرأس والمعلم، ترجمها إلى الفرنسية ثم الأرمنية، فظلت إشارات مبهمة تبرق بها كتلة بشرية دبقة، لم يسبق له التعامل مع مثلها في السوق حيث الحدود قائمة بين ما يجري في غرفة المدير، وما يدور في الغرف الأخرى من شائعات مدروسة ومصدّرة كعلب السردين. فاستحضر كلمات أبيه في مثل هذه الظروف:

. وجع الرأس لا يأتيك إلا من الصغير، فاتركه يتصرف.

من هنا قال له مسيو ديران باستسلام:

. تصرّف.

ومرّت سحابة عابرة من الفرح، ورفّ بريق غامض في العينين، ثم استكان الرجل وهو يردّد:

. إنها ستحوّل لك البيت جنّة صغيرة.

***

مع آخر "تكة" في أقفال البنك الحديدية ظهراً.

يستعد مسيو ديران لاستقبال شخصية أخرى فيه، بعيدة عن الأرقام ورائحة العملاء الثقيلة، فيدير ظهره للبناء الآجري الذي يبدو وكأنه لحم العجل القرنفلي المقدد، ويسلك الطريق نفسه دون أن يرفع رأسه إلاّ حين يقابل جاره المحامي فظهر علم الدين عائداً، يحمل حقيبته السوداء وقد ارتدى بزّته الأنيقة، وقد بدت بشرته الشقراء التي يشوبها النمش غريبة على المكان، وبعد القيلولة يستعد لجولته المسائية حيث يختلط الجانب الشخصي في البحث عن التسلية مع العمل الذي يحتم التواصل مع الناس.

ومع آخر ثمالة رشفها من الكأس، قام مسيو ديران مدير فرع بنك سورية

www.alkottob.com

ولبنـان فـي البلـد، وبعـد أن ألقـى بالكـأس علـى الطاولـة، لـبس قميصـه الحريـر وجواربه، وحذاءه، ثم خرج صافقاً الباب خلفه، باتجاه بيت سعيد النهري.

فـي الطريـق كانـت الوجـوه تعبـره كأقنعـة خاليـة مـن كـل تعبيـر، مـرّ ببيـت التعاويـذي قلعـة الغمـوض السـادرة فـي نـوم قطنـي، شـمّ رائحـة الزيزفـون وحنّـاء الأعـراس، وتـردّدت أناشـيد سـريّة ترافقهـا نقـرات دفـوف موغلـة فـي المـاء وعشـب العانات السرّي، تقول لغة عصية الفهم والتفسير، تقلق لياليه أحايين، فلم يبالِ:

. لك ما تشتهي.

والشـهوات فـي المنـاطق الرماديـة مؤرقـة وقاتلـة كسمّ العنكبوت، ترضـع الرمـل أحياناً، وربما سفّت دروع التراب الهشّ، لتصنع غراماً خرافياً باللانهائي المشتهى.

ثم تنـاهى إلـى سـمعه حركـة "قره بيت" النشـطة، وجمـر نـاره الـذي يـزاوج بـين الحديد والخشب والماء، بينما يقف زبائنه كالكلاب الضالة مدهوشين ومتلهفين أن يتحول كل ذلك إلى عربات تجرّها بغال هجينة، أو كدش في فيافي الله المحروقة بالشمس والجير.

. له ما يشتهي.

قال في نفسه وكأنه يقول لقره بيت:

. تظلّ قديس الحقد والصمت.

ويمّد الهدوء أجنحة الرماد، ولا يدري من أين يأتي ذلك الوجوم الخانق فيتمنى لو كان لقلقاً يفرد أجنحة ويطير إلى حيث الثلج والنار معاً.

وساعة يمرّ من جانب "خان الشيوخ" الذي كان يوماً مركزاً لشركة السوس الإنكليزيـة ومـأوى للمنفيين السياسيين أو الأسرى، يـزداد المكـان جنائزيـة وشـجواً، وتمـلأ طيـور الخفـاش التـي انطلقـت مـن أوكارهـا فـي السـقوف والجـدران الخربـة الأجـواء مـن حولـه، وكأنهـا تحـنّ إلـى الماضـي الغـارق بالسـحر والأبهّـة والـدّم، والنياشين التـي تؤكد شـجاعة حارّة من أجل الوجود، وكان ثمـة حالـة عائمـة تقود أقدام ديران فيتصـاعد صدى خطواته في الرماد العاري يرثي وحدة مشتبهة وسرباً من اللقالق العطشى تبحث عن غيمة تقودها إلى ماء وأرض تشتهي زياراتها.

***

www.alkottob.com

الكتاب الثاني
العفن الوردي

"هنا حيث لا شيء تراه لا شيء تفعله قرية كوسموبوليتية
وبشر هراطقة"

من دليل سياحي

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الطريق لاحبة طويلة.

تمتّد في جسد أرض جاسية ومقفرة، ومن بعيد لاحوا، يعتسفون الخط الرمادي المتعرّج، سرعان ما انكشفت عن رجل أشقر وخشن، يرتدي بزّة عسكرية، مما يدّل على انتمائه إلى الحامية الفرنسية التي ترابط في المدينة، وآخر غامق السمرة يرتدي ثياباً بالية، وقد دلّت سحنته على أنه واحد من الأهالي الذين يخدمون في الثكنات من خلال قيامهم بخدمات صغيرة، ثم الكلب وبعض الطيور القتيلة.

. لقد مررت بمدن كثيرة، وعرفت صنوفاً وأشكالاً من البشر والخمور والنساء، كلها تمّحى من ذاكرتي حين أعبر الحدود إلى حدود جديدة.

... .

ثم.. كنت أعرف حقيقة ثابتة أكثر مما أعرف الأمكنة والوجوه ولحظات الجنس والسكر والمرح، هذه الحقيقة تقول: بندقيتك هي الشيء الوحيد الذي سيغادر معك إلى كل مكان تذهب إليه.

... .

قال الفرنسي وقد بان البشر على وجهه، وهو يرى النهر، فاتجه إليه، وعند الشاطئ توقف الموكب الصغير للاستراحة.

. لقد قتلت.. أجل قتلت أناساً، وحاصرت بيوتاً، ولم أشعر بالذنب، كان الأمر في الحقيقة لا يعدو أكثر من تنفيذ مهمة عسكرية بانضباط.

... .

ـ أمّا هنا، فالأمر اختلف، فهذه الأرض مسكونة بالجنون، والأرواح، الموتى أحياء تراهم في الأوابد والنقوش الأثرية والأسوار الحجرية، والأحياء موتى صامتون، يتحركون مثل دمى أو فزاعات.

... .

. لكنني فهمت لماذا اختار الله هذه الأرض للأنبياء؟؟

www.alkottob.com

. . . .

. كما فهمت أيضاً كيف خسرنا حروبنا المقدسة من أجل بيت المقدس؟

. . . .

. من هنا تأتي أهمية انتصارنا في الحرب.

. . . .

. ما لك صامتاً أيها البدوي؟ إنني أنقل مشاعري في لحظة اعتبرها خاصة، وأنت مثل فوهة بئر مغلقة.

. . . .

كان البدوي في وجوم كثيف، تهوّم في داخله مشاعر، تلتصق به كحراشف الشبوط، فتعزله عن الإحساس بالمكان والزمان والبشر، وتسلمه إلى ذلك الحياد القاتل، والبرود الثلجي.

. هذا الحر يجب أن ينضج مشاعر ممتازة مع أنه لا يطاق.

. لقد اعتدنا عليه سيدي.

. ينتهي العالم لمعظمكم عند النهر.

. نحن البدو كنا نشتو في سهل العمق، وبعد أن منعنا الأتراك، وحلقوا شعور النساء، امتنعنا عن الذهاب، وتحولنا إلى البادية رغم قلّة المراعي.

. أنت تكره الكلام أيها البدوي.

. . . .

مضارب الشعر، التي كان يسكنها أهل العشيرة، وقطعان الغنم التي تسدّ عين الشمس، دلّة القهوة الكبيرة، وهي تهدر فوق جمر الرمث والشيح، صور تلوح في ذهنه، ثم تبدأ الوجوه في المرور، وجه أبيه الأسمر، وجه أمه، وجه عمه عناد، ثم وجه فرسهم الزرقاء الأصيلة، تصهل بين البيوت.

. سأغضُّ الطرف عن صمتك أيها البدوي، فأنت مشغول بأمور أخرى، ربما بامرأة تموت من أجلها عشقاً، وحين تتزوجها تضربها في اليوم التالي حتى الإغماء، وقد تضربها ليلة "الدخلة"، فلقد سمعت أنكم تحملون خيزرانات رفيعة معكم، أعددتموها خصيصاً لعرائسكم، تكسرونها على جلودهن حتى تزرقّ، ثم تباشرونهن مثل ذؤبان يثيرها منظر الدم والدموع، أيُّ كونت ساد هذا الذي يسكنكم؟!

www.alkottob.com

. قد نموت أحياناً من أجل أشياء غير النساء.

قال البدوي بهدوء ورصانة، وكأنه يقرأ أمراً لا يقبل الجدل.

. لا تقل لي من أجل الوطن.

. مات أبي حزناً على فرس.

. مات أبوك من أجل فرس، وأنت كيف تموت؟!

. ...

. لن تموت من أجل شيء.

. ...

. هل عرفت امرأة؟!

. هذا لا يخصك... سيدي.

. لقد امتلكت شيئاً واحداً، وأراهن أنك لا تعرفه.

. ...

. تعرف الخنازير التي ترعاها، ويحرم دينكم لحمها، لقد امتلكت طبيعتها.

. ...

وزيادة على ذلك، الخنازير لا تسكر، أمّا أنت فتسكر حتى التبوّل.

. الله غفور..

. لن تفهم شيئاً من حديثي، والآخرون لا يفهمون، ولكنهم يملكون في ذواتهم شيئاً يشبه البارود، عند الضغط ينفجر بقوة وعنف ورجولة، تقرب من الإلهام والجنون.

. ...

. الفارس في ذاتك أغرقته الهموم والخنازير والخمرة، لهذا فأنت معطوب وأبله لا يرجى منه خير، ومعظم قومك هراطقة.

. ...

. في دير الزور افتتح الأمريكان مشفى يشرف عليه بعض الآباء بإخلاص، كانوا يلُمون المرضى والفقراء، ينظفونهم من القمل والوسخ، ويشبعون بطونهم الجائعة، ويقدّمون لهم العلاج والأدوية، حتى يتحوّلوا إلى بشر، فإذا حدثوهم عن معجزات الرّب، ردّوا بمكر: صلّى الله على سيدنا محمد... لقد أعجزوهم.

www.alkottob.com

. ...

. هل أحببت الفرس التي مات أبوك من أجلها؟!

. كانت فرساً أصيلة، وهذا يكفي سيدّي.

. هذا الشيء بالضبط نفهمه أكثر منكم لأنه يعني عندنا فرنسا.

. قال أحد العارفين لأبي: هذه الفرس مشعورة تحمل اللعنة لكل من يملكها، فتخلّص منها لكنه رفض.

سكت الفرنسي قليلاً، وقد أعادت البرودة، وحركة الكلب الودودة إحساسه بما حوله من الموجودات، ومع ذلك ظلّت شهوته إلى الكلام، لا تنتهي، فعاد إلى السؤال:

. ترى ما يحاكمكم؟

. أعراف الصحراء وقوانين البدو.

. ولمَ تركت الصحراء؟!

. مشيئة الله.

. أتعرف أين تعلمت لغتكم؟ هناك في الجزائر.

كانت الكلاب والرعيان والقطعان أكثر من جنود الحامية الفرنسية، حتى كان ذلك اليوم الذي لم يبقَ فيه لأبيه حردان سوى فرسه الزرقاء، الحلال مات، والرعيان هجوّا، فركب فرسه في الصباح، وحين عاد وحيداً، كان ضائعاً، زائغ البصر، لا يعي ما حوله، حمَّ، فلزم الفراش، وبعد أيام مات.

. بعد موت أبي حاولت أن أمتهن اللصوصية، لكنني لم أفلح في ذلك..

. مهنة الضعفاء.

. من لا يسرق عندنا لا يعد رجلاً.

حين استعد الموكب الصغير، للتحرك، انطلق الكلب أمام الرجلين، بينما حمل البدوي الطيور وتنكب الفرنسي سلاحه، ساروا مسافة على طريق عام، وفجأة صاح الفرنسي:

. أسود.. انظر هناك، هل ترى ما أراه؟

. نعم سيدي.. أرى رجلاً وامرأة في طريقهم إلى البيت.

. ألا تجد في الأمر شيئاً شاذاً؟

www.alkottob.com

. لا.. سيدي

. أيها البدوي، ماذا ترى بالضبط؟

. رجلاً يركب على حماره، وامرأة تحمل حزمة من الحطب اليابس تباريه.

. هذا الشذوذ بعينه. نادهما.

ركض أسود الحردان نحو الرجل والمرأة مرغماً، تكلم معهما قليلاً، ثم جاء الثلاثة إلى حيث يقف الفرنسي والبندقية في يده.

. انزل عن الحمار.

وجه الفرنسي حديثه إلى الرجل القروي، فلم يفهم السبب، ثم وجّه حديثه إلى المرأة التي تئن تحت حزمة الحطب الثقيلة.

. أنت اركبي مكانه، وهو سيحمل الحطب.

ولم يتحرك الرجل، والمرأة واقفة ببلاهة، ترقب ما يجري والخوف يتلبسها:

. انزل أيها الأحمق، انزل.

وظل الرجل مسمراً رغم التهديد، فأي موقف سوف ينتظره حين يعود إلى القرية؟ وماذا سيقول الناس عنه؟ وبدون مقدمات، دوّت الطلقة، وسقط الرجل عن الحمار، يتخبط بدمه، وتجمدت المرأة، وتابع الفرنسي طريقة، وظلَّ يتبعه أسود الحردان، والمسافة تمتد بينهما، وفجأة انطلق صوت المرأة في عويل مفجع وحزين ودافق كالسيل.

في تلك اللحظة حسم أسود الحردان موقفه، حمل الرجل الجريح على حماره، ومضى تتبعه المرأة إلى القرية، حيث احتشد الخلق حولهما، يستفهمون عما جرى، فصاح بهم:

. الرجل سيموت وأنتم تثرثرون.. تحرّكوا.

ولم يعد أسود الحردان إلى الثكنة، خاوى الليل والسطو، فبنى شهرة أسطورية في اللصوصية وعبور الحدود إلى الجانب التركي، لكنّه ظل مفرداً، لا يألف أحداً، ولا يسرق عابراً أو فقيراً.

***

كل هذه السيرة أرّخها الدكتور عبد الله الرفاعي في مقالاته وأقاصيصه.

فأمثال هذه الشخصية أثيرة لديه، يرى فيها إعادة لتاريخ الصعاليك، واستمراراً لإرثهم، قد يلتقي بهم في عيادته، أو في المضافة حين ينصرف . كعادته . إلى

www.alkottob.com

السمر واسترجاع ما مضى من سيرة البلد.

والمضافة بناء مستطيل من الفخار المشوي والطين.

بناه الجدّ الأول على عادة الرواد الأوائل الذين قدموا من الموصل وأورفة والعشارة، فيه يجتمع الأبناء والجوار والأضياف . حيث لا فنادق في البلد . فتعقد زيجات، وتحلّ خلافات مزمنة على أيدي عوارف حكماء، وتحاك مؤامرات، وتدار القهوة المرّة، والنراجيل، والطعام للغرباء.

في الصيف والربيع يجلس الناس في فناء المضافة، المحاط بسور حجري قليل الارتفاع، يتخذون منه مسنداً لظهورهم، وقد مدّت البسط تحتهم، وفي الوسط تقف شجرة الرمان الخضراء، وتحتها دنّ الماء الفخاري، تتدلى ثمارها كأثداء عذارى، أمّا في الشتاء والبرد فيدخل الرجال إلى البناء، يجلسون على البسط الصوفية واللبابيد، والنار تشتعل في الوجاق، وقد اصطفت دلال القهوة حسب أطوالها كحرس ملكي.

ما إن دخل الدكتور عبد الله المضافة حتى هبّ الجميع إلى الترحيب به، وقد عاد إلى نفسه شعور بالأمن، وامتلأ برائحة القهوة والدخان والبشر.

. مرحباً حكيم.

. مرحباً.

. مرحباً حكيم.

. مرحباً.

تنهمر التحيات من الحضور، والدكتور يردّ بآلية وسرعة، وقد ألف هذا التقليد منذ نعومة أظفاره، كما ألف عادات كثيرة، تشكل جزءاً من سلوكه، وحين دارت القهوة المرّة، والتقط الدكتور أنفاسه.

. يا حكيم.

قال رجل عجوز وناحل، وهو يحرك أصابعه بقلق، دافعاً حبات سبحته الصفراء.

. نعم.

. اختلفنا قبل حضورك، ونريد رأيك.

. هات.

. أيهما أنفع للزكمة، حليب الجحشة أم بول التيس؟!

www.alkottob.com

ضحك الدكتور عبد الله بمودة.. وقال:

. تريد العلم؟

. أي علم يا حكيم؟! نريد رأيك.

. رأيي لا هذا ينفع ولا ذاك.

. ماذا ينفع إذن؟!

. الدواء الجديد.. ويبقى العلم عند ربك.

. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.

ردّد الرجل باستسلام، وانصرف إلى لفّ سيكارة جديدة من علبته المعدنية، بينما وجه الدكتور عبد الله حديثه إلى أسود الحردان طامعاً في حكاية من حكاياته التي لا تنتهي.

. لم نرك منذ زمن يا عم أسود.

ـ عمك أسود لم يعد كما كان يا ابن أخي، أصبحت ضعيفاً، والعمر له حصّة، أمشي في الطريق ولا أحد يعرفني، بعد أن كانت نسوان البلد يهددن أولادهن بي لينام، الغزو راح والمعيشة اختلفت.

. وهل كنت تغزو وحيداً؟!

. أكيد.. فعمك أسود لا يثق بأحد إلا فرسه وبارودته.

. إلى هذا الحد؟

. وأكثر.. ثم أنا لا أحب أن يشاركني بشر في ثلاثة: امرأة وفرس وسرقة.

. وكيف كنت تذهب؟

ـ كنت أعبر الفرات وثيابي على رأسي، وعند الشاطئ أدفنها، ثم أنطلق عارياً، ربي كما خلقتني، حتى يتعذر الإمساك بي، ثم أعود بالذي فيه النصيب عبر مخاضات أعرفها في مجرى النهر.

. لو قلت لك: ما أصعب موقف مرّ بك في غزواتك؟

. أقول لك تريد حكاية جديدة كعادتك..

. تماماً.. فحكاياتك مختلفة.

. يا ابن أخي.. مرة خرجت، وقلت لن أعود إلا بشيء يُعدُّ مفخرة، فتوجهت إلى البادية، أرض تشيلني وأرض تحطني، حتى وصلت نزلاً من منازل البدو،

www.alkottob.com

ذكروا لي عندهم فرساً لا مثيل لها بين العربان، ذاع صيتها، وعشقها كل من سمع بها، وفعلاً حين رأيتها، سحرتني، فكمنت حتى ضفّ الليل، بعد أن استطلعت المكان جيداً، فتسللت عارياً، أجسّ الأرض بأصابعي، وأشم رائحة الريح والكلاب، وحين وصلت قرب الفرس، صهلت، فتسارع نبضي، ولبدت في الأرض، حتى دخلت رؤوس الحجارة في أضلعي، وبعد دوية، تحركت من جديد، فصهلت، شتمت، وهرّ الكلب، ومالك بطولة السيرة، وصلت إلى مربطها، أعالج حديدها، وأنا أرتعش شوقاً إلى اللحظة التي أعتلي ظهرها، لأنطلق كالسهم في الليل، فلا يلحقني أحد، وإذا بأيدٍ تطبق عليَّ، فعرفت أنني قد وقعت فلا فائدة من المقاومة، وعدوي هذه المرة من البدو، والبدوي أمكر مخلوقات الله وأقساها، كان صاحب البيت وأولاده الأربعة كالطوق من حولي، كتفوني، وغطوا عورتي ونصفي الأسفل ثم أوقدوا ناراً عظيمة، فاجتمع النزل بكامله، وقد بدأت النار تتوهج بجمرها الأحمر، تقدم صاحب البيت بملقط القهوة الأسود، تناول جمرة حمراء، ثم تقدم، حتى وقف أمامي، أومأ إلى أحد أولاده، فرفع يدي كاشفاً تحتها عن إبطي، وضع الجمرة، ثم أعادها، وهكذا فعل بالأخرى، ولا تسل عن الألم الذي أعماني وشل لساني ورأسي، والنار تأكل الشعر والجلد واللحم والعصب، لكني عمّك، كابرت بجنون، لا يمكن أن أعطي كسيرة وأنهار أمام أولئك البدو الأنجاس، وكان الدهن يسيل من تحت الإبطين حاراً لزجاً ثم يتجمع حول الخصر، كان شيئاً يشبه البكاء والعويل ينطلق من تحت إبطي، وليس من فمي، كل الرجال يبكون ولكن ليس شرطاً من العيون ويعولون ولكن ليس شرطاً من الأفواه، أشجع الرجال يبكون من قلوبهم أو تحت آباطهم مكابرين، أيامٌ عفا الله عنها، قال أسود الحردان ينهي حديثه، وتشعب الحديث بعد ذلك إلى شؤون أخرى لا يرى فيها الدكتور عبد الله جدوى أو فائدة له، وترتجف أغصان شجرة الرمان، وتدور القهوة المرّة على الحضور، وكأنها تعيد إليهم نشاطهم بعد همود، ويبدأ جوّ شعائري يدرك معناه الدكتور، فالليل وأعشاش العصافير والخطاف، والفخار الذي يمتلئ بروائح عصر مغرق في القدم، كل ذلك يترافق مع الأصابع وعلب الدخان وثرثرة جمر النراجيل.

ورويداً... رويداً يفقد ترابطه مع العالم فينهض قائماً.. ليرحل.

***

انفتحت البوابة الكبيرة عن قامة سعيد النهري الربعة.

وقد تورمت من الشحم والعافية، فغاصت رقبته في قبة من اللحم، وغرقت عيناه الماكرتان في وقبين ضيّقين، توصوصان بقلق، وقد فاحت من ثيابه النظيفة

www.alkottob.com

رائحة عطر ثقيل، يذكر بالزوايا والموالد، وكأنه يخفي بذلك زمناً من العفونة.

. مسيو ديران؟!

جاء صوته الخشن، وقد فاحت من فمه الرطب رائحة التبغ مختلطة برائحة العطر، وعلى رأسه المدوّرة، تتربع طاقية بيضاء من نسيج يدوي، اشتهرت بصناعته نسوة البلد، كتعبير عن حب ومهارات لا تبارى. ثم أردف:

. تفضل.. تفضّل، يعلم الله شرّفت المكان.

. شكراً حاج.

. البيت بيتك.

وأفسح الطريق إلى داخل "الليوان" المزيّن بشكل باذخ كالقصور، وقد ملأت سعة بيت ديران براحة يقدرها رجال المصارف، واصطفت الغرف الكبيرة على الجوانب، تاركة ساحة نظمتها يد عارفة وخبيرة، فالبركة في الوسط، وعرائش الورد، والبلاط المميّز، ولمسة الذوق هذه، ليست بعيدة عن امرأة عاشت عمرها في الحواضر الكبيرة، وعرفت أسرار البيوت العريقة في دمشق وحمص وحلب، وهذا وارد، فالحاج يوزع زوجاته وبيوته على جهات المدينة الأربع، ولا يعرف أسماء أولاده لكثرتهم إلا بالرجوع إلى أسماء أمهاتهم، اللواتي انتقاهن من حواضر القطر لأسباب يعرفها، ويقدرها وحده، وهو يبدلهن كلما أحس بالملالة، أو يخاويهنّ، ثم يتناساهن بعد فترة من الزمان، ولا يخرج على القاعدة الذهبيّة التي تعلمها من باوم الألماني: لكل بضاعة سعرها، وقد صنّف النساء من خلال تجربته، فللمطبخ والغناء بنت حلب، وللفراش والنقار بنت دير الزور، وللمآدب والاستقبال بنت الشام، وللحماية والوجاهة بنت البلد.

***

. مساء الخير يا جماعة.

. أهلاً مسيو ديران.

وشبّ الحضور واقفين احتراماً للقادم الجديد، ثم جلسوا، وجلس ديران إلى جانب أحد شيوخ البدو الشبان، وبدأ سيل من التحيات الحارّة، يتدفق من كل جهة، وهو يردّ بآلية ووقار تليق بمكانته.

وحين انتهى طقس التحيات، التفت إليه شملان البدوي الشاب، وقال بلباقة وفيما يشبه الهمس:

www.alkottob.com

. مساء الخير مسيو ديران.

. مساء الخير شيخ شملان.

هذه الطريقة الخاصة في السلام يدرك ديران قيمتها بحسه الداخلي، كما يحرص على تبادل الألقاب بلهجة فخمة، وصادقة وحميمة، تخلق عالماً مشتركاً، يدرك الاثنان سرّه، ومعناه، وهذا إرث لا يدركه سواهما.

. سيكارة.

ومدّ علبة الدخان الذهبيّة الأنيقة، فتناول ديران لفافة رغم أنه لا يدخن غير السيكار، لكنها "قواعد لعبة الضيافة" في البلد، وهو لا يخرج على الأصول، عادة تعلمها في البيت، وفي العمل، وفي المجالس الخاصة.

. وكيف حال العين؟!

. بخير..

واكتفى ديران بذلك، كي لا ينصرف عمّا يدور من حوار بين الجالسين، له قيمته في عمله الوظيفي والاجتماعي، وقد ارتدى قناعه المصرفي.

. مسيو ديران.. قهوة مرّة أم..؟

ودارت القهوة المرّة قمراً من السواد الصافي المترجرج في قعر الفنجان الفاخر، عيناً من الإثمد السائل، وحسوة من المرارة اللذيذة والدفء، وهزّ الفنجان دلالة الاكتفاء، وتعرَّف إلى معظم الحضور ممن يشكلون نخبة المتعاملين مع البنك، من تجار أغنام يتحكمون بحركة "البازار" ويعملون وسطاء لحيتان أكبر في حلب وحماة ودمشق، ومزارعي قطن، رجل في البنك، ورجل في خانات حلب المموّلة، وصاحب محطة محروقات دخل نادي "أغوات الزراعة" حديثاً، وإلى جانبه متعهد شركة "السوس" وهو رجل حذر وقليل الكلام، إضافة إلى نائب سابق في البرلمان كل مجده أنه صديق دائم لرؤساء المخافر المتعاقبين وقوّاد الفصيل.

جثث متورّمة، تغرق في الدخان وقرقرة النراجيل، وأحاديث الموسم القادم من القطن، وخطط الحكومة، والخوف من الفيضان والدودة.

. سوق الأغنام كاسدة هذه الأيام، والطلب قليل.

قال أحد التجار الكبار، فردّ آخر:

. عجيب .. هل ترك الناس أكل اللحوم؟!

. لا.. ولكنهم باتوا يفضلون لحم الجمال.. خذ بيروت مثلاً أصبح لحم الجمل

www.alkottob.com

أغلى من لحم الخروف الضان.

. والسبب؟!

. لا أعرف..

فتذكر في تلك اللحظة "غنزو السرميني" جاره الذي لا يبيع إلا لحم الجمل، ولا يذبح إلا الجمل، وقد وقف بطوله الفرع، وبطنه الكبيرة أمامه وكأنه جمل سنامه في صدره لا في ظهره، فقال:

. يبدو أنَّ ذلك لصالح السرميني.

فضحك الحضور.. وعقّب سعيد النهري:

. على الأقل السرميني جمل يأكل جملاً.

ودفقت نوبة جديدة من الضحك في المكان.

***

من بيت سعيد النهري انطلق ديران وصاحبه.

كان الليل سلطاناً، يتوجه الهدوء والبرودة السليلة، سلطاناً من الأُبَّهة والبريق، ينشر ريشه الأسود، فيكسو العراء، والبيوت الهاجعة، وقد أطلت الأضواء الخجولة، كبرتقال سماوي في غبار شفيف.

. بلد أصغر من طابع البريد.

قال رافي صباغ وهو ينفثّ دخان سيكارته، ويستمع إلى وقع خطواته وخطوات جاره يتعالى في الأزقَّة الخالية، وقد انفضّ السامر من دارة سعيد النهري كالعادة في مثل هذا الوقت، والوقت وردة من حرير أسود وضوء فضّي.

. مسيو رافي، أنت معي في أنَّ الليل ساحر وجذاب، وهذه النجوم البراقة في السماء الصافية مثل عيون الله، تفيض بالمحبة والأنوار.

. لقد تحولت إلى شاعر مسيو ديران.

. المكان هو الذي يخلق الشاعر، وإلا كيف تفسر وجود آلاف الشعراء الذين أنجبتهم البوادي والصحراء؟! لقد سمّوه قديماً شيطان الشعر، ولكنه في الحقيقة ليس أكثر من روح المكان وسطوته، من جبروت الجبل الأرعن، إلى ضآلة حبّة الرمل، ومن تفرّد شجرة النخل إلى عشوائية خلق الجمل.

. جادت القريحة اليوم.

. ليست قريحة تجود أو لا تجود، إنها قوانين وحقائق ثابتة، نعرفها عن طريق

www.alkottob.com

الاستقراء والبحث العلمي.

قال ديران.. فردّ رافي:

. ظننت ثقافتك فرنسية.

. إنني أحاول أن أتواصل مع المكان بعد أن فقدت مكاني الأصلي، والثقافة دائماً هي البوابة للدخول.

واستسلم الرجلان إلى الليل، وأنفاس الأرض، والأضواء البعيدة لسيارات تعبر الجسر، وتذكّر ديران أباه، كأس العرق المقدّس، ورائحة الثوم والبسطرمة، والشارب الأبيض والعيون التي لا تكفّ عن التقاط أصغر الجزئيات بمهارة وعشق، وصورة مارجرجس، وهو يطعن التنين برمحه، كل شيء أرمني، الرائحة والطعام والعيون الواسعة والوجوه، والأولاد الذين يعملون في أعمال تمتُّ إلى العائلة بصلة، فالأول صاحب فرن ممتاز، والثاني عنده كاراج لإصلاح السيارات، والثالث مصوّر فوتوغرافي مشهور، الوحيد الذي اتّجه إلى العمل الوظيفي كان هو، مع احتفاظه بسرّ شغفه بالآثار والأدب.. وجاءه صوت رافي:

. سيكارة مسيو ديران.

. شكراً.. أفضّل السيكار.

وغرز لفافة بين شفتيه.. ثم تابع:

ـ مسيو ديران ألا تستغرب معي وجود الشيخ شملان عند سعيد النهري اليوم؟!

. وما الغرابة في ذلك؟!

. الغرابة أنّ ذئباً من ذؤبان البدو مثل الشيخ شملان يتواجد في مجلس رجل بالنسبة له ليس أكثر من جيفة مثل النهري.

. ربّما جاء يطلب قرضاً عاجلاً.

. نصف خانات حلب تحت تصرفه.

. إذن لعبة قمار.

. بدون عبده الأسود "ذباح" ورشاشه لا يلعب.

. أصبح الأمر أحجية.

. الأمر واضح مسيو ديران.

. كيف؟!

www.alkottob.com

ـ ثلاثة يضعف أمامها شيوخ البدو: المال والقمار والنساء، فإذا استبعدنا المال والقمار، يبقى لدينا النساء، إذن فتش عن المرأة.

. أهذا الذي جاء به؟!

. أجل.. سعيد النهري يظلّ قوّاداً عريقاً، تسري في عروقه المهنة، وهو يعرف معظم فتيات الأسر الكبيرة، فلقد عمل عند معظمها قبل أن يثري خادماً يجلب الماء والحطب ويصبّ القهوة المرّة في المضافات، وهؤلاء البدو الشبان بحكم تردّدهم على المضافات والبيوت، قد تخلب ألبابهم قامة هيفاء، أو عينان خضراوان، فلا يتركون وسيلة للوصول إلى مرادهم، المال والهدايا والتهديد.

. وإذا رفض النهري؟!

ـ المال لا يكفي لتكون قوياً في هذا البلد، خاصة إذا كان لك تاريخ قذر كتاريخ النهري، هذا جانب، أمّا الجانب الآخر، فالرفض يعني نهايته، فديونه ومصالحه عند قوم الشيخ شملان تموت، وعلى مشروعه الزراعي السلام، وربما بقر "ذباح" بطنه...

. كل هذا والشيخ شملان نائب في البرلمان.

ـ بل الأهمّ والأذكى في كتلة العشائر، وقد تطاول أكثر من مرّة على أكرم الحوراني.

. وكل المشايخ على هذه الشاكلة؟!

ـ لا. بالتأكيد مسيو ديران، خذ مثلاً الشيخ سليمان، هذا الشاب الوطني المتحمّس، لقد حطّت طائرة فرنسية مروحية، واختطفته لينفى مع رجالات الحركة الوطنيّة، وقد عاد كثيرون أو عرف مكان الباقين ومصيرهم، أمّا سليمان فقد ضاع أثره بين رودس وقبرص وفرنسا، وإلى اليوم لا يعرف أهله عنه شيئاً رغم بحثهم الدائب ومناشدتهم للحكومات والصليب الأحمر.

. عالَم بمقدار ما هو حقيقي بمقدار ما هو خرافي.

. إنه الشرق.. تصوّر ماذا أشاع الفرنسيون حين اختطفوا الشيخ سليمان؟ قالوا إن فرنسا معجبة به، وتريد أن تستولد منه نسلاً، هكذا مثل أي حصان مع صاحبه حُجَتَه وسلالته، وصدّق الناس ذلك، فتحوّل سليمان من رجل إلى خرافة لا يريد أحد الإيمان بحقيقة وجودها.

. جميل.. أنت تملك عقلاً موهوباً في التحليل.

. شكراً مسيو ديران، لا تنسَ المطالعة رذيلة فاضلة.

www.alkottob.com

. أظنّ ذلك.

. والخوف يرافق اللذة.

. ربّما.

ـ هذا العالّم الذي تراه حولك مثل لعبة الروليت الروسي، مع كل تكّة زناد تموت من الخوف والثمن باهظ، والاختيار باهظ.

. الشرف أو الحياة.

. بالضبط.

وعند هذا الحدّ توقف الكلام، وتابع الشبحان سيرهما، تلفهما روح المكان، وهدوء اللحظة الآسرة، تماهت الوجوه والفواصل وقواطع البيوت والحدود، لاحت "القشلة" العجوز الخاوية بعد رحيل الفرنسيين، والأسوار التاريخيّة، وأمام باب البيت توقف رافي صباغ وقال:

. ما رأيك بقدح أخير يبّدد آثار الليلة. مسيو ديران؟

ـ الوقت متأخر، وأنا بحاجة إلى رأس صاحية لأهضم أحداث الليلة الباهرة هذه، وأتوازن.

. كما تحب.

. ليلة سعيدة.

. سعيدة.

وافترق الصديقان، ظل ديران وحيداً، كل ما حوله هادئ هدوء مقبرة مهجورة، فتابع طريقه، وهو يمتلئ بمشاعر وأصوات وأناشيد غامضة، تختلط فيها لغاته الثلاث: الأرمنية والفرنسية والعربية، ومطالعاته التي تقوده إلى عوالم مختلطة، وأحلامه بآلاف اللقالق والغرانيق والبلشونات اللاهية في سماء حرّة.

في البدايات لم يكن ديران يذهب إلى سهرة الاّ بناء على دعوة أو موعد مسبق، ولكنه مع الوقت وجد الذهاب بدون موعد، أو دعوة أكثر حميمية وترحاباً، وأقرب إلى القلوب. فالانتظار وترقب الساعة والارتباط مسائل واخزة، فالأهلون لا يشعرون بحضور الزمن إلاّ في مواسم القطن والقمح، ولحظات الجنس والولادة أو الموت.

مرّة قال له سعيد النهري:

. مسيو ديران، بصراحة أنت لا تشبه الموظفين ولا الأرمن.

www.alkottob.com

فابتسم بودّ يفرضه العمل.. وسأله:

. كيف؟!

ـ لا تشبه الموظفين لأنك تعطي للبنك كل ساعات الدوام، وخارج الدوام تتحول إلى ديران آخر، ولا تشبه الأرمن لأنك لا تعرف في الحديد أو صناعة الخبز.

وعند باب المنزل توقّف، ألقى ببقية السيكار، ومدّ يده إلى جيبه، فرنّت سلسلة المفاتيح، وكانت أضواء منزل الدكتور الجديد سفيان بنقسلي ماتزال مضاءة.

* * *

داخل المنزل شعر رافي صباغ بأنه يسترّد نفسه.

هذا المنزل الخاص به، والذي استقلّ به عن بيت العائلة الكبير في الطرف الآخر من البلد، لأسباب يراها وجيهة، فلم يعترض والده، بل وجدها فرصة لقضاء معظم أوقاته في حلب موطنه الأصلي، بحثاً عن التسلية والترويح، بعد أن اطمأنّ إلى قدرة ولده الوحيد على إدارة أملاكه، وكان يخاف عليه من رحلاته الموسمية إلى بيروت أو باريس أو اسطنبول أكثر مما يخاف عليه من البقاء معه.

. هنا عالمك الأثير.

قال.. ومسح المكان بعينيه، فوضى الصحون الفارغة، وأعقاب السكائر، وكؤوس الشراب، والستائر الغامقة، وبقايا رائحة تمتاز بها بيوت العزاب الأثرياء، وأوكار القمار والغرام، ولوحات فنية، وكتب فرنسية ومجلات، ثم رائحة أنثى خاصة، ميّزها من بين كل الروائح الهائمة، فهتف:

. لقد كانت هنا، هذا عطرها.

ثم ابتسم، وهو يلقي بجثته على الكرسي، فأطل وجهها عنيداً وسفّاحاً للرغبات كالكوسج، آه زهيرة، ورفع رأسه إلى الأعلى، مستسلماً إلى خمول عذب، ودعة ماتعة لا تقاوم رغم الشاهيات.

. بنت الحرام.

وضرب فخذه بنزق مرح، وقام إلى الخزانة، فتحها بحرص، وأخرج ألبوماً أنيقاً، قلّبه بسرعة، مستعرضاً الوجوه والأجساد العارية، كأنه في حمام تركي، طواه ثم ركنه في مكانه، وسكب كأساً من الويسكي... وبدأ يردّد:

www.alkottob.com

ـ وتظن نفسك ذئباً ونائباً ورجلاً يا شملان، كل هذه الأجساد التي يحلم بها عقلك البدائي، تركت بصماتي عليها، وأنا بلا سند أو ظهر أو عشيرة، إرضاء لنزوة مجنونة اسمها "التصوير الضوئي" لو عرف بها جبران الصباغ أبي لجّن جنونه، فاحلم بكلباتك في مضارب الشعر، أو براقصات الفرق الأجنبية في كباريهات حلب.. سأظل الأول.

هجس بلذة وشهوة، بينما استقرت نظراته على أحدث آلات التصوير، التي استقدمها معه من رحلاته إلى بيروت.

* * *

www.alkottob.com

حين أدار الشيخ شملان المفتاح.

هدر محرك السيارة، زلزلة صغيرة في هدوء الليل، راقب الضوء المنسفخ على الجدران والأرض، ووجهه المعافى يتُّر في المرآة، وقد نكس عقاله الأسود على كوفيته "المركزيت" البيضاء إلى الأمام، عضّ برطمه بذئبية ثم انطلق، مخلّفاً وراءه سحابة من الدخان والغبار والصوت الأصم في المكان الهادئ.

. يا مسبوع الأبو.

شتيمة بدوية مقذعة قذفها شملان، ربما إلى سعيد النهري، وربما إلى عدو غامض، فكل شيء من حوله يثير الأعصاب، ويوترها، خاصةً الأشجار المهومة، أشجار عبدها الأسلاف ذات يوم، فأغدقت عليهم عطاياها، وأفضالها.

أدار مفتاح المذياع، فطالعته موسيقا ناعمة من إحدى المحطات، فأنس بالصوت، داخله ليبرد وحشة الطريق في سهوب تنبسط كراحة الكف مؤئلاً للقطا والصعو وعانات الغزلان تنحدر من جبال طوروس، ترسم بأظلافها رُقُماً مسمارية على الثلج، وهي تهرب من شتاءات البرد والذؤبان المقرومة، ترك لأحلامه العنان، تَطَّاول واخزة زاهية، تيجاناً من القندريس تنحني له رقاب النوق، ثم ترتفع وهي تتلمظ به بلذة، وعاودته حكمة جده الذي عجن الدنيا ثم خبزها على تنور الاحتراب والتجربة:

. اسمع يا ولدي.. العقل ما هو برأس ابن آدم من أول يوم يبغم به في دنياه، فالوغدان مثل البَهَم، عقلها بكعب رجلها، طافخة طوال نهارها وراء الجرابيع وفروخ. الدرّاج والقطا، والجهَّال عقلها بوسطها، خيرها قليل وشرها أكثر، أمّا الشباب فعقلها بكتفها، تناطح مثل الكباش الفتية، تريد أن تزحزح الضهاري والجبال من مكانها، وهنا من صاب أصاب، ومن خاب لا يفلح أبداً، وبعد هاك العمر، ينتقل العقل إلى الرأس، ويبدأ الجمع والصرف، وتزهو الدنيا، يصير لها طعم ومعنى، أما في أرذل العمر . مثلما قال ربك . فينتقل إلى الخشم، فيكثر النزق والخرف والنسيان، وتضيق الدنيا الواسعة، وبعدها عطسة وينتهي كل شيء يا ولدي.. الدنيا مثل رغيف الصاج تا "يستوي، لازم أن ينقلب على الوجهين.

www.alkottob.com

هذا الجد الذي بخن الدنيا، وخبز خفاياها، سعدها ونحسها، وشم برقها الخلّب والصادق، وتجلّد أمام قرّها، وحرّها، حتى ثبت سطوة العائلة، ورّسخ شيختها رغم أنف الحاسدين، والشيخة كما يقول العوارف عن تقاليدها:

ـ أن لا يكون عطاؤك منّاً، ولا لينك ضعفاً، ولا قوتك غشوماً، وأن تكون المجلّي والمتغافل عن الصغائر.

هذا الجد كان كريماً في إطعام المعتفين حول منازله حتى السفاه، كريماً في سفك الدماء حتى الجنون، يغسل شعره ببول الإبل، ويحنّي أصابعه بدم خصومه، جبى الخوّة من العشارة في الشرق إلى حدود حلب في الغرب، قدّم رؤوس خصومه على مناسف العشاء.

وقال للناس آمراً:

. الرأس للرأس... كلوا.

وتجفل القلوب، تخبط كقطاة عزّها شرك، ويطلق الهول كلابه الشرسة، ثم يهدر هدير الفحل من الإبل:

. أين كنت أنت وأبوك يوم أهدر دمي ابن مطيران؟!

وابن مطيران من تلك السلالة من المشايخ متوسطي الذكاء، الذين ورثوا الشيخة عن أجداد أقوياء، لم تصنعهم الألقاب العثمانية أو الدسائس، إنما صنعتهم أعمال جليلة، ورث الشيخة بالنسب، وليس بالسيف، سعت إليه ولم يسعَ إليها، فاستنام مطمئناً، وقضى وقته بين القنص وطرد الخيل وملاحقة النساء، غير عابئ بضاري بن سلطان أو سواه، ومن يكون ضاري ليخشاه؟ رجل عادي من عربه شغوف بالغزو والمال والسلاح، تهابه العربان وهو واحد من رجاله.

وكان الحكماء من عقال القبيلة يهمسون:

. يا عمي.. خذ حذرك من ضاري.

. ضاري؟! ومن ضاري؟!

يردّ باستهانة.. فيؤكدون:

ـ ضاري ذيب يا عمي.. ما ترك حمولة في الديرة إلا وغزاها، وطرح الخوّة عليها، حتى هابته العربان، وصار عنده من الحلال والإبل ما يسدُّ عين الشمس، ويدير الرأس، ويشتري الغالي والرخيص: والناس مصالح.

. جلُّوا الهرج، ضاري ما هو إلا كلب بَرّ جوعان متى شبع همد، ولاذ بكاسر

www.alkottob.com

البيت يتمضرح.

. يا عمي الشيخ، ضاري ذيب، والذيب لو نام عين مفتوحة، وعي مغمضة، والعربان مع القوّة والمال.

وظلّ ابن مطيران سادراً، وحين تنبه كان الوقت قد فات، وضاري نخر جذوره كالسوس، فتداعى شجرة بطم في الحماد.

هذا الجدُّ ضاري بن سلطان، المصوّت "بالعشا" في سنوات الجوع، وراعي الحدبا، يده في الدم والأخرى في الندى، يرسل عبداً من عبيده يدعو العربان إلى العشاء، ويرسل آخر لاغتيال أعز أصدقائه إذا رأى منه بادرة، تدعو إلى الحذر، يشعل النار في أعالي الظهاري ليهتدي الطراق والعابرون والضيفان، ويشعلها في المقابل في بيوت الفلاحين وبيادرهم، إذا تأخروا في دفع فلس من الخوّة، مَنْ دخل بيته أمن الدرك والعشائر والجن، قسم الدنيا بينه وبين ربه، وحين سألوه:

. ماذا تركت للناس؟!

قال بأناة:

. الناس عيال الله، ومَنْ جاع ونسيه الله أطعمته.

وبعد سُنيَّات اختفى ضاري بن سلطان، غيّبه الحماد، قيل:

. خاوى الجن، فالأرض ما عاد يجد فيها ندّاً له.

وقيل في رواية أخرى:

. تعاهد مع الشيطان في حلف.

وقيل: . ربما أقام نسلاً وعشيرة في باطن الأرض.

خرافات لا تنتهي عن اختفائه الغريب، زادها الرعاة والنسوة جاذبية وألقاً، ومازال تداولها قائماً خاصة في الربيع حين يزهر البختري والزعتر البرّي.

* * *

العراء هادئ لا يريم.

والسيارة تندفع مثل السهم في الظلام، تقلق الأرانب والقنافذ وبنات آوى، والسماء من خلال الزجاج قبّة من الكريستال الصافي، تلمع نجومها ببهاء نفّاذ، وشملان بن جابر لا يسمع سوى هدير السيارة، وصوت تنفسه الرتيب، وحيد وحدة الذئب المفرد، تصحو روحه وتأتلق في هذا الفضاء البادي، وتخطر صورتها أمامه رعبوبة، لها كفل مهرة برّية، وعينا رئم ممروض.

www.alkottob.com

. قلت مَنْ؟

فحّ صوت سعيد النهري مثقلاً برائحة الخوف والكار العريق، وتثاقلت أنفاسه، وعاوده الصوت:

. سمعتني جيّداً يا بن النهري، وما من عادتي أن أكرر الكلام مرتين.

. تركت كل بنات الدنيا واخترت حوّاء بنت التعاويذي.

قال بصوت أقرب إلى البكاء، فكرر الشيخ كلامه:

. تظلّ قواداً يا أقرع ولو ملكت أموال الدنيا.

وبعد رحيل الشيخ شملان استلقى النهري كالطعين على ظهره، يرقب أعمدة السقف الخشبية المدهونة، وأضواء الثريّا البرّاقة، ودلال القهوة المرة، وتذكر نبوءة معلمه القديم باوم الألماني:

. ولد سعيد، هذه الرأس الكبيرة يصعب أن تفكر تفكيراً نظيفاً، ولكن ليس من السهل كسرها، ستشفى من "القرع" قريباً، أما من الداخل فلا شفاء لها، حافظ عليها، فلا بدّ أن تقودك إلى المال، أما الشرف والحكمة فلا نصيب لك فيهما، فلقد ولدت لتكون "بندوقاً" حقيقياً.

وكان حين يستمع إليه، يرى عالماً من النباتات الشوكية وأكداء السوس والعجاج الأصفر، والأراول الزاحفة، أراول بعيون خضر كالعشب، بينما أصابع باوم الخشنة ملطخة بالمراهم والأدوية، وهو يجري تجاربه الفريدة على رأسه، فلقد شغلت هذه الرأس القرعاء الألماني في وحدته.

ثم جرت الأيام كساقية تروي يباباً، لكي تربو وتزهر، لقاءات محمومة يرتبها مع قوّادين محترفين، لم تنبتّ صلته بهم، وظلت علاقة بعيدة معهم، أمثال سلمون العبد وحماد الزيدي العجوز، ثم حَبَل، وزيارات سرّية إلى الدكتور مهنا خارج أوقات الدوام، تتبعها مساومات، واتفاقات هامسة، ونزول إلى القبو حيث يمارس الدكتور المذكور الجانب المحرّم من مهنته، تساعده زوجته "ثريّا" في عمله، بوجهها المستطيل كوجه الفرس، حيث يخلو من كل معنى إنساني، مجرّد قناع من الشمع، وبعد العملية يضاف اسم جديد إلى دفتر مذكراتها الخاص، الذي روت فيه حوليّات البلد وأسراره، وقد فتحت . كما يقال . خطّاً مع كليات الطب، والآباء الراغبين في ذرية، فباعت الأجنة، والأحياء الذين يولدون من أمهات قرويات عذارى، ليست لهن دراية بنات المدن، يدفعن كل ما يمكن مقابل ستر العار، وقد تبالغ الأقدار فيدفعن حياتهن ثمناً لغلطة العمر، أو يرحلن تاركات ثمرة عارهن

www.alkottob.com

لثريا، نحيلات صفراوات يلفهن السواد والخوف.

. أدفع نصف عمري مقابل هذا الدفتر.

قال بصوت هامس، ثم استكان كالثور.

وكانت سيارة الشيخ شملان تعبر الحماد، وضوء سيكارته، يلمع في الظلمة نجمة مدورة حمراء، والتلال بمهابتها الراسخة، ترقب الوافد المعدني، بعيون سرّية لا يراها الناس بعيونهم العادّية.

. لتطلق كل شياطينك من قمقمها أيها التعاويذي.

قال وقد احتقن الدم في عينيه، والبرّية تفتح صدرها للحمام والقطا النافر، والسيارة الهادرة لا تلوي على شيء.

وفجأة من أعلى تلة، حيث تلتقي ذروة المرتفع بسرة السماء، رأى كما يرى النائم ناقة تنحدر، وعلى ظهرها راكب غامض، تنحدر بتمهل وهدوء، والأرض تنسحب تحتها كبساط ناعم، وفي مجال الضوء تقدّمت، تعرف طريقها، وخفف من سرعة السيارة، وحين قاربت الناقة توقف، ولم يعد يرى منها سوى صدرها، أراد أن يتكلم، لكنها مدت رأساً غريبة، فيه عينان نبعان من حنان ولوم وعتاب، كانت تريد أن تقول شيئاً ثم تحركت قدم الراكب الذي لا يراه، وقد بدت أظافر طويلة وحادّة، تلمع كالمعدن ولحظة مدّ رأسه من نافذة السيارة، طالعه في ضوء القمر وجه أليف إليه، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، لها برودة الثلج، وليس في محجريه سوى وقبين مظلمين كفّوهة غار.. أراد أن يصرخ:

. جدي.. ضاري.

لكنه غّص وكأن في فيه ماء، وجاءه الصوت كالفحيح:

. ماذا تريد من بنت التعاويذي؟!

سكت قليلاً.. ثم أردف:

. ابعد عنها يا شملان.

وتحوّل كل شيء إلى الأزرق، الناقة والراكب والليل والتلول، وحين استردّ وعيه، وجد نفسه، يغرق في عرق غزير، والسماء صافية، يرحل فيها القمر، فقرأ ما يحفظ من المعوّذات، ثم أطلق العنان لسيارته، وقد قرّر أن ينسى بنت التعاويذي إلى الأبد.

* * *

www.alkottob.com

تنتشر طيور الصعو والقبرات بين أثلام الفلاحة.

تلتقط حبوب الذهب الأصفر بمناقر تعرف مكامن البذار، بينما تندّس العظايا والزيزان المرحة في الظلال، هناك حيث البشر الممصوصون ينتشرون في العراء لا يفرقون بين لحم أرجلهم وطين الحقول، تهبّ على أرواحهم زوابع الحزن والعجاج فيتصاعد الغناء الحارّ من الصدور كدخان المواقد، ومع ذلك تراهم يتناسلون فيختلط نسلهم بجراء الكلاب وجداء الماعز وطليان الأغنام لا فرق في ذلك.

ويدبّون كما تدبّ الهوام، يصنعون من هذا الهباء النثير بيوتاً متباعدة سمّوها قرية ومنحوها لقب "كديران" وقد تكون كلَّ شيء إلاّ قرية، وجاء الاسم مناسباً فلا كدر ولا يباس مثلها، وقد تكون نسيها الله زمناً طويلاً فلم يؤاخذ أهلها لأنهم عجم ناطقون بما لا معنى له.

من هناك، قبل عقدين من الزمن الهشّ الأسود، الذي لازال يسكن العصب واللحم كبرد "المربعانية" أدار سعيد الأقرع ظهره لقرية "كديران" الباسلة، وقال يودّع الناس والبيوت الطين والكلاب وشجيرات السوس الأخضر والأرض الجافة كبطن عجوز في الثمانين والحيوانات الهزيلة:

. تفو.. يا أولاد الأراول النجسة.

ولم يجد أفضل من "الأراول" يشبههم بها فهم ليسوا أكثر من عظايا ذات جلود قاسية، وأفواه عضوضة، وطباع وحشية، وبخل زائد، بصق ثانية، فارتدّ البصاق على وجهه الأصفر الناحل، وما كان أحد في وداعه وقد هاله الصمت وحالة الشعور بالدونيّة والرخص، ثم اتجه إلى الشرق مخلّفاً وراءه عمراً من اليتم والمذلّة وليالي الوحشة التي تدخل العظم والعصب كالمخرز والركض اللاهث في الشوك وراء أعشاش القطا والدجاج الضال ليسكت جوعه المزمن، ثعلباً مصاباً بالقرع وسوء التغذية، وقد زرعت أكفّ الرعاة والفلاليح، وأسنان الضواري والكلاب نوعاً من الثوّل والألم الدائم في رقبته ومؤخرته.

وأحياناً يلجأ بعضهم على سبيل التسلية إلى إطلاق كلابهم خلفه عن قصد لكسر الرتابة اليومية، فيندفع كالمجنون في الأرض الجرداء يتبعه النباح واللهاث، وكلما اقترب منه الصوت ارتفع صراخه حتى يتحوّل إلى عواء غير إنساني، بينما هم يضحكون وقد أمسكوا بخصورهم وفحصوا بأقدامهم في الأرض إلى أن تدمع عيونهم، ولا ينقذه من ذلك إلاّ وصوله إلى النهر، وهناك يلقي بنفسه في الماء، وتتراجع الكلاب فيستسلم للبكاء والنهر، هذا الذي يشعر بالحماية فيه والانتماء إليه

www.alkottob.com

ويرى صدره العريض الهادر كقطيع من الثيران والجلال الإلهي الأخاذ، فيغطس فيه بتبتل وصوفية وكأنه يمارس شعائر غامضة ثم يملأ قبضة كفّة بالرمل والحصا، يرفعها عالياً ويتركها تنفرط لتعود إلى القاع مرة أخرى، فيتركه الأسى والدمع، ويسترد حس الطفولة، وتعروه فرحة يتمتع بها كحبات السمسم التي يسرقها من بعض الحقول، ويصيح ليردّ الصدى:

. سعيد.. يا سعيد...

وبعد صمت قصير يعاود من جديد:

. يا ثعلب الماء...

ويغمض عينيه وهو يرفع وجهه كدوّار الشمس باتجاه الضوء يشربه بكل حواسه وسريره المائي يهدهده، ويدفعه بيدين من ريش ومخمل بارد، محاذراً أن تأخذه التيارات الغادرة إلى الأعماق.

ثم يخرج من الماء، يعصر ثوبه الوحيد، وينشره على إحدى شجيرات العاقول، ويستلقي على رمل الشاطئ يرقب قطعان الغيم العابر، وزرقة السماء الوسيعة، ويتخيّل كم من الآباء والأمهات هناك، وكم من البيوت والأنهار وشجر الرمان والتين والجوز الذي يحضره الباعة الجوّالون من سفيرة وحلب وتادف على الجمال في المواسم، ليبادلوه بالصوف والسمن والشعير أو الحنطة، وهم رجال قساة كيف يدافعون عن أنفسهم ضد الكلاب واللصوص، ولطولما تمنّى لو كان له أب منهم ليدفع عنه الأذى، ويرفع رأسه عالياً أمام الآخرين، هذا الرأس الأقرع الذي يعيّره به الصغار، ويسخر منه الكبار حتى بات اسماً له، فالأقرع ذهب، والأقرع جاء، الأقرع سرق البيض، والأقرع يعدي فابعدوا

. ليدخل الأقرع رأسه في أمهاتكم جميعاً.

يقول بهمس وينفلت إلى ظل بيت مهجور، أو شجيرات من الطرفاء، ومع كرهه للكلاب، كان يجدها أحياناً مفيدة له، إذ يلطأ قريباً منها عندما تبدأ النسوة الشابات في تحضير الخبز، حيث الدخان والنار وعرق الصبايا وهو يقطر من وجوه احترقت بشبق لاهب، وكلما احترق رغيف أو ساء ألقت به إحداهن إلى الشريكين الدائمين، نصفه له، والنصف الآخر للكلب، وهو يجد في الجراء الصغيرة صداقة وقرباً وأكثر من أولاد الناس.

ومثل لقلق تائه لا يسأل عنه أحد، ومَنْ له؟ عائلته أبادتها جائحة الهواء الأصفر الأخيرة، فآوته عجوز وحيدة لتؤنس به صمت أيامها الآيلة إلى النفاذ،

www.alkottob.com

وعاملته بحنان امرأة فقدت وحيدها، فتحولت مشاعرها إليه فكان سعالها الليلي الصاخب الذي يوقظ الدجاجات وأعواد السوس الأخضر، وتيجان القندريس البري الإمبراطورية، وأصابعها المعروقة الناحلة، التي تدب كالعنكبوت بحثاً عن رائحة أنفاسه، كل ذلك يبعث فيه الإحساس العالي بالأهمية، فيسكره هذا الأمر، ويأتيه صوتها الخافت:

. سعيد.. يا سعيد.

ويلبد مثل فروة خروف مبلولة، لا يرد:

. ولد يا سعيد.

وتتفجر ينابيع اللذة في داخله، تسقي زرعه اليابس، ويعلو الصوت والأنفاس والغضب الموشى بخوف قديم يطل من خلال الظلام كحد الخنجر:

. أين أنت يا مقصوف الرقبة؟

. هنا.. هنا..

أين كنت يا ولد؟

. كنت في الخلاء.

. لماذا لا ترد؟

. لم أسمع.

هذه الألعاب الماكرة الصغيرة لثعلبها، تدركها العجوز بحسها الفطري، وتسر لها، فالمكر بضاعة ذهبية عند البدائيين والأرياف، فهي تعادل الحياة في بعض المواقف الحرجة.

. تعشَّيت يا ولد؟.

. لا.

. الخبز عندك.

حوارية تتكرر، ولا معنى لها في الحقيقة سوى أن تتأكد العجوز أنها لازالت حيّة، تتنفس، وأنها مازالت على ظهر الدنيا لا في باطن الأرض، وهذا الذي معها ليس "غريريّاً دخل حرمة قبرها المظلم، وزيادة في التأكيد تتلمس صدره وبطنه ومنابت عشبه الذي لم ينم بعد، ثم تترك يدها هناك تقتنص لحظات آثمة لا يؤاخذ عليها الله، وتناديه لتصرف ذهنه عن مداعبتها الماتعة، ويرنّ صوتها:

. ولد.. يا سعيد.

www.alkottob.com

. ها.

. بدأ الحصاد في الديرة؟

. بعض الناس رحلوا، وبعضهم على نيّة.

. وجماعة هزّاع الجلوي؟.

. بين يوم وليلة يرحلون.

. إيه..

وكتمت بقية الكلام، ثم اشتعلت عيناها العمشاوان في الظلمة لأول مرة، رأت سهوباً مزروعة بالناس والنباتات تسلم رقابها للحصاد، والذهب الناهض إلى فضاء ينتظر المجزرة ليتكوم، رأت سماوات من رفوف الحبارى ونعاج الماء والقبرات تكسر زرقة القبة بأصواتها، ووسط كل ذلك كان ثمّة صبية يخطب ودّها شبان القرية، تضع أشراكاً سرّية لجوقات من السحر والإغواء، وهي مشغولة برجل واحد اسمه هزّاع الجلوي، تصنع منه حنّة لأصابعها، وعطراً لشعرها، ووشماً أزرق للزُهرة تحت سرّتها، وفي الليل تعصر شمامتين من الدم والعصب والتوت على الوسادة في غفلة من العيون ثم تناديه بشوق وحنان، فينمو عشب أخضر على الوسادة ترعاه الغزلان والكباش المغرورة، وتتطاير آلاف الفراشات والورود من شعرها وثوبها الأصفر.

وفي موسم الحصاد، تسكب الأرض ذهبها، وتقفر القرية من ساكنيها، ويرتحل الناس إلى الأراضي المزروعة ولا يبقى سوى العجائز وبعض الكلاب الهرمة والحيوانات التي لا نفع منها نواطير لهذه البيوت الخاوية، ومن لا زرع لديه يخرج بأغنامه للرعي، أو العمل بأجر يومي.

وهناك تحت وقدة الشمس الكاوية، يبدأ عمل مرهق، إذ تنحني القامات على السنابل وتفعل المناجل فعلها، ويجد سعيد وأمثاله عملاً، كجلب الماء للحصادين، أو حراسة الأطفال الرضع في ظلال شجيرات السوس، ويولد الانفعال بالخصب دورة من التحدي والدم الجديد، وأمام هتك المناجل للزرع، يبدأ فيض من اللغة السوقية والأغاني البذيئة، تردّدها الحاصدات في دعوة مكشوفة لذكورة الرجال بصراحة جارحة، ساخرات بذكاء من تلك الفحولة المطفأة تحت التعب والشمس، في نهارات الموت البطيء، معلنات عن رغبة في شهوات، قلمَّا تتاح لهن في غير مواسم الحصاد، فتكابر الزنود، وتتسع مساحة الهتك، وتتعرى الأرض كمومس مقدسه من ثيابها الذهبية، جليلة، نابضة بالحرارة والصبا والحياء، تستعد لحرث

www.alkottob.com

جديد، حين تقلبها السكك الحديدية.

. هذه الحياة كفر وشقاء.

مقولة يردّدها جميع العاملين، وهم يعلمون علم اليقين، أن لا مفر من هذا الجحيم ولا خلاص إلا بالموت.

وفي الليل يتصاعد الدخان من المواقد وصوت الحصادين، ويأوي المتعبون إلى النوم ولكن فضله من الدم الشاب والعصب تدفع الفتيات للقاء عشاق قدامى أو جدد تفاهمن معهم بلغة العيون أو الإشارات الصريحة بين أكداس الزرع، وتحت ضوء القمر الصافي، تفرغ الأجساد ما بقي فيها من جيشان، وتستسلم لهدوء غامر بانتظار الغبش. ليبدأ العمل.

وكان أصحاب الزروع يجرون ذيولهم كالطواويس بين الحصادين يأمرون ويحضون ويحلمون بمال جديد، ونسوة جديدات، وخيول جديدة، فالمال وظيفته الأثيرة لديهم دفع الديّات والمهور وتأكيد الجاه والمكانة.

. ولد يا سعيد.

. ها.

. اسمعني يا ولدي، أيامي قربت، وموتي بين عيوني.

. إن شاء الله مائة عام.

ـ كل هذا الكلام لا ينفع، اسمع، ما عندي مال أعطيك، لكن عندي وصية حطّها مثل حلقة في أذنك، دفعت عمري حتى تعلمتها، دوّر على المال، لأنك بالمال تشتري الديرة، لحاهم وشواربهم ونساهم، الفقر لا يدوم، جرّب حظك في غير هذه الدنيا، الأرض وسيعة يا ولدي. فهمت؟

. فهمت.

. إذا أخذ الكريم أمانته ارحل، وإلا فالندامة مرّة.

تلك آخر كلمات العجوز التي علمته الكثير ثم ماتت، فشرد كلباً ضالاً في القرية بعد أن استولى أحدهم على الكوخ وطرده منه.

وفي الأمسيات الجائعة كان يتلصص من قباب الطين الزرية يرقب دخان المواقد ورائحة البشر والخبز والأضواء الشاحبة المتصاعدة من عيدان القصب وقحوف الفخار، وتعلم الكثير، رأى ما لم يره سابقاً، فضائح وخيانات ونسوة ينمن في غير فراش الزوجية، لاحق هزّاع الجلوي ينتقل من فراش إلى آخر كفحل

www.alkottob.com

الماعز، مزهواً بقرونه وأمواله، ولولا اعتدال الطقس ووفرة نبات الخباز وعجوز البرية والفطر لمات جوعاً أو تجلداً كأية سائمة داشرة لا نفع منها.

وكان العجاج آخر ما رآه يلف الديرة، يصل ما بين الأرض والسماء، تطل منه قرعة إبليس كشمس حمراء، تحتضر مثل ذئبة جريحة، وبارى الفرات، ومن يباري الفرات لا يموت جوعاً أو عطشاً، وهاله أن يرى الأرض تتسع وتكبر حتى تدوّخ الرأس ويصغر كل مجد ورجل حتى هزّاع الجلوي بوجهه الأحمر الطافح بالصحة والعافية وضحكته التي زرعها أطفالاً في فراش الآخرين، إنه مثاله الآن، ألم يكن جدّه الجلوي الأول رجلاً مغموراً، أجلته الحكومة والعشيرة عن ديرته عقوبة جناية ارتكبها، فجاء يقود ذلوله ويعرض بضاعته من التمر والتين الجاف والرمان على العربان، وحين طاب له المقام افتتح دكاناً صغيراً للبضائع، وكان بارعاً في تجارته، قلّب رأس ماله الصغير، ومع هذا ظلّ غريباً "الجلوي" عن الديرة، ولم يدخل إلى حياة القرية كأحد أبنائها إلاّ بعد أن أصهر إلى أقوى بيوتها، صحيح أن العروس كانت عاطلة من الجمال على أبواب الثلاثينات، لكن لا يهم ما دامت تقربه من الوجاهة.

راحت الرخم والشواهين تحوم وتساءل: هل تكذبه عيناه؟ أم أن ما يحدث الآن حقيقة؟ إنه لا يكاد يصدق رغم أنه يلمسه كما يلمس حجراً من الصوان وعاينه كما يعاين الشمس والتلال والعراء الوسيع حتى الشطط، فيضيق حتى التحدي، مع هذا فذلك الصباح غير حقيقي، سراب حلم، متعة عابرة في أحضان النهر، إغفاءة في وجر رطب، ونسمة الهواء بدأت تحرك رؤوس الشجيرات الرعوية والشوكيات وتدفع الصعو إلى الكبد الزرقاء الصافية، لتكسر صحن الهدوء الفخاري وقنوت التلال الخاشع، وتخرج هدوء الشعبان الظاهر برداً سرّياً يعرفه النمل والقنافذ، وبقية بنات آوى والأرانب، كل ذلك مجرد كذبة؟! خرافة، جزّة من الصوف ورائحة الأغنام في موسم القصاص؟!.

. ميثا.. يا ميثا.

لأول مرة ينادي عجوز باسمها.

. أريد أهلي يا ميثا.

ويأتيه الصوت من الداخل.. ومن أهلك يا سعيد؟! وتقف الشمس ترساً من القصدير الحامي والرصاص، ويخفق عماء سرابي شفيف على الموجودات، يظهر في ركود النبض الرتابي، ورائحة الخوف، وانحناء رؤوس الشوك والصرّ، وصفحة الماء اللامعة كأنها وجه الله، لقد امتلأ بالله والخوف، حاول النكوص لكن يداً قوية

www.alkottob.com

كانت تمسك برقبته وتقوده إلى الشرق، تجرجره إلى مصيره فلجأ إلى بيت شعر منفرد، أسلمه في اليوم التالي إلى الطريق الموحش، وظلّت أنفاس "ميثا" العجوز ترافقه حتى وصل إلى شركة لعرق السوس أقامها ألماني يدعى "باوم" على الفرات مسافة أميال من الرميلة.

. أصبحت الرجعة مستحيلة عليك يا سعيد.

قال لنفسه ثم استسلم لقدره، وهذا ما دفعه بعد سنوات من الرحلة إلى الانفجار في وجه أحد المشايخ ممن اعتادوا تناول العشاء عنده حين قال له واعظاً لحظة من لحظات التبسّط والصفاء.

. يا حاج سعيد.

. نعم.

. أنت رجل مبروك.

. بارك الله أصلك.

وعاد الرجل إلى الطعام ريثما يجمع أنفاسه، وينتقي ألفاظه بدقة ودماثة لا تؤذي مضيفه الذي يعرف عنه سرعة الغضب أمام من يعتبرهم دونه في المال.

. لقد زرت بيت الله، وتنسمت عطر الرّوضة..

. لا إله إلاّ الله.

. ومع هذا يا حاج لازلت تتعامل مع البنك بالربا، حرام عليك يا رجل، أقربكم إلى النار، أقربكم إلى الربا والفاحشة.

وتوقفت يد الحاج، اشتعلت عيناه بالنار والغضب، وارتج عليه الكلام، ثم انفجر صائحاً:

. اسمع يا هذا، النار التي جرّبتها وانكويت بها لا تعدلها نار، وجهنم أعرفها، لذا حين تدوس برجلك النجسة عتبة هذا البيت مرّة أخرى، أملأ بطنك الكبيرة، واخرس فمك، طاقة الشيطان هذا فلا وقت لدّي للنصائح.

. وكل ربك يا حاج.

. الله يأخذ أمثالك من الدنيا لترتاح الكائنات، ياه.

قال وكأنه يغرس أنيابه، كل أنيابه في جثة خصم أبدي.

***

www.alkottob.com

الكتاب الثالث
لحم العجل القرنفلي

www.alkottob.com

www.alkottob.com

قبل سنوات قليلة، وحلاوة الاستقلال

لازالت في الحلوق، شاع جنون غريب، خبل الناس، وخالط عقولهم، وثيابهم، ونام معهم في فراشهم ووسائدهم، زنخاً وعذب الغواية كرائحة إبط الأنثى، لم يكن كجنون الموتى حين هجروا المقابر، وخرجوا في الظهيرة يجرون أكفانهم وهي بلون التراب، وينفضون الرطوبة والديدان أمام الدكاكين والمخازن، والمقاهي، وواجهات البيوت، وقد ترددت أصوات ضحكات عظامهم الساخرة، وخطواتهم الصماء، وهم يعبرون عتبات الدور إلى الداخل يجرّون أحفادهم وأولادهم معم بقسوة وتصميم، والأحياء نصف أموات، والأموات نصف أحياء، وعجاج الأكفان يملأ المكان برائحة العفن والتفسخ، وألسنة الثكالى تلهج بالضراعات للآباء العائدين من الموت والجدات والأعمام.

. يُمَّه، اتركي لي ابني الوحيد.

. جدتي، البارحة أخذت أباه، دخيلك.

ولا ترد الهياكل العظمية بغير حركاتها الصماء، وغبارها الكاتم، حتى خرج المفتي، وصعد المئذنة، وصاح بالخلق:

ـ يا أمَّة محمد، قامت القيامة، وبطلت كل الشرائع والمعاملات، فاستعدوا للحساب والعقاب، ففي هذا اليوم لا ينفع مال ولا بنون.

ومن الغريب أن الصوت ملأ البلد، دخل البيوت بيتاً بيتاً، والآذان، والمخازن، والجحور، والأوكار، وانتظر الخلق أن ينفخ في الصور، وتدوي الصرخة العظمى فهجروا البيوت والدكاكين والمقاهي، زهدوا بالمال الحلال، ورأوا أرواحهم تحلّق فوق رؤوسهم كجلود الخراف، صاح بهم المؤذن العجوز:

. إلى أويس القرني، إلى المزار.

واندفعت الجموع، عراة ونصف عراة، زوبعة صغيرة تكنس الطرقات والأزقة، والحيوانات، انطلقت الأصوات وسط العجاج، وفاضت الشمس بنور أحمر كالدم،

www.alkottob.com

خالط التراب والجلود، وخمش الوجوه.

فاضت أثداء النساء بحليب باجر بلون الصديد، وضمرت أعضاء الرجال، تحولت إلى فتحات ضيقة للتبول، وتخنثت أصواتهم فصاح أحد الرجال:

. الله يساعدنا.

فلم يسمع قوله أحد، فاطمأن وتابع وسط الحشد، الأطفال والماعز والكلاب والنسوة، والخنازير التي قدمت من دغل الحوائج.

. يا رب ليش؟

ضاعت التمتمة، وذاب ما في الأرحام، وازداد العجاج ونزيف الشمس، وعندما دخلوا القبور عوت الكلاب، وبغم الماعز، ولاذت الأجساد بالأضرحة، تحلّقت حول المزار، استظل الأطفال بشجرة التوت، تلك التي يودع الرعاة والفلاليح المنتجعون عندها أحمالهم ومؤونتهم، وأدواتهم المنزلية، ويذهبون إلى شأنهم، وحين يعودون مهما طال غيابهم يجدون أماناتهم مثلما تركوها غير منقوصة، فلا يجرؤ كائن على لمسها خوفاً من غضب أويس القرني.

. يا ابن خالة رسول الله أغثنا، ياذا الطمرين، الأشعث الأغبر، أقسم على الله ليبرّك، فأنت البار المبروك.

صاح أحد الدراويش الفقراء، ثم اندفع في غناء كالبكاء ومعه التعاويذي:

يا ويس ما هذا الجفاء والصدُّ..

لأجلك أتينا بشوق جيت بضدو..

وضجّ الخلق والحواوين بالبكاء، انعقدت قبة كالبللور من الدموع وأجنحة الحمام الأبيض، وسمع الناس وجيب قلوبهم يدق، وصاح آرو الأرمني العجوز:

. ونحن يا إلهنا؟!

ثم اندفع يصلي بالأرمنية، فجاوبته أصوات أخرى، ومن تل البيعة القريب خرج نور، ملأ السماء والأرض، بان كالسراب أولاً، ثم اقترب فيضاً من الأجنحة والتراتيل، وشخصت الأبصار، كان "مار زكا" يخرج من ديرة المندثر، بصليبه النوراني، وثوبه الكهنوتي، ولحيته البيضاء، تقدم خفيفاً كالهواء، وركع الخلق، وحين رفعوا رؤوسهم كان ثوبه يرفرف أمام أنظارهم، وبوابة المزار تتفتح عن الأشعث الأغبر، ذي الطمرين أويس القرني، يزهو بنور الهدى وهلاله النوراني.

. تأخرنا على الناس قليلاً.

www.alkottob.com

قال، وسكن كل شيء، وعادت القبور تفتح صدورها للجثث الخارجة، وانقشع العجاج والدم، وتوقف النزيف الشمسي، وكرنفال السحر الأسود، وأصبحت سنة الوجع تأريخاً قديماً.

لا ولم يكن كجنون الجوع، حين حصد الخلق كمنجل أنكيدو، فتساقطوا في الخرائب والبراري والأسواق، وعلى ضفاف النهر، فملأت المقابر بالجثث، والقلوب بالحزن والقيح، وترك نصف المنازل خاوية، وبادت عائلات بأكملها، جنون ولا جنون جرمانوس أيام /4 تموز/ حين دك البيوت بالمدافع إرضاء لحكومة الاحتلال، ولا يقاربه جنون الشاي، هذا الشراب الأحمر الحار، الذي فتن الناس، وتغنى به الشعراء في قصائدهم، وحرص عليه المشايخ ووجوه الناس في المضافات والبيوت حتى لا يشناهم الضيوف وتقل أقدارهم في نظر الناس، لا ولا اكتشاف البندورة سنة /17/ حين حمل بذورها أحد ولاة الرميلة القادمين من يافا، فقد كلف أحد المستخدمين بحرائة قطعة الأرض الخالية الملحقة بسكنه، فكان العابرون يرونه منحنياً على الخطوط الترابية والمساكب المنتظمة، وقد تلوثت يداه وثيابه بالتراب والطين والعرق، فيتساءلون بغرابة وخشية:

. ماذا يفعل البيك؟!

وككل البيكوات السابقين كان الناس، كلما جاء والٍ جديد تلمسوا جيوبهم فالوالي أو القائم مقام تحديداً حسب التسمية الإدارية الدقيقة، حين ترسله الحكومة المركزية في استانبول تنساه بعد إرسال حصتها من ضريبة "الأعشار" وهي كما يبدو عمله المهم الوحيد مع الضبطية من الدرك، وتجبى ضريبة الأعشار من البدو والغنامة على الأغلب في الأشهر الأولى من السنة، ففي يوم غير محدد يلبس القائم مقام زيه الرسمي ونياشينه الكاذبة التي يكون اشتراها من أسواق حلب لمثل هذه المناسبة، وبمرافقة الدرك والمحاسبجي ينطلق موكبه وسط زوبعة من الغبار والصخب الرسمي إلى منازل العربان وبيوت الشعر، فتجمع الماشية والخلق ويتوقف صبية وسخون، ونسوة مجللات بالسواد يرقبون عملية الإحصاء، والمساومات الجانبية المعروفة، وزيادة في تأكيد الضغط والسلطة وهيبة الحكومة يفتش عدد من الدرك في الأنحاء المجاورة للبيوت، بحثاً عن ماشية قد تكون هُرِّبت بعيداً عن الأنظار، فلا يجوز خدعة الحكومة، أو السماح لمجموعة من الرعاة بالضحك من البيك، ونادراً ما تتذكر استانبول رواتب موظفيها من أمثال هذا القائمقام والضبطية، فتترك لهم أمر تدبير أمورهم، فلا ينجو من حيله حتى السفار الأجانب، فإذا أهدى أحدهم قطعة فخارية مما لا قيمة له، ويتكاثر في

www.alkottob.com

الخرائب، عليه أن يردها عليه "باطية" من النبيذ أو العرق.

لم يعد للناس من حديث إلا البيك الجديد.

فعصراً يخرجون طافات وعيونهم مشدودة إلى بقعة الأرض المفلوحة، يرقبونه وهو ينتقل فيها مع المستخدم "كنعان الدبوس" باستغراق كامل، ولانقطاع صلتهم به، صار المستخدم مركز استعلامات لهم:

. كنعان ماذا يريد البيك أن يزرع؟

. هذا شغل حكومة.

. وشغل الحكومة في الفلاحة والزراعة؟

. كل ما تعتبره الحكومة شغلها فهو شغلها، فهمنا؟!

. فهمنا، ولكن نريد أن نفهم...

. بسِّ.

وينسحب كالطاووس، فلأول مرّة يشعر الدبوس أنه مهم، ومهم جداً في نظر الناس، فهو وحده القريب من البيك، ويعرف ما لا يعرفه غيره، ولكن ماذا تعرف يا كنعان؟ حين يسأل نفسه هذا السؤال يلعن البيك، وأرض البيك الشيطانية هذه، ويتابع عمله.

وفي المضافة قال أحد النابهين للحضور، حين مرّ ذكر البيك:

ـ برأيي أن البيك ربما يريد زراعة بعض أشجار البرتقال، فبلده مشهور جداً بهذه الفاكهة الطيبة.

. يا رجل البرتقال يزرع على شكل شتول في حفر، ولا يزرع في خطوط.

. إذن إمّا البيك رجل موسوس، أو فلاح بطيخ، وربك أعلم.

عند هذا الحد، تبرع الحاج إسماعيل وهو جار القائمقام وأول من أولم له وليمة دسمة، وزار بيته من البلد، باستكشاف السرّ، ومعرفة نوع زراعة البيك، والبلد لا تحتمل "بيكاً" عاقلاً، فكيف إذا كان مجنوناً؟!

عند العصر توجه الحاج إسماعيل بكامل قيافته، ووجاهته العربية إلى حيث يعمل البيك، سلم بلباقة وهو ينحني قليلاً:

. السلام عليكم بيك.

. وعليكم السلام.

www.alkottob.com

ردّ عليه، ثم انصرف إلى عمله، فشعر بالضآلة، لكنه أمام هدفه الجليل كابر، وتمالك نفسه، ووجدا عذراً للبيك، وما أكثر البيكوات الذين رآهم، ورأى من تصرفاتهم الغريبة، فالبيك "أبو بسوس" كان مغرماً بالقطط، والبيك العربجي كان مغرماً بسواقة العربات الجرّ، والبيك أبو حجيات وكان مغرماً بالنوريات، وفجأة انتشله صوت البيك وهو يخرج صرّة قماشية ملونة، فتحها بحرص وتأنٍ شديدين وعيونه تنطلق بفرحة غامرة:

. حاج إسماعيل.

. نعم، نعم بيك.

. تعال، تعال.

وتقدم بشوق المستطلع، نظر داخل الصرّة القماشية، وهو يدعو ربه ألاّ يكون هناك ما يسوّد وجه البلد، فلو طلع في الصرّة بذور مما يعرفه الناس، فستكون الأمور صعبة التسوية، ولكانت عباءته الجوخ لا تساوي فلساً، ولكان مشواره قفزة في جب مظلم.

. الله، الله بيك ما هذا؟

. هذا الذي لم يعرفه ولا رآه أجدادنا، وستعرفه البلد لأول مرة في التاريخ، ولو ذاقوه قديماً لمّد في أعمارهم عشر سنوات أو أكثر.

. كل ذلك يطلع من هذه البذور الصفراء الناعمة؟

. انتظر وسترى فعل هذه البذور.

. وأيش تسمونها بيك؟

. اسمها "بانجان فرنجي" وأصلها من وراء البحار، من أميركا.

. بانجان فرنجي.

وهزّ رأسه بتعجب، بينما انصرف البيك إلى عمله، وفي المساء احتار كيف يشرح للناس، حتى الاسم نسيه لكنه ظل يذكر "فرنجي" وإلى اليوم لازالت التسمية الدارجة هي فرنجي للبندورة، أما البدو فالتسمية عندهم أكثر طرافة إذا يطلقون عليها "زرابة" ع اللحى "لأنها تلوث لحاهم حين يأكلونها.

وكل عصر جمعة، كان الحاج إسماعيل يتوجه إلى البيك يدخنان النرجيلة، ويرقبان البذور تشقق جلد التربة، وتخرج برؤوسها الغضة الطرية إلى الشمس والهواء، والعالم الذي تحلّ عليه ضيفة لأول مرة، وكنعان الدبوس يقلّب شفتيه أسفاً

www.alkottob.com

على هذا الوقت الضائع ويتمتم بازدراء:

ـ بيكوات الحكومة هؤلاء في رؤوسهم دوماً شغلة مجنونة ما يفهمها غير ربك، بيك وبقجة جي؟!

وكبرت الشتول الخضراء ذات الرائحة الغريبة، تم نقلها إلى الخطوط الترابية في صفوف منتظمة، والبيك يعتني بها كالعاشق، وحين بدأت زهورها الصفراء الصغيرة تتفتح ازداد استبشار الحاج إسماعيل بجلاء السرّ، ومعرفة هذه النبتة الشيطانية. وكان البيك يردد:

. يا حاج ستكون أول إنسان في المنطقة يذوقها.

والحاج مستغرب، إذا كانت طيبة إلى هذه الدرجة لمَ لم يأتِ على ذكرها القرآن؟! ولا عدّها من طيبات الجنة؟ ومع تكور الثمار الخضر المدورة، جاء الأمر بنقل البيك، فدفع الحاج إسماعيل له مبلغاً صغيراً ثمناً للشتول، وظل يعتني بها، ويسقيها كما أوصاه الرجل قبل رحيله، والثمار الخضر تتكاثر، تغطيها أجنحتها الطرية الدبقة وتميل معها حتى تلامس الأرض، واحتفالاً بالمناسبة، دعا الحاج مجموعة من وجوه البلد إلى وليمة عامرة في منزله، وقد استعد لهذا الحدث استعداداً كبيراً فذبح خروفين، وقطف كومة من ثمار الفرنجي، وكان يردّد وهو يريهم الثمار:

. البيك قال إنها طيبة مع اللحم مثل أكل السلاطين.

. إذن حصتنا من البذار يا حاج.

. محفوظة إن شاء الله.

وبدأ حديث طويل، وانتظار طويل، وفي المطبخ غسل كوم الثمار، ثم قطع، وملئت القدور، ودارت القهوة المرّة، ضاء "اللوكس" والوجوه، وعرضت على الحائط الجصي فوق رأس أحدهم عظية مما يطلق عليه الأهالي اسم "سليمانية" من فصيلة سام أبرص فرفع يده لسحق رأسها قائلاً.

. هذه العظايا المقرفة.

. لا يا فلان. سايق عليك النبي اتركها.

صاح بدوي عجوز من الزواية بلهفة، فدهش الجمع، فتابع:

ـ من حقكم أن تستغربوا، فقدرة الله عزّ وجل تأبى أحياناً إلا أن تعبر عن حكمتها أمام غرور ابن آدم لتردّه إلى الصواب، فترتبط حياته بظفر عظية من العظايا كهذه "السليمانية"، وهذا ما حدث معي: "فمن سنيّات كأنها البارحة، وكنت

www.alkottob.com

في فورة الشباب، الحلال كثير، والمال والدنيا ربيع ما مثله ربيع، والناس ذبّان في نظري، وعيني فارغة، والعين الفارغة ما يملاها غير التراب كأني ضاري بن سلطان في عزّة، أو راعي البويضة في مقامه، حين جاءني الراعي صائحاً وهو يشير بكوفيته وعقاله:

. يا عمي.

وخبط قلبي. خفت أن بعض الغزّاية من عربان شمّر قد تعرض للبوش والحلال، فالحروب بيننا وبينهم كانت حامية.

. يا عمي الحق.

قال وهو يرتمي من الإعياء، فصحت به:

. وايش صار؟!

. الذلول الفلانية طفشت، دوّرت عليها في كل مكان، ملح وذابت.

والذلول التي عناها، كانت أحب ناقة إلى نفسي، وقد مات فصيلها البكر، وبكر الذلول إذا مات نفرت من كلَّ فصلان الدنيا، ولا تقبل بديلاً عنه . جلت قدرته .

. لا يا مهدوم البيت قل غير ذلك.

. هذا الذي صار يا عمي.

وصفقت بيدي هضيماً.، والدنيا صارت مثل خرّة الإبرة، طلع الحلال كله من عيني وكأنني أفقد واحداً من أولادي.

. لا حول ولا قوة إلا بالله.

تردّدت على لساني، وركبت فرسي وإلى جانبي سيف كأنه لعاب المنية، قلت "يا مسهل الصعب، يا رب" ونحرت البرية، باريت البليخ، سألت الرعيان عنها، وبيوت العربان، وبعد بياض وليلة وجدتها، ربك هداني إليها في بقعة كراحة اليد، لا ترى منها غير القندريس، قندريس بتيجانه البنفسجية تالع الأعناق مثل اللقالق، بحر من البنفسج فوقه قبة السماء الزرقاء الصافية، نزلت عن فرسي وتقدمت من ذلولي، كانت قد هدأت وشبعت من خيرات الأرض، عقلتها ثم ربطت فرسي إلى جانبها، وانحدرت إلى البليخ لأردّ إلى نفسي قليلاً من البرودة وأطفيْ عطش قلبي المحروق.

اغتسلت، وانتعشت نفسي بعد تعب البحث عن ضالتي، وأغراني القندريس

www.alkottob.com

وقد تحرّك الجوع في أحشائي، قشرت واحدة من أشواكها وتناولت قرصها المستدير، فلذ على الجوع طعمه لي، فثنيت، ثم قشرّت ثالثاً.. وهكذا، ركبت حصاني وقدت ذلولي ومضيت، ومالكم بطول السيرة، وصلت أهلي، وأنا أشعر بوخز خفيف حول حنجرتي، لم أهتم به أول الأمر، قلت من التعب والعطش وسموم البرية، وفي الصباح ازداد الوخز حتى تحول إلى ورم مؤلم، يهدد بسدّ حنجرتي، شربت شيئاً من الحليب الحار بصعوبة، والنار لا تهدأ في حلقي، وفي المساء كنت أشهق، وآخذ النفس بصعوبة بالغة، فاسودت الدنيا في وجهي، فارقني الغرور

ورأيت حالي أضأل من الجعل، وأقل قيمة من بيضة الصعو، وقلت نادباً نفسي بحزن:

. جاء يومك يا حاشي وأنت مقطوع في البرية، بعيد في هذا الخلاء الموحش، يعجز طب الدنيا عن حالتك.

نخيت عربنا، وين ابن أمي الذي يريحني من بلوتي؟! وانطلقت الخيل إلى كل مكان، جاؤوا بالعوارف والأطباء، هزّوا رؤوسهم ونكسوا عائدين، والوجع تحوّل إلى خنجر في حلقي، وطول الليل أجض مثل الطعين، لم أترك عيناً في التلول والرجوم والنزل من أنس وحيوان وجن تغمض، وعصر اليوم كنت في آخر رمق، الدمل يملأ حلقي، وأنا أشحذ النفس كالمذبوح، حين دخل عليَّ ابن عمي غثوان ومعه التعاويذي الذي تعرفونه، انحنى على فمي المفتوح، تلّمس زردومي وغثوان يتابع حركاته ويهون عليّ:

. حاشي، اصبر يا ابن عمي، إن شاء الله جاءك الفرج.

وسأل التعاويذي بصوته العميق:

. ماذا أكلت؟!

ولم يخرج صوتي، فتولى غثوان الإجابة عني، فهزّ رأسه، وخرجت من فمه كلمة واحدة، شعرت بعدها بالراحة:

. خير.

ثم طلب أربعة رجال من وجوه العرب أشهدهم على أن ليس لي عنده حق لو أصابني مكروه من العلاج، فقبلت بهزة من رأسي أمام يأسي من حالتي، وشهد القوم على اتفاقنا الشيطاني هذا، طلب بعدها من غثوان أن يبحثوا له عن "سليمانية"

. سليمانية؟!

www.alkottob.com

ردّد غثوان، فنهره آمراً:

. قلت سليمانية.

وانطلق الرجال بحثاً عن سليمانية، وهم في عجب من أمر هذا الرجل النحيف، المسيطر كالرهبان، ثم جاؤوا بالذي طلبه، فقام من مكانه طلب إلى رجلين قويين تثبيتي إلى الأرض من يديّ، ثم أمرني:

. ارفع رأسك عالياً، وافتح فمك قدر ما تستطيع.

وأمالني الرجلان إلى الخلف بناء على طلبه، ورأيته طويلاً جليلاً، يطل عليّ كالغيم الأسود، ممسكاً بالسليمانية من ذيلها الطويل بين إبهامه وسبابته، وهي تحلول التملص ناظرة بعينين مذعوريتن، ودلاّها في فمي قليلاً، دفعها بدربة وهدوء، وهو يحركها ذات اليمين وذات الشمال، وعيون الناس تكاد تخرج من رؤوسهم خوفاً وجلالاً، وذيلها أصبح قطعة من أصابعه، حتى شعرت بأظافرها تجتاز سقف حلقي، فأغمضت عيني، ثم فتحتها، وقد اقتربت سبابته من أسناني، ووصلت روحي إلى خشمي، وعندها اشتعلت عيناه مثل قنديل إنكليزي، لمعتا ببروق خفيفة، وبدأت سبابته تتراجع مع إبهامه بالذيل، وتوقف تقدم السليمانية، بل رأيت بعيوني من الداخل أظافرها تنغرز في ورم حلقي، كابرت ألماً انطلق من عروق الرقبة إلى ماتحت الإبطين، وهو يتابع نترها إلى الخلف، وأظافرها تزداد تشبثاً وعمقاً، وقد تصبب العرق من جبينه النحيل، فزاده ألقاً ومهابة، قال آمراً الرجلين:

. ميلا بجذعه إلى الأمام قليلاً، قليلاً، إلى هنا وكفى.

ومثل برق، مثل اشتعال نار في كومة من الرمث اشتعل حلقي، وتفجر القيح والدم، اندفع من فمي إلى الخارج، وكان يقف جانباً وبيده السليمانية منتصراً، ولم يزد على كلمتين:

. راح شرّك.

وحين شفيت تعرفون ماذا فعلت؟ دفعت له الذلول التي كدت أدفع حياتي ثمناً للعثور عليها، وتبت عن أكل القندريس فأشواكه ألعن من أبر الشبوط، وجلت قدرته تعالى، فكأنه أراد أن يقول لي "يا ابن آدم تركت كل طيبات الدنيا من لحم وسمن وعسل ولحقت الإبل على طعامها".

عند هذا الحدّ قدمت صياني الطعام، ومدّ الحاج يده، والعيون شاخصة ترقب تعابيره، فما ذاق اللقمة حتى لسعته مرارة كالدفلى، فصاح:

www.alkottob.com

. أعوذ الله، هذا زقوم، رجعوا الصياني.

ونسي الناس الحادثة، كما نسي الحاج الأمر، وفي فجر أحد الأيام خرج إلى الوضوء يحمل إبريقه، وهو يلطا إلى جانب إحدى الشجيرات، لفت نظره احمرار غريب بين الأوراق الخضر، فمد يداً حذرة، ولمس الشيء الأحمر، فدغدغت أطراف أصابعه طراوة ونعومة لذيذة، تجرأ عندها وقبض عليهن فخرجت ثمرة حمراء مستديرة مثل خد معافى، صاح:

. أنا أخو أمي، هذا فرنجي.

وغسل الثمرة بالماء تذوقها، فأشرق وجهه للطعم اللذيذ، وهم أنّه تسرع، ولم ينتظر حتى تنضج، فردّد:

. سبحانك يا ربّ.

وحين قلب الشجيرة الخضراء، تدلت عشرات الثمار الحمر، كقلوب صغيرة، وابتدأ عهد جديد في حياة البلد، جذب فلاليح مهرة برعوا في زراعتها من بزاعة وسفيرة والباب.

* * *

جنون كان اسمه الجنون الأبيض.

جذب هجرات باسلة من حوران وتادف والباب وسفيرة، بشر ممصوصون، صفر الوجوه، شعث الشعور، لوّحتهم الشموس وأيام الجوع والخوف، جاؤوا في مؤخرات الشاحنات، وعربات الجرّ، يجرّون أولادهم وزوجاتهم، ويحلمون بحياة جديدة، وقد افترشوا الأرض في خرائب الجامع القديم، وتحت ظلال الأسوار الأثرية.

نّور وقرباط وجنكل وكاوليه وقرج تدفقوا، يحملون دفوفهم وغرابيلهم وأبرهم، ويدفعون ظعونهم وكلابهم وأساطيرهم الشيطانية، ويحتمي الضعاف منهم بشجرة التوت المقدسة "توثة أويس القرني" طلباً للأمن، وقد اجتمعوا من كافة أنحاء الدنيا، مما دفع إحدى العجائز إلى القول:

. أصبح البلدُ مشكّلاً ملوناً مثل "سطل" الشحاذة القرباطية في رمضان.

والشحاذات القرباطيات مشهورات في البلد باللجاجة والدبق، يخرجن في رمضان مجموعات إلى الحارات قبل المدفع بقليل بسطول من التنك، ويقتسمن البيوت، فتحتل كل واحدة باباً هو حصتها من القسمة، تلصق أمامه كالقرادة، ويبدأ صوتها يلعلع:

www.alkottob.com

. من مال الله يا خالة، زكاة صيامكم.

ولأن أخلاق الناس تضيق، وتخلصاً من هذا الإلحاح المؤذي، تسكب لها ربّة البيت مما طبخته، فتتحرك إلى الباب الثاني فالثالث كالشرارة، ولا تتوقف حتى يمتلئ سطلها الشهير بأشكال متنوعة من الطعام تبدأ بالرز والبرغل والمحشي والفاصوليا، والبطاطا، لتنتهي بالشوربة والتمر.

ومنذ أن أطلق أول مجنون صرخته المشهورة في شوارع البلد، وهو يحمل في عبّه حسابه من الموسم، مئات القطع الورقية من "أمهات المائة الخضر التي تذبح الديك" وهو الذي لم تدخل جيبه في حياته قطعة أكثر من "أم الخمسين"، واعتبرها . يومذاك . إحدى عجائب الدنيا السبع.

. أبيض يا قطن.

صرخ بدون وعي، وفتح صدره، فخرجت الأوراق الخضر الجديدة، زوبعة صغيرة من الخرافة والواقع، من المال والحاجة إلى المال، ومثل علي بابا انفتحت للناس أبواب الخانات والبنوك في حلب، وبدأت أعراس جديدة، وغجريات درجت العادة عند البطرين ومحدثي النعمة إشعال سكائرهنّ بأوراق من فئة المائة، وعند كل "شوباش" تجد الساحة فرشت بالمئات، وعقال الزمار، ترفرف فيه الأوراق المالية رايات ملونة لهزيمة العقل، بذخ يشبه الكذب، وسيارات أمريكية فاخرة أقسم أحد السائقين إن الآغا والآغا لقب أصبح يخصّ المزارعين فقط، ملأ "طبون" السيارة من حساب الموسم الماضي بالأوراق المالية.

أغوات يصعدون، وفلاليح لا يجدون اللظى، مسدسات وبيوت وقمار ونسوان وشموس وجوع وعلق اسمه الشحنة، وهو وكيل الآغا وعينه على سير العمل في المشروع، أغوات غنّامة، أغوات بدو، وأغوات وظفوا الأموال التي سرقوها من بغايا تزوجوهن طمعاً بالمال، أو من القشلة سنة "الفلتة" أمثال سعيد النهري وغيره.

جنون بدأ مع نمو أول شجرة قطن خضراء.

مع أجراسها المتبرعمة كنهود صبايا في طور البلوغ، امتدت شبكات السواقي ودارت محركات الماء على شواطي الفرات، نصبها صناع أرمن مهرة، فهدرت ودعق الماء مهياً أبيض كالشبّ، وانتهى عهد النصبة والغرّاف.

ومع توسّع دائرة الأغوات والوجهاء الجدد جاء البنك والخبز الأبيض والكاتو والخانجية من حلب شركاء وممولين، جاءت العشيقات مع الموظفين الكبار، ولم يعترض أحد، بل العكس عاملوهن كسيدات بدماثة ورقة أكثر، والمحظوظات

www.alkottob.com

منهن وجدن أزواجاً محترمين، وهذه السابقة لم يكن يجرؤ عليها من قبل إلاّ القائمقام.

جنون قاد إلى جنون ركب عقول القرويين، فمع المال كثرت الزيجات والأسلحة ومحاولة تأكيد الذات بفتح الدفاتر القديمة فكل من له ثأر أو عتبة أو تبل أو قالة قديمة سارع إلى الأخذ بها من خصمه فإن كان ميتاً لطول العهد فمن ولده أو ابن عمه أو قريبه، مجرباً كل الأسلحة التي يعرفها من كفّ اليد إلى الخنجر والدبوس والبلطة والمسدس، وأين؟ أمام السراي الحكومي وهذا ما دفع عجوزاً فقدت ولدها إلى القول:

. امتلأت الجيوب وخلت القلوب من الرحمة والأرحام.

***

خرج يزدشير الكاولي "بصندوق البوبة" المزين بالمرايا، والخرز الأزرق، والتمائم، بطوله الذي أحناه الثقل، فهو لا يتجاوز بضعة أشبار كونه لا يعدو العاشرة، والكاوليه جيل من القرباط عرف بالشراسة والغدر، والحرص على المرأة، فهي من ممتلكاتهم الأثيرة، يغالون في مهرها حتى الجنون، وفي عشقها حتى الموت، لذا كثر بينهم حوادث الخطف، حيث تدفع الخاطفة أغلب الأحيان حياتها ثمناً لفعلتها، ولو بعد زمن طويل، كما اشتهروا باللصوصية، والصناعات المنحطة من صبّ بعض المعادن الرخيصة وإصلاح الغرابيل والبيطرة، ومن مأثورات هذه الطائفة في تبرير سرقاتهم، التي يحرصون على ألاّ تتجاوز حاجتهم اليومية، تبرير لطيف وذكي يقول "أن اليهود، حين همّوا بصلب السيد المسيح، صنعوا لقدميه ويديه أربعة مسامير، وبينما هم يستعدون لصلبه، تقدم غجري من الكاوليه، وسرق أحد هذه المسامير، فحازوا الرضى الإلهي، والحق في سرقاتهم الصغيرة "وأنت لو دققت النظر في أية واحدة من لوحات الصلب لوجدت القدمين جمعتا في مسمار واحد مما يدل على الأساس الذكي لحكايتهم، ومن غرائبهم أنهم يدفنون موتاهم ليلاً، ويعتبرون سادة العالم في التحلل من كل عقيدة أو نحلة دينية، والمظهر الوحيد لتدينهم هو الاحتفال بعيد "القزان".

خرج يزدشير بعد أن ألقى نظرة على جسد والده المكوم في الزاوية، لولا النفس الذي يتردد في غطيطه، لظنه كيساً من العظام والجلد، من جحره الذي كان عبارة عن ملحق بطاحونة قديمة متطرفة، للطحانة ودوابهم كان ينام فيه الآتون من القرى البعيدة لطحن حبوبهم، حين يضطرهم الازدحام إبانّ الموسم، فلا خان للمبيت سوى الخان الملحق بشركة عرق السوس، وأكثر زبائنه من الرحالة

www.alkottob.com

الأجانب الوافدين وراء اللقى الأثرية والمخطوطات وأنساب البدو والعشائر، هذا الجحر نظفته العائلة، وسكنته، فلم يعترض أحد، سيّما وأن صاحب الملك عراقي الأصل من عانة، بنى طاحونته في العشرينات فازدهر عمله، وحين كثرت الطواحين، وقل الرزق، دعاه الشوق للعودة إلى منازله القديمة، ذكره بها موال سمعه من نورية وهو يستعد للنوم على سطح الطاحونة.

راقب الأرض الخلاء تمتد، وليس فيها غير العاقول وشجرة التوت الوحيدة، ومن بعيد لاحت البيوت الطين، والحيوانات الداشرة، والصبية المرحون، يمدّون رؤوساً حليقة مضحكة، من خلال الطوق والأبواب، يتفقدون كلابهم وحميرهم، ولم يفكر أن يذهب إلى أيّ مكان فالبنك محطته الأولى كالعادة، يقعي عند قدمي مسيو ديران ثم يتحرك إلى السراي، يجلس على الرصيف بانتظار زبون حريص على أناقته ونظافة حذائه.

ولذة يزدشير، وهو يلمس حذاء مسيو ديران لا تعدلها لذة، فجلده اللامع النظيف وشعر يده الأشقر، تغرق فيه ساعة مستديرة أنيقة، وأصابعه الطويلة، ترفع فنجان القهوة اليومي، أو سيكاره الذي لا يفارقه، إضافة إلى صوته العميق خارجاً من صدره، أمور يحفظها، ويذكرها، كما يذكر الطاولة الكبيرة والأوراق، وجهاز الهاتف اللامع، والليرة الكاملة يدفعها بصمت، ثم يسترد قدمه، ويرخي بنطاله، وينصرف إلى عمله، وقد يداعبه أحياناً:

. يزدشير لماذا لا تذهب إلى المدرسة؟. وماذا أفعل في المدرسة؟

. تتعلم القراءة والكتابة.

. البوية تكفيني.

وتستيقظ فيه تلك الرغبة الدفينة، فحين ينزل إلى النهر مع أخدانه، تسحره تلك المساحات من الطين، الذي انحسر عنه ماء النهر، فيمسك بقصبة أو عود، ويبدأ في رسم خطوط بدائية تعطيه متعة، وترضي رغبته، وقبل عودته يتمرغ فوقها، ليتحول إلى تمثال من الطين، يسلم بعدها جسده للماء..

خارج مبنى البنك الذي كان صالة سابقة للرقص والشراب أيام الاحتلال الفرنسي تنفس يزدشير بعمق تحت ضوء الشمس، ثم تابع باتجاه السراي الحكومي بقامته الضئيلة، وقد سبقه إلى الرصيف "حمو الأعور" بصندوقه البائس، وحركاته الخرقاء.

ترك الساحة الخالية إلاّ من بعض العمال الميامين، ينتظرون عابراً

www.alkottob.com

يحتاجهم في بعض الأعمال البسيطة، ومن نوافذ المبنى تطل رؤوس الموظفين الحليقة، يرقبون المارة، وحركة السوق البطيئة، ويتوقعون حدثاً غير عادي يكسر رتابة يومهم، وقد بدا مخزن الحاج سعيد النهري مميزاً بسعته غير المعتادة، وبضائعه المكدسة، وزبائنه من البدو والقرويين، ولا يدري لماذا تذكر أمه، بوجهها الأسمر النحيل، وعينيها الواسعتين، وحزنها الأبدي.

دفع يزدشير ظهره إلى سور مقهى السراي، وقد بدأ يغصّ بالزبائن، مزارعين، تجار أغنام، عاطلين عن العمل، سماسرة، وقد انتهى من آخر حذاء أرسله صاحبه مع نادل المقهى، ومن بعيد لاح له يدفع خطوه باتجاه المقهى، بعباءته الجوخ الثمينة، وكوفيته البيضاء وقد تربع فوقها عقال من المرعز الأسود، رجل مبجل غافل، راقبه يزدشير يقترب، ركّز بصره عليه، وفجأة خرج آخر من أحد الدكاكين، خفيفاً وسريعاً، تقدم نحوه وهو يخرج من تحت إبطه دبوساً من الجير والحديد، رفعه عالياً ثم أهوى به على رأس الرجل الذي شلته المفاجأة، فلم يدفع عن نفسه، وكرر العملية، فخرّ الرجل ذو العباءة الجوخ على الأرض، يسبح في دمه وقد تناثر عقاله وكوفيته التي صبغها الدم، وفرّ المعتدي وسط وجوم الناس وذهولهم.

وكان أول من استرد وعيه الحارس المناوب أمام السراي، فمدّ يده بآلية إلى جنبه يبحث عن المسدس، ثم اندفع راكضاً، ببزته الرسمية، وبوطه الثقيل، لكن الحارات الضيقة ابتلعت الرجل سريعاً، وغاب في أحشائها، فخرج الناس من المخازن الكبيرة، والدكاكين والمقهى، يسبّون، ويلعنون هذه الحال التي باتت لا تطاق، فكل يوم يتكوّم رجل أو أكثر أمام سراي الحكومة، وأنظار العسكر. وهذا ما دفع أحد المحتشدين إلى القول:

. ماذا جرى للناس؟! إذا شبع ابن كلب منهم عضّ جاره أو قريبه، وربما ابن أمه.

فرد آخر:

. امتلأت جيوبهم بأموال القطن، فماذا يفعلون؟ إما أن يتزوجوا أن يبتلّوا عباد الله، كل درهم مال يحتاج إلى درهم عقل.

. الفقر حكمة.

ردّ ثالث.. ثم تابع أقواله بعد أن رأى بداية تحرك السلطات الرسمية، لتطويق الحادث وقد امتلأت نفسه بالمرارة:

www.alkottob.com

. الرجل يموت، ثم تشرّف الحكومة، سلامات يا حكومة.

وشعر يزدشير بمعدته تقلب، فقام إلى مراحيض المقهى، أفرغ كل ما في جوفه دفعة واحدة، وقد تحوّل وجهه إلى لون العصفر، بينما حملوا الرجل الجريح إلى عيادة الدكتور عبد الله الرفاعي القريبة.

***

من لوازم المهابة في مخزن الحاج سعيد النهري.

وجود وابور الكاز "بريموس" أبو طعجة، بنحاسه الأصفر اللامع، ورأسه المدوّرة، وأرجله الحديدية، فعندما يكتمل عقد زبائنه من المتعاملين البدو والفلاليح، يمد يده تحت الحاجز الخشبي وينادي أحد صبيانه:

. عواد خذ الإبريق واملأه بالماء من المقهى.

ويدرج عواد كالحجل بقامته الضئيلة نحو المقهى، وتخمد جمرة الزهو في الوجوه السمر وينتشي الحاج بلذة التفوق، ينعتق من مشاعر قديمة هرّأت قلبه، وكظّت نفسه. ويلتفت إلى الجماعة وهو يخرج الوابور قائلاً:

. تعرفون يا جماعة، بدون كأس الشاي الملعونة، يظل رأس ابن آدم منا يدور مثل الغراف.

. والله يا حاج الرأس بلا كيف يستأهل القطع.

يردّ أحد الحضور من البدو، وهو يمسّد عثنونه، ويمنّي نفسه بكأس الشاي مع لفافة تبغ وسرحة ينسي فيها سنوات المحل والجراد والميرة وموت الحلال والناس وجفوة الدنيا.

. كلامك ذهب يا حاشي.

. سلمك الله يا حاج.

ويدخل الصبي بالإبريق، هذا الإله الوثني الساحر الصغير، والماء يقطر منه والعيون ترقبه، فيشير الحاج إلى الوابور طالباً منه أن يشعله، ويسرع في تجهيز الشاي، ويزيد من حلاوته:

. أسرع يا عواد، طول الطريق لابدّ قطّب ريق أعمامك.

. تعيش يا حاج.

وتبدأ طقوس الشاي وكيمياء الماء والعشب الأسود والسكر، يشتعل رأس الوابور تاجاً من زهرة النار الخالية من الدخان، ويستوي الإبريق على عرشه

www.alkottob.com

الذهبي، وتتحول الوجوه إلى مساحات من الشمع، والترقب السابل:

. أتعرف يا حاشي؟ الحال ما عاد يحتمل.

. خير يا حاج.

. كل يوم والثاني يتكوّم قدّام السراي جريح أو قتيل على يد أولاد أحياناً، البرية الواسعة كلها، تركوها وما عاد يرضيهم أخذ حقوقهم إلا بيدهم وأين؟! هنا أمام خشم الحكومة كأن الدنيا خالية من الحكومة، وإذا كانت اليوم ساكتة، تكون قد جهزت الخازوق، سقى الله أيام الزعيم يوم كان الحكم يقصّ البسمار.

. تريد الصحيح؟! الحق معك يا حاج.

. دنيا بنت حرام.

ـ صحيح، دنيا مايلة زهت لبعض الكلاب فامتلأت بطونهم وجيوبهم من أموال القطن، فطاشت عقولهم، منهم من يريد أن يشيخ على الناس، ومنهم من يريد أن تخدمه الناس مثلما كان يخدم أبوه وجده، حتى ما عادوا يفرقون بين الشيخ والتابع، بين بنت الخلق والناس وبنت المنزول العمومي، أو باش عميت عيونهم وقلوبهم فصار الشين مثل الزين وهذا البهات والباطل.

. لكن أرواح وأعراض العباد ليست لعبة.

. ربك بالمرصاد آفة الجراد للزرع، والمحل للمواشي، والجوع والمرض والغرور لابن آدم، غداً تنظر بعينك، يخلق الله آفة جديدة مالها دواء، من المنادين بالإصلاح وتوزيع الأراضي على الفلاليح، فيرجع كل واوي إلى جحره، وما يطلع إلى العالي إلاّ العالي، تذكر سنة الجوع؟! لا أظن في ذاكرتك منها شيء، لكني أذكرها أكثر منك لأني كنت شاباً، أكلنا كل ما عندنا حتى الكلاب والفيران والأحذية . الله يعز . وكان ابن آدم منا يبيع البنت من عياله بطاسة حنطة أو طحين، سنة سوداء، وضنكة، لكنك تذكر سنة الجراد من سنيّات، تذكرها زين، جاء الجراد من الشرق والجنوب والشمال والغرب، غطى السماء، ونبع من شقوق الأرض، حاربته الحكومة والناس والطيارات، وكان يزيد ولا ينقص، أكل الأخضر واليابس، وسطا حتى على عروق السوس والنجيل، جراد، سبحان الله، وضاقت الدنيا، تخبّلت عقول الناس، فطس الحلال والأغنام جافت منها البرية، وشبعت منها الذؤبان، وبعيني هذه كنت أرى الذيب بين القطيع، لا تجفل منه الأغنام، ولا يطرده الراعي، حتى الحواوين زهدت وصار الموت مثل الحياة عندها، وفي البازار كان ابن آدم منا يدلّل على النعجة بليرتين، بليرة، وآخر النهار يبيعها "بباكيت

www.alkottob.com

دخان حموي" ويرجع إلى أهله وإذا قابل قاتل أبيه، صدَّ عنه وكأنه لا يراه، الشرّ يطرد الشرّ، والخير يجلب الشرّ، طبيعة ابن آدم، ما بيدنا حيلة.

. حكي جواهر يا حاشي.

. سلمك الله يا حاج.

وتدور كؤوس الشاي، وتخرج من الأعباب والجيوب علب الدخان المعدنية، تسمع لها طقّات مميزة عند فتحها، وتبدأ الأصابع الخشنة عملها، إنها لحظة الكيف، لحظة مقدّسة عند الجميع.

. عندك أخبار عن أسعار الصوف والسمن يا حاج؟

كسر حاجز الصمت أحد الغنامة، متسائلاً، فردّ الحاج:

ـ ابن الحرام ما ترك لابن الحلال شيئاً، السوق اليوم للقطن ودعم الحكومة كله للمزارعين، أما السمن فقلّ الطلب عليه والسبب السمن النباتي، رخيص وخفيف على المعدة، وموجود في كل وقت.

ـ كل هذا من علامات القيامة، الدنيا آخر زمن وإلاّ كيف نفهم هذه "الخربطة"؟ الحيوانات الحصان والجمل والحمار أكلتها السيارات، والغراف أكله الموتور الذي يعمل على المازوت، وينهب هو وأمثاله ربع نهر الفرات في اليوم، والصوف أكله القطن، والسمن العربي أكله السمن النباتي، والغنّام أكله المزارع، والشريف أكله الردي، والجبل أكله الديناميت، والعشاير أكلتها الأحزاب والأصل الكريم أكله المال، والراعي أكله الفلاح، تصدّقون بالله يا جماعة الخير، الراعي صار عندنا مدللاً، أكثر من وِلْدنا، وكلما زعل لملم أغراضه وقال: "بخاطركم، أنا رايح أفلح قطناً". لولا الحاجة الملعونة إليه لوضعت العشرة في ظهره وقتل "جير وجهنم."

. الدنيا تتطور يا فلان، هذا كل ما في الأمر، وإلاّ من كان يصدق أن يأتي يوم ترفع فيه هذه السماعة وأنت جالس هنا لتحكي مع الشام وحلب مثلما تحكي معنا، أو من كان منا يصدّق أن يأتي يوم يهجر الناس فيه ثياب أبيهم وجدهم، ويلبسون هذا الذي اسمه "البنطرون" والقميص وفوقها يمشون برؤوس حاسرة مثل خواجات الأجانب، والدور على النسوان، أما الأولاد لولا العيب لقالوا "أهلنا أميركان" فما عاد يرضيهم أن نكون نحن أهلهم.

ـ هذا خراب يا حاج، خراب وبسّ، وإلاّ عمرك رأيت حماراً أصبح حصاناً، الحمار حمار، والحصان حصان والقادم أعظم.

www.alkottob.com

. الدنيا مثل دولاب الغراف يا طويل العمر، تطلع مليانة وتنزل فارغة، ونحن مثل الماء، نطلع من ظلام البير إلى ضوء الشمس نركض، ونركض، ونركض وراء السراب ولا نحس إلاّ والقاع شربتنا.

تدخل حاشي منهياً الحوار، فاستكان الجميع.

رائحة الشاي المختمر، ودخان التبغ، وركود السوق، وهؤلاء العجائز الثاقبون من البدو والغنامة، دمثون، لسنون، يملكون رؤوساً أنضجتها شموس البوادي، ورمال الصحراء والمراعي، ونفوساً عجمتها الأيام والغزوات، وراضتها مطاردة اللصوص والذؤبان وصيد الطرائد، يكمنون أياماً بصبر يقرب صبر الجمل لصيد طير من الحبارى أو عنز من الغزلان، ويشقون عمراً، شقاء مثل الكفر أو دونه لتكبر قطعان المواشي تكثر الجمال، ثم فجأة يأتي المحل أو الجراد أو الثلج أو الغزاة في الليل، فيفقدون كل شيء دفعة واحدة، لكنهم لا يفقدون الأمل، فيعاودن من جديد، وعيونهم مرفوعة إلى السماء وكأنهم يقولون:

. ليش يا رب؟!

ثم يتراجعون بقلوب كسيرة، ويستغفرون:

. يا أبا الغيم الأزرق، إرادتك ولا رادَّ لإرادتك فلا تؤاخذنا.

ومع أول هبة ريح، أو زخة مطر، أو إرزامة رعد ينذرون للأولياء الصالحين من أويس القرني إلى الصبي الأبيض والشيخ عيسى.

www.alkottob.com

السيد صندويش.

هكذا كان يطلق الناس على أحمد الرفاعي والده، فهو يخرج منذ الصباح الباكر، يدفع باكورته أمامه، ويطلق نحنحاته في جو البيت، وهو لانشغاله في العمل، لا يجد الوقت اللازم لتناول الطعام في بيته ، فكان يلجأ إلى أحد المطاعم التي تقدم وجبات سريعة، وقد شاعت هذه الأمكنة على أيدي بعض القادمين من حلب والمعرّة، وأغلب الأحايين تراه عائداً إلى أعماله أو أحد مشاريعه وصندويشته الشهيرة بيده.

ومع هذا كان أحمد الرفاعي يخترع وقتاً يتزوج فيه، حتى ضرب المثل بكثرة زيجاته، وقتاً ينجب فيه كل هذا الجيش من الأولاد، وهو في صفقاته يقظ وحذر، يعاين ويدقق ويساوم ببراعة وعلاقاته تتحول إلى ليرات ذهبية لها لمعان وبريق يهتز لهما ويهشّ.

وأحمد الرفاعي عاصر كل التحولات الاقتصادية وشارك فيها فهو أهم متعهدي السفن يوم كان السفن وسيلة العبور الوحيدة بين ضفتي الفرات، وبعد بناء الجسر لم يتأثر كثيراً، فسرعان ما جاء بأول محرك نصبه على النهر، وأقام مشروعه الأول لزراعة القطن، ولم يكتفِ بذلك بل وسّع أعماله فبنى طاحونة حديثة، وقد لعبت هذه الطاحونة دوراً خطيراً في حياة الدكتور عبد الله، فهنالك عرف الناس، وأشكال الحياة بألوانها الحارّة، فمن كل القرى القريبة والبعيدة كان الطحانة يقدمون، يدفعون حميرهم المحملة بأكياس القمح، رجال وشبان، فلاليح وبدو وغنّامة وأحياناً نسوة فتيات، وأبو جورج الميكانيكي والوزان والمشرف العام على المطحنة بثيابه الزرقاء وشعره المغطى بالدقيق، يقف عملاقاً أمام فوهتها المعدنية، وهو على الدوام يصرخ، وينادي بصوت يضيع في هدير الآلة، وأبو جورج العازب إضافة إلى جنونه بالعرق وسماع الموسيقا، يهوى النساء، ويعرف الطريق إلى إقناعهن بسهولة لزيارة غرفته ولا يكره في حياته شيئاً قدر كرهه للغجر، هؤلاء الذين يقدمون في المواسم ويخيمون قريباً من الطاحونة، ثم يطلقون

www.alkottob.com

كلابهم وصغارهم، وصياحم الذي لا ينتهي.

. يا عبد الله.

يصيح أبو جورج من أعلى الطاحونة هو يلامس السقف برأسه، ثم يرمي الكيس الفارغ ويتابع:

. خذ منه الأجرة وسجلها.

ووسط زحام الناس وحيواناتهم في الخارج والصخب يضيع عبد الله الصغير، هذه الآلة وهذا الطقس الخرافي، برائحته النفاذة وحضوره يدخل إلى البيت يغتسل ثم يأتيه صوت الجد:

. يا عبد الله.

ويقوم من مكانه فهو يعرف أن أوان الصلاة قد حان، ويتوجه من هناك إلى المسجد القريب وسط رائحة الليل وصفاء خاص يتقد في قلبه وسط تراتيل قرآنية خضراء من نخيل حجازي، ويبدأ الجد في الطريق بصوته الهادئ:

ـ يا عبد الله، يا ولدي لا تأخذك الدنيا بعيداً، ولا تكن مجنوناً ببريقها فهو خادع، كن مع الله والناس تكسب أثمن جوهرة في هذا العالم ألا وهي الطمأنينة، يا ولدي لا أعظم من السكون وراحة البال في هذا العالم، أبوك مجنون ولا خير فيه، يكبر مثل هرش القرع، وفي النهاية يذوي دون أن يترك وراءه غير المال، والمال سلاح إبليس إذا لم تكن فيه حصة لله والفقير، يا عبد الله اسمع...

ويحس بيده عصفوراً حاراً في يد جده الكبيرة، يلتحم النبضان ويضيع الصوت، يرتجف لصور النار وعذابات الجحيم كسعف النخلة، وتلوح أضواء الجامع، وقد استطالت مئذنته الجديدة جبارة في الفضاء اللامتناهي، ولم يفهم سرّ الضخامة الهائلة في الأبنية الدينية ورموزها إلاّ حين فسرها له أحد المهتمين بتاريخ العمارة الإسلامية حين قال له: أمام ضخامة وروعة التصميم يشعر الإنسان بالضآلة وبحالة من تقديس صاحب الملك والطاعة له ولجبروته."

. يا عبد الله حين خلق الله الحيوان جعل الأسد ملكاً عليها، وحين خلق الطير جعل الصقر سيداً عليها، أما الإنسان فسيده وملكه الحقيقي هو الله لأنه خلقه على صورته، فاسمع...

ولحظة يدخل الجامع يخلع نعليه، ويندس بين صفوف المصلين إلى جانب جده يغرق في نهر الناس، يتلمس ضربات قلوبهم القاسية الخائفة وعيونهم التي تبرق كعيون بنات آوى، وإلى اليوم لم يجد تفسيراً لذلك التصور الذي لا يفارقه بأن

www.alkottob.com

الفرات يسكن الجامع، عجوزاً أبيض الشعر، يربي السمك، ويقيم صلواته تحت قمر الجزيرة، وفي يمينه كتاب، لأن لكل نهر كتاباً يدّون فيه أيامه الرملية، ورحلاته الخالدة، ويقيم أبراجاً للعصافير في المئذنة القديمة بين لحم الفخار الأحمر والخشب.

ويظل مع جده إلى أن يغادر معظم المصلين، ثم يقوم، يدس يده في يد جده، ويبدأ رحلة العودة، المدينة صغيرة، لم يكتشف كم هي صغيرة!! إلاّ بعد أن سافر لأول مرة إلى حلب والشوارع ضيقة، والناس في بيوتهم، كل شيء بسيط إلى درجة بدائية ومسطح وقليل العمق لكنه عصي الفهم مثل تلك النقوش الشعائرية على كسر الفخار وقطع الحجر التي يحملها النقابون من الخرائب القديمة.

. إلى فراشك الآن يا عبد الله.

ويستمر الحلم في الفراش، تزوره العصافير وكلاب الغجر ورائحة الدقيق الحار، تزوره سارة بنت حسين وهي ترفع ثدييها مثل آلهة طينية تريد أن تسقي "دجن" حليبها، وهي عارية تماماً، ويمتلئ بزهر الرمان الناري وهو يشعل أشجاره تحت ضوء القمر كطائر حبيس.

يرى جدته ومرضاها من المصابين بأبي صفار "اليرقان" وقد جلسوا وظهورهم لها، وقد حنو رقابهم بينما تحمل أصابعها النحيلة، شفرة حادّة تقصد بها عروقهم، بينما الدم ينزّ من جراح سطحية في أمكنة خاصة تعرفها الجدّة وحدها لخروج الدم الفاسد، وقد ورثت هذه المهنة عن أسرتها التي اختصت بهذا اللون من الطب الشعبي لعلاج اليرقان، وحين تنتهي تناديه "عبد الله، الزبيب الأسود"، وعند هذه الحدود ينتهي الطقس اليومي الذي بذر في نفسه رغبة أن يكون طبيباً.

. يا أم عبد الله.

ويأتي صوت أبيه من الغرفة، تعقبه نحنحة خاصة، وتقوم الأم إلى غرفة الأب المجاورة التي ينام فيها وحيداً، إلا من زوجته التي يرغب في النوم معها، وقد ظلت هذه الغرفة سرّاً خاصاً لا يدخلها أحد ومفتاح بابها في جيب الأب، ففيها ثروته وعالمه الملون من بسط وسجاد وقهوة ونراجيل نادرة، وعلى الدوام تفوح منها رائحة العطر والتتن والجنس.

* * *

ولن ينسى ذلك الصباح البارد

ألبسته أمه أجمل ثيابه، ثم قاده جده من يده، وقد تدلت إلى جانبه محفظة

www.alkottob.com

قماشية خاطتها أمه ووضعت فيها كتاباً صغيراً، كان طوال الطريق صامتاً، كما كان جده منصرفاً إلى أوراده وسبحته، يردّ تحيات العابرين ثم يعاود إلى تهويماته وإلى جانب منزل ملحق بالمسجد توقفا، ثم دخلا إلى فناء المنزل المؤلف من غرفتين وساحة، ومن إحدى الغرف وصل إلى سمعه صوت الأطفال، أطفال يرددون معاً وبصوت منغم عالٍ مقاطع من أحرف وكلمات.

. هذا الكتّاب.

قال الجد بعد صمت طويل ثم تابع:

. اسمع كلام الشيخ يا عبد الله، وأطعه، ولا تضيع الوقت، افتح أذنيك وقلبك وعيونك وأنفك فكلام الله يا ولدي لا يدخل أذناً صماء ولا قلباً مغلقاً، هل سمعت يا عبد الله.

. نعم يا جدي سمعت.

وعبرا عتبة الغرفة، كان المشهد مفاجئاً، أطفال صغار يجلسون على حصيرة طويلة وعلى دكّة ترتفع قليلاً، جلس كهل بلحية أنيقة خالطها الشيب ما إن رأى الجد حتى وقف واندفع يرحب به بودّ واحترام:

. أبا أحمد، أهلاً وسهلاً.

. السلام عليكم يا شيخ حسين.

. وعليكم السلام يا حاج، خطوة عزيزة ومباركة.

قال ثم التفت إلى الصبيان وصاح بهم وهو يهز خيزرانته الطويلة بيده مهدداً كل من يخالف

. استراحة.

وهرع الجميع إلى باحة الدار، وقد غمرت فرحة الطفولة وجوهاً لوحتها شمس الصيف الجاسية، وجلس الرجلان على الدكة، وبدأ حديث يطول بينهما عن الوقت الذي يتغير والناس وقد نسياه تماماً.

ومنذ ذلك اليوم بدأت حياته في الكتاب، وقد كتب فيما بعد عن الشيخ حسين الذي أرسل أيام العثمانيين يطلب يد ابنة السلطان عبد الحميد، ولولا أن اتهمه الوالي بالجنون لدفع حياته ثمناً لفعلته غير المعقولة.

* * *

مع الفجر أفاق.

www.alkottob.com

عماء شفيف، وأصوات عصفور تدغدغ قفص الأضلاع، فترد إليه برد العافية فتذكر حكايته مع العصافير، يوم جمع مصروفه اليومي ليرة وراء ليرة حتى حقق حلمه في شراء بندقية صيد متواضعة، حين حملها أحس أنه يملك الكرة الأرضية، فقام بتربص تلك العصافير القادمة إلى شجرة الرمان، وحين أطلق النار، سقط عصفور وحيد، وقد صبغ دمه العشب الأخضر، فخالطه الجزع، لكن ضحكة ساخرة انطلقت من الخلف عرفها فوراً، وجاءه صوت أحمد الرفاعي:

. عفارم، عصفور بثلاثة ألواح من الزجاج.

وفطن لأول مرة إلى ذلك الصوت المدوي الذي رافق سقوط العصفور وحين نظر إلى الشباك المقابل وجد ثلاثة مربعات فارغة من زجاجها وكأنها تسخر منه فانسحب خجلان إلى غرفته.

أفاق من نومه وهبط إلى المطبخ، غسل وجهه، وسرح شعره ثم حمل دلة القهوة التي أعدها بنفسه وجلس في الفناء الخلفي وسط رائحة الشجيرات، صبّ لنفسه فنجاناً من القهوة السوداء الحارّة، وقد دخلت رائحتها خياشيمه مخلوطة برائحة الهيل.

لكم تفقد الدنيا مباهجها؟! تتحول إلى عجوز متصابية ومنفرة، فها هو الخطاف الذي كان يقدم إلى البلد في مواسمه قد هجرها مع انتشار بيوت الإسمنت التي لم تعد تترك له مكاناً يبني فيه أعشاشها، فالسقوف الخشبية كانت مكانه المفضل ولم يعد في البلد أسقف خشبية، وها هو الفرات بدون الأمطار تحوّل إلى عجوز شاحب تملأ جلده الجزر الخضراء والرمال ويهزأ به الأطفال.

هجس مع أول رشفة من فنجانه ولمس فخذه، ما أبشع النهايات غير المعقولة للأشياء والكائنات، ولا يعرف كيف لمعت كنصل من الفولاذ الدمشقي سارة بنت حسين، أووه يا للأيام العجيبة؟! كان طفلاً بعد، وكانت أنثى، كانت جسداً من النار والزبدة والعصب، مهرة لا تستقاد، شموس، تبهر أباه، وتحبها أمه، تأتي إليهم يوم الخميس، تقوده من يده إلى بيتهم المجاور، تعريه من ثيابه وتدخله إلى الحمام، وهناك تفوح رائحة البخار والبيلون والحناء والصابون المعطر، من أين تأتي به؟! لا يعرف كل ما يعرفه أن له رائحة خاصة ثم تتعرى من ثيابها، وتضحك وهي تدخل أصابعها في شعره، وتقف، تمثالاً من المرمر لم يرَ مثله إلا في المتاحف الأوروبية، إنها أفروديت وعشتار ومينرفا، تضغط ثدييها بيديها مثل تلك الدمى الطينية العارية التي اشترى الكثير منها من مهربي الآثار تحية لتلك الأيام، ثم تغمض عينيها وتتلمظ، تلحس شفتيها بلسانها وتتأوه، وحين يذكرها اليوم

www.alkottob.com

يرى آلاف الثيران المجنحة والأيائل والأسماك وطيور الحجل والدراج تنفر من تضاريس الجسد، يرى كفلاً يصعد إلى الكتف بريشة فنان بارع، وقد أسدل الشعر ستره على الظهر الفتي كظهر غزالة يزل عنه الخيال البارع، ومن النهدين يرى عبد الله دماً وأقراصاً كورد اللبلاب مدورة وغامقة تفر وتطير، وحين يخالط الماء جسدها يرى حباحب أشبه بالندى في البداية، كانت تخيفه خاصة حين تمتد أصابعها المحناة تحرّشه، فيستجيب لها، حينها تدفن جسده كاملاً بين فخذيها وتتخر، وتمتد أسنانها إلى أذنيه تغرسها بالتبادل، ثم تهصر شفتيه بين شفتيها، وتقول:

. عبد الله.

ولا يرد عليها، فتعاود:

. عبد الله.. يا عبد الله.. ويل لك من هذا.

ويثمل بالرائحة، يدس أنفه تحت الإبط، ويغيب في لحظة غامضة غير قادرة عن التعبير عن نفسها بالقذف القدسي.. ويستسلم لها يترك لأصابعها تعبث بكل شيء، الشعر واللحم، وينتظر الختام حين تقرصه من لحمه بتشفٍ ولهفة وغيبوبة.

. عبد الله.. لن تخبر أمك.

. لن أخبرها.

وتنتهي الطقوس وسط الماء ورغوة الصابون والبخار، وتفتح ساقيها عن ثلم وسط الأعشاب السوداء وتهدأ.

ويحمل الدكتور عبد الله فنجان قهوته الباردة، يقف وسط المكان وياديه الورق والصوت يستعيد الماضي، أي جنون يعنيه الماضي إذا كان الحاضر قد تحول إلى جثة لا حياة فيها غير نبضات قلب تحجر وبات مضخة هرمة، هل يكفي ذلك ليربح الإنسان العالم؟! كيف يتصالح مع الراهن الآتي وهو يقترب من اللهب القادم؟! لقد أصدر في الأعوام الأخيرة كماً كبيراً من الكتب مادته الماضي وذكريات الماضي، هل هو تسليم وانتظار لحسن الختام؟! أم أن العربي يبقى أسير الماضي دائماً، في شبابه يعيش مجد أجداده لا مجده الشخصي، وفي شيخوخته يعيش ماضيه الذي هو ماضي أسلافه، أي جنون هذا؟! لقد مرَّ بأقدامه على معظم أصقاع العالم ولكنه لم يجد نبضاً لأرض تحت قدميه سوى هذه الأرض، ولم يألف نهراً سوى نهر الفرات، من السويد والدانمارك إلى فرنسا وأمريكا

www.alkottob.com

وإنكلترا مروراً بهولنده وبلجيكا ومع هذا ظل في داخله البدوي الذي لا يجد الشمس رائعة إلا على جدار منزله، ولا تلذ له غير قهوة أمه في مساء فراتي.

وضع فنجان القهوة ثم دخل البيت، توضأ كعادته، ثم توجه إلى المكتبة، تناول سجادة الصلاة، وبدأ في إقامة صلاته اليومية التي لم ينقطع عنها يوماً حيثما كان، وهو لا ينسى ثلاث صلوات واحدة في القدس وأخرى في مكة، والثالثة في مسجد غرناطة يوم زار إسبانيا، صلوات أقامها وكأنها تختصر ألف عام في لحظة واحدة، صلوات كان يمكن أن تصليها خلال عام، لكنها اليوم تحتاج ألف عام.

بعد الصلاة غادرته كل تلك الذكريات، كما تغادر الغيوم سماء صاحية وعاد إلى التوازن الرصين والثقة بكل هذه الثوابت فالبلد بلده، والناس هم ناسه الذين يحلمون ويثرثرون ويغنون قلمه بما يفيض فيه على الآخرين من حكايات ومفارقات.

. أيها الحصان إنك تهرم.

قال وكأنه يخاطب أحد أحصنة الرفاعي الأب، أحصنة كانت من سلالات أصيلة على الدوام، حين تشيخ تأنف الطعام، وتزهد في كل شيء وكأن في داخلها مؤشراً غامضاً بأن النهاية قادمة.

***

من البيت توجه إلى التكية.

اخترق حارات الرواد الأوائل الذين بنوا النواة الأولى للبلد، رأى صغارهم العفاريت وبيوتهم التي لم تلمسها يد التطوير كثيراً، رأى النسوة الطالعات من بوابات البيوت القديمة زاعقات أو حاملات، وقد فاحت روائح عدة لطعام ومياه آسنة، يا للروائح لكم يشمها بكل كيانه؟! لكم يرى فيها الشجر الطالع من سرّة الأرض، ورغوة الصابون الغار، وزنخ الإبط، وعبق الرقبة المغطاة بشعر مغسول بالبيلون والماء.

. الدكتور عبد الله؟!

قال شيخ التكية. ثم أردف:

. يا ألف مرحبا.

. أهلاً شيخي.

قال وانسل إلى الداخل، رائحة عطر ثقيل، رايات الأجداد القادمين من العراق

www.alkottob.com

ودفوفهم وسيوفهم، أجداد لم يكن لديهم غير النعاس والبكاء والأصوات الجميلة.

. بعد غيبة يا حكيم أليس كذلك؟

. بالتأكيد يا سيدي الشيخ.

. في عينيك خبر يا حكيم، يقول كل شيء ولا يقول شيئاً.

. طال الوقت يا شيخي.

. لا يهم فالوقت ليس غولاً على الدوام يخرب خلايا المخ والعقل، ولكن المهم ألاّ يطول الجفاء.

. ما في القلب في القلب.

. لا تخش شيئاً إذن.

. الله يا شيخي، ليس في صيدليتك غير المهدئات.

. قل يا أيتها النفس المطمئنة ادخلي.

. أعطني شيئاً آخر.

. هو العاطي يا حكيم.

. لا اعتراض ولا خلاف.

. اللغة ضيقة والمقام جليل.

. إيه يا شيخي أنت لا تهرم.

. وهل هرمت أنت؟

. ماذا ترى؟!

. أرى صحة وعافية وشباباً.

. أما أنا فأرى شيئاً آخر.

. بعينيك أم بقلبك؟!

. بالاثنين.

. هذه بداية الحيرة.

. ماذا أقول؟

. قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون.

. اختلط الماء بالتراب فكان الطين.

www.alkottob.com

. ذاك شأن العارف أما العلم؟

. وماذا يقول العلم؟

. ما يقوله العالم.

. أنا متعب على ما يبدو يا شيخي.

ـ لا تسرع فالشاي مع القرفة قادم بعد قليل، أمّا الآن فدور القهوة المرّة والكلام.

وقام سبطاً نحيلاً، في عينيه ذهول وشوق دائم للناس والكلام، وفي أصابعه رغبة في ملامسة وتر أو حدّ خنجر أو زهرة أو شعر امرأة مقدّسة، حمل دلة القهوة الفائرة من على الجمر وابتسم، ألف حمامة وعصفور فروا من تلك البسمة، وقال:

. تفضل.

هزّ الدكتور عبد الله الفنجان الواسع بنقوشه البدائية، نباتات وطيور تتداخل مع اللون الذهبي، راقب العين السوداء البراقة ببخارها الأزلي ورأى في برقها رقّاً من الزرازير يصعد. هزّ الفنجان مرّة أخرى ثم قذف الحسوة في فمه وتمطق.

. الله، الله!!

وتناول الشيخ منه الفنجان، صبّ فيه من جديد ثم دق مقدمه الدلة بالفنجان وناوله إياه، شربه سريعاً وعاود:

. الله!! قهوة لا كالقهوة.

. هنئياً.

. ليس كصداقة القهوة المرّة والنار.

. لا تتكلم كالمجوس.

. أعوذ بالله.

. لا تُخدع بالظل.

. فات أوان الخداع.

. الشيطان ماكر.

. يا شيخي.

. لا تقل شيئاً يا حكيم.

www.alkottob.com

. السكوت عجز.

. لا تقل شيئاً.

. ولمَ يا شيخي؟

. بعد القهوة المرة لا بد من الشاي بالقرفة.

. كما تريد.

. الإرادة له.

وجاء مريد شاب بالشاي في إبريق أزرق وسط صينية بيضاء، اصطفت حوله الأكواب وفاحت منه رائحة الهيل والقرفة.

ـ اشرب يا حكيم فموعد الصلاة قريب، وليس كالصلاة دواء لنا من الخوف والقلق والضعف البشري ولا تكن كالمقامر.

ومدّ يداً خفيفة إلى الصينية ولا يعرف كيف قفزت إلى ذهنه صورة الشريف القره قلي بثيابه وخواتمه وبسمته الرخوة فسأل:

. من أين جاءك كل هذا الإرث الملعون؟.

***

. اليوم جمعة، والجمعة دائماً يوم ثقيل، وبطئ كالسلحفاة.

قال سعيد النهري، وهو يخترع شخصاً يخاطبه، ثم رفع كأس الشاي الياقوتي إلى شفتيه الغليظتين، متخذاً سمت المتأمل، وقد هبّت من بخار الشاي رائحة القرفة والزنجبيل، فاتحدّت بخلاياه وأنفاسه، وراقب المكان، الحديقة الصغيرة، وعراتيل الورد، والطاولة الخشبية، وكرسي القش الكبير، الذي أوصى عليه ويسو النجار خصيصاً ليتسع لجثته الضخمة، وإبريق الشاي، والنرجيلة، المتوجة بالجمر والتبغ وسحب الدخان الهاب، التي يجد في صوتها راحة تغنيه عن حكايات الناس البائتة.

إنه خلوته، ويوم راحته، ولا يريد لأحد أن يقتحم هذه العزلة، لذا اختار فريدة أصغر زوجاته للمبيت عندها، وفريدة من اصل حلبي، أبوها رجل فقير، هرب من حلب بحثاً عن فرصة للإثراء أو على الأقل عيشة مستورة، تاجر بالصابون وليف الحمام والزعتر، متجولاً على عربة يدفعها في الحارات والأزقة داعياً إلى بضاعته بصوت رجولي عريض:

. صابون غار يا صابون.. الزعتر الممتاز... يا زعتر.

www.alkottob.com

ثم أضاف فيما بعد صنفاً جديداً هو الحناء والبيلون، زوده النهري برأسمال صغير، زاده حين اكتشف فريدة، وجمال فريدة، فلمّا عجز المسلاتي الأب عن الوفاء، خطب إليه البنت، فزوجه مرغماً شرط أن يكون لها بيت خاص، فقبل بكل شروطه دون تردد.

. حاج هذه البنت روحي، عزيزة وغالية. وهي أمانتك.

قال للنهري برجاء... فأجابه:

. ستكون في الحفظ والصون.

ولتأكيد حسن نواياه، وضمان طاعة فريدة، افتتح النهري لصهره الجديد، دكانة صغيرة للعطارة، الرأسمال منه، والربح مناصفة، وذلك في أول "دربة الربابة" وهو زقاق ضيّق، تفوح منه رائحة القصدير والنار ودخان الصدأ، يقصده القرويون لتبييض مواعينهم النحاسية، فيشترون منه حاجاتهم، ومعظمهم من زبائن النهري.

ويوم زُفَّت إليه فريدة بنت عمر المسلاتي، تخبّل، ولم يصدق عينيه، كانت رائعة في ثيابها البيضاء، كجنيّة من جنيَّات الفرات، حين يخرجن لصيّادي السمك، في الليل ساحرات، عاريات في ضوء القمر، لإغوائهم واستدراجهم إلى عالم الماء السفلي، والزواج منهم، فلا يراهم أحد بعدها، ويلجأ الصيادون لحماية أنفسهم إلى غرز إبرة الخياطة، أو مسلّة في كوفياتهم، أو ثيابهم لإبطال سحرهن ودفع شرورهن، وليتواصلوا مع بعضهم كانوا يطلقون حناجرهم بأغانٍ حزينة، فيها حنين وشوق من السويحلي الفراتي والنايل والعتابا، فتردّد بنات الجرف:

قلبـــــي يجـــــرّ بضـــــلوعه جـــرَّ الســـفن مـــن عانـــه

مـــا شـــفت رخـــو المخـــرم تمشـــي جمـــا الوجعانـــه

ولأنّ فريدة بنت عمر المسلاتي قرأت القرآن عند الكتَّاب، كانت تعرف القاعدة الذهبية في أنّ الرجال قوامون على النساء، وأنّ من حرمت زوجها متعة جسدها، حُرمت الجنّة، وكانت أقرب إلى النار، من هنا، رضيت بقدرها، وجاءت مذهبّة، مزينة، عاطرة، صلّت في البداية ركعتين مع زوجها ثم جاءت بالماء الساخن والصابون وماء الورد، غسلت قدميّ النهري، ثم استأذنت ساعة، والنهري مثل شهريار أبله، مأخوذ بما يجري، يحصي الدقائق وينتظر، وكان شيئاً في روحه لا في جسده يستقيظ الآن، رقيقاً وناعماً كفرو الخروف.

وعادت.. كانت امرأة أخرى، ملفوفة بقماش رقيق مكشوف، اسمه "بدلة

www.alkottob.com

الرقص" وبدأت تتلوى وتغني، في طقس أشبه بالخشوع الداعي إلى وليمة، أو عشاء وثني، كانت القربان والمذبح، الذابح والنار المقدسة، وظلّ النهري أسبوعاً لا يستقبل أحداً، ولا يذهب إلى دكانه.

كانت فريدة تنفذ وصيّة أمها:

. كوني في النهار خادمة في البيت والمطبخ، وفي الليل ملكة.

وفريدة قليلة الكلام، تتحدث بعينيها وجسدها وأصابعها، وإذا كانت قد قصّرت في إنجاب طفل للنهري، فالله موجود، وأولياؤه في كل مكان.

رشف النهري حسوة من شايه، والنهري مرتاح، فالموسم يبشر بالخير، والشيخ شملان بن جابر طوى موضوع حواء بنت التعاويذي، وذلك لسبب غامض ومجهول، فلم يعاود ذكره مرة أخرى، وهذا ما أسعده فهو يخاف سطوة التعاويذي حتى الموت.

. هذا الرجل من أهل الأسرار.

هكذا فهم النهري، وعلى خلاف عادته في الذهاب إلى المسجد، توضّا وصلّى في البيت لحرصه على العزلة من هنا استأذنت فريدة لزيارة مقام سيدنا "أويس القرني" أذن لها، لأنه يفهم السبب في الزيارة، وقد مازحته خرما القوّالة التي رافقتها، فقالت له:

. تعرف يا حاج؟ حين تموت سأقيم لك أكبر معادة عرفتها البلد، بعد معادة الشيخ تركي يوم مقتله.

. أعوذ بالله من شرّك يا حرمة.

قال بانزعاج وتأفف... فتابعت:

. وسأقول فيك ما لا يحلم ابن سعود.

. هذا جنون.

. الموت حق يا حاج.

. حق.. حق فما علاقتي؟!

. يا حاج.. بكيت ما يملأ سفينة من الدمع على ناس لا أعرفهم، منهم الشيخ ومنهم المستور، منهم مَنْ مات موت ربّه، ومنهم من مات مقتولاً، حتى صار الموت ابن عمي وصاحبي، يزورني في الليل لنشرب القهوة المُرَّة.

. الموت لايعرف صاحباً.. وأنت مجنونة.

www.alkottob.com

. الله يسامحك يا حاج..

وضحكت ثم انطلقت مع فريدة، فنسي النهري كل شيء.. وعاد إلى نرجيلته وشايه الذي بدأ يبرد.

***

المقبرة خليَّة نمل نبويٍّ.

والشواهد ترتفع بأطوال مختلفة، والمسالك متعرجة وضيقة بين الدمن، تركت لمرور العابرين وأكثر الموجودين من الأطفال والنسوة، اللواتي جئن يحملن التمور والسكاكر الرخيصة والدمع والحزن، وقد وقفن أو جلسن للتدخين . خاصة القرويات، وغير بعيد في الطرف الجنوبي من المقبرة، ارتفعت قبّة بيضاء من اللبن والجصّ، سوّر حولها مساحة من الأرض في وسطها ثلاث شجرات ضخمة للتوت، وبئر للشرب والنظافة والوضوء، وشجرة رمان وحيدة زرعها "أبو عرب" خادم المقام، وهو يجلس بعمامته الخضراء، وسبحته التي تتدلى من عنقه وعينيه الحولاوين، عين على مدخل المقام، والأخرى على حجر أسود أملس، يدعوه الأهالي "حجر السعد" فإذا نوى أحدهم أمراً، وشاء التأكد من حصول مراده، وضع قطعة من النقد المعدني على الحجر، وانتظر، فإذا ثبتت تأكَّد لديه حصول المراد، وإذا سقطت . لا سمح الله . التقطها ومضى عابساً، والدور نفسه تقوم به الصبايا، وإلى جانب المقام يقوم قبر مهيب من الحجر الأبيض والمرمر المنحوت، لأحد قوّام المقام السابقين، وكان لصاً مرتشياً وفاسداً أوصى بعد موته أن يدفن في فناء المقام، كونه تزوج من إحدى العائلات الشركسية المرموقة في محاولة للتكفير والاستغفار، ولتسهيل زيارة قبره، ومع مرور الزمن تناسى الزوار مفاسده، ثم نسوا اسمه، لفخامة القبر، فبدأ يشارك صاحب المقام في الأعطيات والنذور، ولم ينسَ الدكتور عبد الله الرفاعي سيرته، فأدخله ضمن حكايات قوّام المقام في ذاكرته، فكان موضع تنذّر بينه وبين الصحافي المرموق منير الريس صاحب القبس الحموي، كلما التقاه في مقهى "الهافانا" الدمشقي.

***

الشمس تلقي بنورها، فتغسل المكان.

وأبو عرب في مكانه المعهود، يرقب الزائرين ببلاهة، حين دخلت فريدة بنت عمر المسلاتي، ومعها خرما القوّالة.

. سبحان الله، اجتمع الجمال والموت معاً!!

www.alkottob.com

تمتم، ثم عاد إلى شأنه.

في الداخل هبت رائحة طيبة، ومعتقة تسكن الطوق والجدران وحجارة الضريح، وتعبق في الظلال المهوّمة في المكان الغارق في الجلال والرهبة وضوء الشموع، حيث تحولت القامات إلى أشباح خفيفة تتحرك بلا ملامح، بينما سجّي القبر بقماش من الأطلس الأخضر، فدارت المرأتان، ترتلان بخشوع آيات من السور القصار.

وعند رأس الضريح، توقفت فريدة كسيرة الجناح، والدمع يهطل من عينيها السوداوين الواسعتين، تمسّحت بقليل من زيت البركة من "طاسة" الولي الذي يقسم بها الأهلون، فلا يكذبون، وبهمس خافت بدأت تضرعاتها، وقد ذابت في ألق النور والبهاء، وكي لا تستأثر بوقت الزائرين سواها تحركت.

وضعت فريدة ما جادت به نفسها من نقود، في إناء أعد للصدقات والنذور، ولم تنسَ حين عبرت من جانب قبر القائم مقام، أن تضع حصته. وترحل.

***

رفع الشيخ جنيد عينيه عن صفحات الكتاب الذي أمامه.

وهو يتمتم بالأوراد، وقد انفرط عقد من ياقوت الكلمات في داخله، يستطلع وجه المرأة الصبيح وهي تنحني عليه، بثيابها السود وأقراطها الذهبية، وعيناها نافذتان لعصافير الله، تتدفق بمرح، لتسرق ما انفرط من عقد الياقوت، وابنها المريض بين يديها، يئن ويتوجع:

. بالشفاء... إن شاء الله.

ومست يده يدها، وهو يناولها الحجاب، فارتجف بخشوع، فالشيخ يعبد الجمال، ويرى فيه الحق والخير.. بل ويتبارك بالوجه الصبوح:

. تعودين بعد أسبوع.

وانسحبت بعد أن دسّت قطعة ورقية في راحته، فصاح:

. حمدان.

وأطل رجل أعور، متين البنيان، وقف أمامه وقال:

. حاضر.

وخرج الرجل إلى ساحة التكية، أغلق الباب الخارجي خلف المرأة الزائرة، ثم اتجه إلى غرفة منعزلة ذات باب متين، وشباك حديدي، ومفتاح كبير، ما إن أداره

www.alkottob.com

في القفل حتى صرّ الباب بصخب، ثم انفتح عن خليط عجيب من مرضى الصرع والعظام واللقوة وما أشبه ذلك.

. شواخ .. تعال.

جرّ أحدهم ثم أغلق الباب الثقيل باليد الأخرى، كان الرجل مصاباً باللقوة، وقد مال جانباً، وبدت عيناه زائغتان، وقد استكان أمام الشيخ.. الذي أصدر أمره:

. شدّ وثاقه.

نفّذ حمدان الأمر، ولم يعترض المريض، وبدأت الشعائر المعتادة، تناول الشيخ "داسومة" حمراء جديدة من الجلد الطري، مما تشتهر بصناعتها مدينة حلب، وبرشاقة بعد بسملة وقراءة سريعة أهوى بها على جانب الوجه المائل، أعقبها عواء حيواني محض، والشيخ يتابع بلا رحمة إلى أن أغمي على الرجل، فتناول "طاسة" نحاسية مملوءة بالماء، قرأ عليها، ثم بصق فيها ثلاث مرات، وقال:

. اسقه حالما يصحو.. لا تنسَ.

. لن أنسى يا شيخي.

وقام إلى الفناء بوقار وهدوء.. يبدأ نشيداً، يمدح فيه الجمال بلغة مولاي جلال الدين الرومي.

***

–يا درب الشام لا تغبِّر حساويهم.

دندن تنباك اللحن بصوته العريض، وكأنه يسترجع ما فات أيام "السفربرلك" حين حمل الأجداد مصاحفهم وبنادقهم وجوعهم ليقاتلوا الكفار دفاعاً عن دين محمد ε، ولم يعودوا، حصدتهم ثلوج "المسكوف" والبلقان، وظلّت هذه الأغاني الحزينة ترثيهم دون جدوى.

وتنباك رجل لا همّ له سوى صيد السمك، ومعاقرة العرق في ظلّ الجروف، وقلما يألف الحانة إلا لماماً، لرؤية الأحباب كما يقول، وأكثر ما كان يثير أعصابه رؤية المخنثين ومربيِّ الحمام وقد تهلّل وجهه وأشرق لرؤية أبي محمد المصري، عامل ومدير الفندق الوحيد في البلد:

. أهلاً أبا محمد.. الوحدة مع العرق وآدم لا تطاق..

. أهلاً حبيب.

www.alkottob.com

. وجلسا متقابلين، وقد أسرع آدم الأشوري ببطحة العرق والكأس.

. تفضّل عزيزي.

. شكراً.

وسكب أبو محمد في الكأس، ثم أضاف إليه الماء، ورفعه عالياً، فقلدّه تنباك في ذلك.. وصاح:

. محبّة.

. محبّة.

ووضعا الكأسين، ولم يكن أمامهما سوى صحن صغير فيه حبّات قليلة من فستق العبيد، فتناول كلٌّ منهما حبَّة لهمها بسرعة.

لولا عيونك ما اطلع وأشوف الناس.

دندن تنباك، فانفرجت أسارير أبو محمد المصري، فتناول كأساً آخر وقد تورد وجهه المنمش حتى بات كالفخار المحروق.. واندفع:

. كان كأس العرق يفتل رأسي كالرحى، فأنسى نفسي.

. واليوم أبا محمد.

. دمجانة عرق لا تؤثر في هذا الرأس.. يجب أن أسكر..

. ولماذا يجب هذه؟!

. لأنني إذا لم أسكر كيف تريدني أن أنام مع الغولة؟

والغولة هي زوجته، امرأة سمينة غامقة، بملامح غليظة، أقرب إلى الرجولة منها إلى الأنوثة.. ووسط قهقهة أشبه بالبكاء ردّد حكمته المأثورة:

. نحن زلم ننام مع زلم.

ومع الكأس الثالث بدأ العرق، يفرض سطوته ونشوته، والبهلولة تبزغ في الداخل، ومع دخول إسماعيل الفارس وصاحبه الدائم، بدأت الحركة في الحانة، وقد سلّما ثم اتخذا مكانهما المعتاد.

. أين العرق يا آدم؟ بسرعة.

. طيّب.

وانتصب الكأسان وبطحتا العرق أمامها وبعد الكأس الثاني بدأ إسماعيل حكاياته وآراءه التي لا تدخل العقل.. فقال:

www.alkottob.com

. مائة سنة... نحتاج مئة سنة يا صاحبي.

. وما حاجتنا إليها؟!

. لنصل إلى مستوى بغلة "ثريا باشا".

قال ثم سكت.. فسأله صاحبه:

. ومن ثريا باشا هذا؟!

ثم أردف بعد أن تناول جرعة من الكأس:

. وما شأن بغلته هذه؟! وما علاقتها بنا؟.

. هذه مشكلتك دائماً.. لم تقرأ التأريخ جيداً.

. ماذا يقول تاريخك عن بغلة ثريا باشا؟!

. كان ذلك في العهد العثماني يا صديقي، حين جرّدت الحكومة فرقة عسكرية لتأديب بعض العشائر المتمرّدة في المنطقة، وعلى رأس هذه الحملة كان ثريا باشا، والي حلب، ومعه بغلته المدلّلة التي يفضلها على أصائل الخيل، ولأنها مدللة وعزيزة عليه لم يكن يطعمها إلا السكاكر والفستق الحلبي المقشّر بدل الشعير والعشب، وكنا يومها نموت من الجوع ولا نجد خبز الشعير.. فهل نصل قبل مئة عام إلى مستوى هذه البغلة برأيك؟ أم لك رأي آخر؟!

. حكاياتك مثل العرق، ليس من السهل بلعها بدون مازة.

ورفع كأسه بمحبة... ثم تابع:

. خبرني هل ربحت في لعبتك الأخيرة؟!

. ألم أقل هذا الحاج مامو لا يهزم؟! لقد خسر في البداية، لكنه عاد فربح كل ما لدينا، وانصرف بعد أن ترك لنا "خرجية" يوم.. ابن حرام حقيقي هذا الحاج، لكنه يثير الإعجاب والاحترام.. أكثر من باقي الأوباش الآخرين، خاصة صاحب البيت ابن القره قولي.

قال.. ثم ساد هدوء ناعم ومثبط للنشاط جو الحانة.. ومن بعيد جاءهم صوت بيرام الرهاوي في جولته اليومية:

. يا زكيّة... آخ يا زكيّة..

ثم اندفع يخبّ كالحصان باتجاه السراي.

***

www.alkottob.com

من أعلى التل الأسود راقب الحاج مامو المكان.

مخـازن الغـلال والحبـوب، والجـرداق، والنهـار الـذي يـدبّ كشـحاذ عجـوز وكسيح، وقد انصرف عن لعبة الغربال، فترك فرصة لخادمه الذي أقعى أسفل التلّ، يراقب سيده بعيني كلب صيد، والصمت سيد الوقت العابر.

. هذا الإسماعيل يفهم في اللعب والنسوان، لكنه يضع قدمه في المكان غير المناسب.

هجس وهو يسترجع آخر لعبة مع الأوباش المحبوبين في بيت "الشريف" مع إسماعيل الفارس، ورفقاه، وقد أشفق على خسارتهم..

ـ بالتأكيد لم يخرج الإسماعيل هذا إلا بعد أن اختلى بإحدى بنات صاحب الوكر، الذي يستخدمهن كأشراك لصيد اللاعبين، ابن القرة قلي الدعارة في دمه ورثها عن الأب لكل بناته وأبنائه. والشريف يحتقره الحاج مامو، ويعتبره قمامة، يعتاش من هذه اللعبة، وبعد حساب الرابحين يختفي خوفاً عن ابنه البكر، مؤجلاً بذلك معركة دموية، يكون فيه الخاسر دائماً، ليدفع لهذا الابن بعد أن يشبعه لكماً ورفساً، ما يشتري به رضاه، ونكاية في بعض شيوخ البدو، وشم بناته وشمهم، وسمّاهن بأسماء بناتهم وزوجاتهم، وكان يناديهن بخبث ولؤم للدلالة على احتقار كل هذا التاريخ الذي بنوه بالدم والخوّة والغزو، وكأنه يقول:

. كلنا أولاد تسعة.

ثم ينطلق عن حاجة لا يفصح عنها.

هزّ الحاج رأسه، وهو يطرد هواجس كالخفاش تساوره، وثمّة حاجة خرساء إلى رحلة، أو امرأة، أو لقاء أناس خارقين يدعوه إلى الاستعداد، فزهد بكل شيء، فودّ لو يشعل مواقده القديمة، ومواجده التي انطفأت ليرفع رأسه، وينقر بأصابعه، كما تنقر الظباء بأظلافها على كتاب السهوب، وهي تتجه عطشى إلى موارد الماء.

. عوّاد..

وصعد الخادم التلّ لاهثاً، ثم توقف.

. بأمرك حاج.

قال بربع الصوت.. فأجاب:

. العباءة والباكورة.. ولا تترك العدّة.

www.alkottob.com

وانحدر الخادم مسرعاً.. بينما ابتسم الحاج ابتسامة غامضة قبل أن يستعد للنزول، والشوق يقود خطاه إلى القاع، وخطاه ثابتة.

***

قالت كوثر بنت مزهر لجارتها على عجل:

. نلتقي عند الحفّافة، وتحكين لي عن كل شيء.

وقالت سعاد الحامدي:

ـ الحمد لله تخلّصت من شعر العنز الذي كان ينفر زوجي منه، والفضل للحفافة.

أمّا سارة فأردفت:

ـ الحفّافة مثل اليهوديات تشتغل في كل صنعة. خاطبة، وماشطه في الأعراس، وقوَّادة بين العشاق، وعندها كلّ خبر، تعرف كل شبر وكل عيب في نسوان البلد ليس بينها وبين إبليس حاجز، فكل أسراره عندها.

وقالت الحفّافة لفريدة بنت عمر المسلاتي:

. آخر الطب الكي، وآخر حلّ لمشكلتك عندي، إذا نيل المراد.

. لم أفهم.

. تأتين إليّ وحيدة بدون بومة الخراب خرما، وتفهمين، اتفقنا.

. اتفقنا.

وانتهى الكلام عند هذا الحدّ.

www.alkottob.com

. كل الناس لهم شمس واحدة، إلاَّ الأرمني فله شمسان، واحدة يشارك فيها الناس نهاراً، وواحدة له وحده، هي شمس الليل.

يذكر ديران هذا العبارة التي طالما ترددت في باله، وهو في هذه اللحظة يشرك الناس شمسهم، فحركة البنك، ووجوه المتعاملين، والموظفين، تشدّه إلى دوامة العمل.

. تحياتي مسيو ديران.

فاجأه الصوت الأخنّ، فنظر إلى الرجل القميء أمامه ذي الطربوش الأحمر، والقنباز المخطط، والمحزم العريض، وقد استدارت لحية بيضاء حول وجه مدور كرغيف خبز، تطلّ منه عينان مثل حبتي عنب حامض.

. أهلاً سيد مصطفى، متى كان التشريف؟

. مسافة الطريق من الكاراج إلى البنك.

. الحمد لله على السلامة، أرجو أن تكون السفرة مريحة.

. الله يسلمك، تعوّدنا.

بدا لكلامه رائحة خاصة كرائحة الزعتر الحلبي والسمّاق، كما بدا لنظرته المتفحصة الناعمة طراوة الزيت الكردي وتسلله الدبق إلى الجوف، إنه يفهم هؤلاء "الخانجيّة" الماكرين، الذين يختزنون في رؤوسهم الذهبية إرثاً تجارياً عريقاً من الخبرة النادرة والدربة في تحريك رأس المال وتقليبه، فلهم حصص في الأغنام والخراف، وفي الصوف والسمن والجبن، إضافة إلى أجور تسويقها وبيعها، كما أن لهم شراكات في الخيل الأصائل، ومواسم القطن، وها هم يشاركون البنوك في تمويل المشاريع فمعظم المتعاملين يقوم الخانجية بتسديد قروضهم، وإدارة أمورهم المالية وتوريد السلع والبضائع إلى بيوتهم وفلاحيهم.

. جئت مبكراً هذا العام.

www.alkottob.com

. مسيو ديران المال مثل العقل إذا توقف عن الحركة توقف عن النفع.

. هل ستدفع عن الجميع؟

. بالطبع. لن أتأخر عن ذلك، تعرف.

قال وفك حزامه العريض، وقد دخل المستخدم بالقهوة، ثم انصرف سريعاً إلى خارج الغرفة، وبدأ يكدّس على الطاولة أوراقه الخضراء، وابتسامته الماكرة تملأ وجهه المعافى.

***

حين خرج الرجل، رن جس الهاتف.

فمدّ يده يتناول السماعة السوداء، لحظات وجاءه صوتها عبر الأسلاك نديّاً مبحوحاً له طعم الدراق الناضج، ونفحة الجوري الدمشقي، فاشتعل بلذعة البهار الفاكه، أنصت إليها بكل كيانه، غرق في الياسمين والألق، وعرائش اللبلاب، وصدمة الذكرى المفاجئة:

. ديران.

. من؟! زكاء أهلاً. غير معقول.

قال هامساً حتى لا يسمعه الموظفون.. فردّت:

. ما هو غير المعقول؟

. بالتأكيد أنا أحلم.

. الحلم شرط لاستمرار حياتنا.

. بدأت الكتب تفسدك.

. الوحيد القادر على إفسادي هو أنت.

. زكاء.

ونسي حاله، نسي المتعاملين والموظفين، ونظرة المستخدم الدبقة وتفتحت كل مسامة لاستقبال رائحة التفاح وزهر العسل.

. مشتاق؟!

. أكثر مما تتصورين.

. المشتاق يأتي إلى دمشق.

. تحت نار هادئة يطبخ أفضل حساء في العالم.

www.alkottob.com

. أنت لا تتغير. ضال مضلّ.

. رأي خطير.

. ما سأقوله لك أخطر.

وتلوّن صوتها بنبرة جديدة.. وتابعت:

. كل شيء انتهى لقد انفصلنا بشكل رسمي.

. أنت مجنونة.

. وهل ادّعيت أنني عاقلة في يوم من الأيام.

. والبنت؟!

. تركت له كل شيء

. أنت أكبر مجنونة في العالم

. وأنت أكبر فاسد.

. زكاء. اسمعي.

. اسمع أنت. انتظرني. سأكون عندك قريباً.

. ولكن.. هذا لا يعقل فالبلد..

وانقطع الاتصال، فبدأ المكان يدور، والأشياء تختلط، فأرخى عقدة ربطه عنقه. وظل ينظر ببلاهة في الباب المغلق، لولا أن انتشله من ذهوله صوت الشيخ شملان بن جابر، فهبّ واقفاً مرحباً، وقد سبقه الشيخ في إعلان غرضه من الزيارة:

. جئت مسلّماً.. فأنا في طريقي إلى الشام.

. تسلية أم عمل؟!

. الاثنان معاً.

وابتسم الرجلان بمودّة واحترام نادرين.

مثل فهد أسود متربّص بطريدته.

جلس العبد ذباح الحارس الشخصي، والسائق، وراء مقود السيارة الفورد، ينتظر خروج سيده من بنك سورية ولبنان، وعيناه ترقبان من المكان خان الشيوخ القريب، الذي كان مقراً لشركة السوس الإنكليزية، ومأوى لبعض المنفيين السياسيين من معتقلي الرأي، وقد استأجره تاجر حلبي وإخوته، لتخزين بضائعهم

www.alkottob.com

من الصوف والسمن العربي والجبن أو القطن، وقد يقيمون فيه أحياناً حلقات للذكر، ومن هنا جاءت تسمية "الشيوخ"، وغير بعيد عنه، مطعم جورج منكلو، مطعم صغير ونظيف، يقصده وجوه القوم وكبار الموظفين عادة لتناول كأس من الشراب، وتذوق لحومات جورج اللذيذة من بسطرمة وسجق وشرحات العجل، أو الخنزير التي يحتفظ بها لزبائنه المفضلين أمثال رافي صباغ ومسيو ديران ميناسيان، وحاج مامو الذي يقول له حين يطلبها:

. هات لي من الذي حلّلها دينكم، فالعرق بدونها لا لذة له.

وجورج منكلو يفخر دائماً بصداقة قوّام المقام المتعاقبين، وكان المستشار الفرنسي الأخير لا يستغني عن أطعمته "وما زواته"، وقد عرض عليه الهجرة إلى باريس وافتتاح مطعم هناك، لكنه رفض وقال بإصرار:

. الرميلة تكفيني.

وإذا كان للشيوخ الفضل في نشر الطريقة الصوفية فإن لجورج الفضل في شيوع ظاهرة الشراب، ويبدو أن العلاقة بين الحانة والتكية قديمة، وإلا لما تلازمتا في الولادة، وقد صدرتهما معاً إلى البلد مدينة حلب.

. ذباح.

. عونك.. يا عمي..

انتبه العبد على صوت الشيخ، فتهيأ للانطلاق إلى الشام فهو يعرف عادات شيخه ورغباته، وطلباته الخاصة، ومزاجه الدموي الذي لا يرحم، ما أن استقر في المقعد الخلفي من السيارة.. حتى أعطى أوامره.

. اتّكل على ربك يا ذباح..

ودرجت السيارة على الطريق، والعيون تنظر إليها برهبة وإعجاب، بينما أرخى الشيخ رأسه على المقعد الخلفي بارتياح، وهو صامت، لا يجد رغبة في شيء، وما أن عبرت السيارة الجسر، حتى أطلق لها السائق العنان باتجاه حلب ومنها إلى دمشق.

***

لبس الحاج مامو أفخر ثيابه.

وتعطّر بعطر ثقيل لا يتعطر به عادة، إلا حين يذهب إلى تكية الشيخ جنيد، ليخفي رائحة المشروب، أو للقاء غرامي، فمامو يحب الخضرة والماء والوجه الحسن، والتلّ الأسود الذي ظلّ شاهداً على حرائق الغزاة، ورماد مرورهم، فالخرز

www.alkottob.com

المدفون والفخار وعظام الخلق، كل ذلك يذكره بأيلولة المصير، وفي لحظة سكر خبيثة وحقيرة وبنت كلب توضأ الحاج بالرماد، ولم يكُ الماء مفقوداً، كل ما في الأمر تكاسَلَ، والخادم غائب في شأن من شؤون الحاج، فأقام الصلاة على القمّة بين النرجيلة والكأس الفارغ، وقد ارتفعت السماء، وخيمت عباءة تحضن الكرسي وسواه.

. عوّاد.

أطلق صيحته، فجاء الخادم يسعى.

. بأمرك.. آغا..

ولقب آغا.. ويعني الكبير . يعرف عواد متى يستعمله؟ فهو يفهم جنون سيّده بالألقاب وتحوّلاتها، كما يفهم حبّه وحاجته للمديح والطاعة.

. كل هذه البلادة صنعها خبز الشعير وقشور البطيخ.

انتبه.. ثم تابع:

. متى تفهم؟!

. أنا لا أفهم آغا.. لا أفهم.

. أعرف.. أعرف.. والله أعرف.

. مطلوب مني شيء.

. لا. لا.

وهذا أول تمرين للآغا مامو في تعامله مع الفلاحين الذين احتار في طريقة السيطرة عليهم، لكي لا يسرقوه أكثر من مرة، كما يسرقه بالتواطؤ معهم أولاده وأحفاده الكثيرون، ليس كرهاً وإنما استجابة إلى نزعة غامضة.

***

جلس رافي صباغ على كرسيه في مكتبة المفروش بفخامة وذوق.

اشتهر بهما والده، كما اشتهر بطربوشه العثماني الأحمر، وثيابه الفاخرة، وقد خاطها له أشهر الخياطين في حلب، مدّد رجليه، حين دخل عليه عامل المحطة، بنرجيلته المفضلة، وصينية القهوة، فطقوسه اليومية في محطة المحروقات يعرفها عمّاله الثلاثة، فهو يحب الدقة في العمل، وعدم هدر الوقت في الثرثرة أو التجول في الساحة، فالزبائن أغلبهم من المزارعين، وهم دائماً على عجل، لذا تراه يكثر من استبدال العمّال حتى استقر على عمّاله الحاليين، لا لأنهم الأفضل، ولكنهم

www.alkottob.com

أهون الشرين فقط، ورغم أنه لا يرتاح إلى حركات المدعو حسن إلاّ أنه تركه، فصلة القربى تربط بين اثنين منهم والثالث صديق لهما.

. مرّ الحاج مامو، ملأ خزان سيارته ومضى إلى زيارة مشروعه.

قال حسن وهو يراقب ملامح سيده، ويسكب له القهوة، ثم تابع:

. طلب أن نبلّغك سلامه. خواجه.

. ...

. ومرّ ذبّاح عبد الشيخ شملان، وقال إن الشيخ مسافر إلى الشام.

. ...

وحين وجد حسن، أن الخواجة غير راغب في الحديث، انصرف، وقد درج العمال والفلاحون على إطلاق لقب "خواجه" على المزارع المسيحي، وآغا على المزارع المسلم، أما الشيخ فتطلق على وجوه البدو غالباً، وبعض الأقوياء من الريف ممن تقف وراءهم عشائر كبيرة وقوية من الغنّامة.

رشف راقي قليلاً من فنجانه، وهو ينفث دخان النرجيلة النظيف، ويتطلع إلى الخلاء الذي يحيط به، لأن المحطة مبنية بعيداً عن البلد، ليسهل اتصالها بالقرى القريبة.

. حسن.. يا حسن.

وجاءه العامل مسرعاً.. فابتدره:

. نارة..

. حاضر خواجة.

وكانت سيارة رافي صباغ الوحيدة في المحطة.

***

لم يكترث الشيخ شملان بن جابر بشيء.

تابع بعينيه القاسيتين منظر الجبل الذي عن يساره، ثم انصرف إلى مراقبة السهول عن يمينه، فحقول القطن الخضراء التي تروى من النهر، كانت شيئاً جديداً على الأهالي، حملت معها الثروة والأحلام، وجاءت بمزارعين وخواجات من كل مكان، والشيخ شملان لا زال يذكر الإنكليزي شارل في "مريبط"، كان رجلاً أحمر ونزقاً.

يثير الحيرة والانتباه والخوف بجثته الضخمة، وكلبه الأسود، وحبه للأسلحة

www.alkottob.com

والصيد، والجولات الليلية في طرقات القرية النائمة بحثاً عن مجهول.

جاء من حلب صحبة تاجر من أصل تركي يدعو عمر أقجة.

قدّمه إلى شيخ العشيرة على أنه نبيل إنكليزي ثري، يريد استثمار أمواله في مشاريع زراعية تفيد الطرفين. كان يتكلم العربية بطلاقة، ويدخن الغليون، فسأله الشيخ منادي الأحمد بفضول ومكر:

. هل يريد السيد العمل في تجارة السوس مثل غيره من الإنكليز في الشركة؟

. ولماذا السوس؟!

ـ لقد احتكرت هذه التجارة شركة السوس الإنكليزية منذ زمن طويل، وقد تآمروا على الألماني باوم المسكين فأفلسوه .. ناس أقوياء وملاعين.

. لا.. لا. تفكيري مختلف تماماً.

قال بثقة وهو ينفث دخان غليونه. وينظر بتأمل. ثم تابع:

. سأزرع القطن.

. القطن؟!

تساءل منادي الأحمد.. فأجابه شارل:

. نعم القطن، فهو ثروة المستقبل، أمّا السوس فلم يعد السلعة المهمة، وهناك أشياء أخرى.

ولم يضيع الرجل وقته، ركب سيارته مع الشيخ وصديقه الحلبي، وجال في أراضي القرية يسأل، ويستفهم، ثم وقف عند المعبر الذي يربط ضفتي الفرات، وسأل عن المتعهد الذي يقوم بالإشراف على عبور الناس والسيارات، فوق طوفه الخشبي الذي يطلق عليه الأهلون "البرك".

. سافر إلى حلب. هناك بعض العمال على البرك.

فهز رأسه هزّة غامضة، وقد بهره النهر، فأحس بأنه الوحيد الذي يستحق الاحترام، وكان ثمة ملاحظة احتفظ بها لنفسه، ولم يسأل عن السبب، فقد كانت القرية البائسة، خالية من مسجد لصلاة الناس، عكس المدن التي مرّ في حلب ودمشق والقاهرة أو بغداد، حيث تملأ سمواتها المآذن والقباب وأصوات الأذان.

وفي طريق العودة، كان الإنكليزي صامتاً، يغرق وسط دخان التبغ المتصاعد من غليونه، وأصابعه بعد تتحرك بقلق.

. ما رأيك؟!

www.alkottob.com

سأل صاحبه الحلبي، فأجاب:

. الأرض جيدة، والماء قريب.

. والمعبر مفيد.

. إلى حدٍ ما.

وتابع الإنكليزي التدخين، منصرفاً عمّا حوله، وثمّة عجاجة صغيرة من الغبار، هبت وراء السيارة، وفي داخله تتفتح رغبات حارّة، وأمان طالما عمل على تحقيقها، وقد اعتبرها أمراً شخصياً يخصّه وحده، وكي يذيب الثلوج، أطلق تنهيدة، أعقبها بسحابة من دخان غليونه.. وتمتم وكأنه لا يعني أحداً:

. هذه أرض الصمت الخالد، فلا عجب أن تلد آلاف الشعراء والأنبياء.

ولم يفهم صاحبه الحلبي العبارة، وهو الذي خبر هؤلاء الأجانب أباً عن جدّ، فكل ما يهمه كتاب التوصية الذي يحمل من صديق في بيروت، ثم الربح، فليراتهم الذهبية كثيرة، ومشاريعهم مجنونة وجريئة، لا يحبون الثرثرة، باطنيون ومحنكون، لولا الشراب والقمار لما استطعت الوصول إلى دواخلهم الضبابية ضباب بلادهم.

وعند فندق بارون نزل شارل، وهو يودّع صاحبه قائلاً:

. اليوم راحة، نلتقي غداً.

وعبر إلى الداخل بقامته المنتصبة، وأناقته الأوربية اللافتة للنظر، تناول مفتاح الغرفة، ثم صعد الدرج، وهناك في الداخل أغلق الباب بإحكام وحرص، وبعد حمّام دافئ استلقى على فراشه، مستسلماً لاسترخاء ناعم ولذيذ، لم يعرفه منذ زمن بعيد، وكان بوده لو يذهب إلى حمّام السوق، ليمارس طقوساً جرّبها في القاهرة وبغداد والشام، حيث المقاصير الخاصة والبخار المتصاعد، والبلاط الدافئ، عالم من رغوة الصابون وأصابع المدلّك والأجران الحجرية والشاي المعتق والنراجيل في الاستراحة.

. يا لها دنيا من البلاهة والحكمة!!

تمتم.. ولأن حلب مدينة السهر والملاهي الليلية لم يجد بأساً في قضاء سهرة صغيرة، تعوّضه عن التعب والعناء، فانزوى في ملهى، يتمتع بالشراب ومراقبة الوجوه، وقد انغمس سريعاً في المشهد، الغناء والرقص الشرقي، وانفعال الناس غير المعقول في الجوّ، فتذكر ما حدّثه به صاحبه الحلبي عمر عن حكاية حلب مع الغناء والطرب، فقال:

. حين اعتلى أحد سلاطين بني عثمان العرش . ولا أذكر اسمه . كان ورعاً،

www.alkottob.com

تقياً، سمع عن الفسق والفجور وتسلط الجواري والغلمان على عقول الناس خاصة في حلب، فأصدر أمراً إلى الوالي بإغلاق أماكن اللهو، ودور تعليم الرقص والموسيقا والغناء للجواري والغلمان، فاجتمع لديه خلق كثير من أصحاب الصنعة، احتار ما يصنع بهم، حتى قيل إن رجاله أحضروا من بيت التاجر اليهودي عزرا حدّاد أربعة آلاف جارية وغلام، أتمّوا تعليمهم، وتخرّجوا عالمين حاذقين بالصنعة، وكان أمر السلطان له كلمة واحدة: تصرف، لذا جمع وجوه الانكشارية ومفتي البلد، وأصحاب الطرق الصوفية، وكبار التجار، وبعد المداولة قرروا توزيعهم على بيوت المدينة، علهم يصلحون، فتحولت حلب إلى كباريه كبير لا تنام حتى الصباح، وكانت أجمل أصوات الغلمان من حصّة الزوايا الصوفية، فشاع السماع والغناء، فاختلط الصلاح منذ ذلك اليوم بالفساد.

وآخر الليل عاد شارل إلى فندقه منتشياً سعيداً.

***

وبعد ترتيب أموره المالية.

انطلق شارل ماكلين من حلب برفقة صديقه عمر أقجة، وقد اصطحب معه عمالاً ماهرين في البناء، فبنوا له دارة لطيفة قريبة من النهر، تطلّ على القرية، ثم اشترى قطعة من الأرض بنى عليها الطاحون، وما بقي منها زرعه بالقطن، بعد أن نصب محرّكاً حديثاً يعمل على المحروقات، لإرواء الأرض، حين دار هزّ القرية النائمة.

وعاماً عبد عام كان الإنكليزي يشتري أو يصادر أراضي جديدة يضيفها إلى ملكياته، ولم يكن يشبع، يقرض المُلاّك الصغار بسخاء مقابل رهن سندات التمليك لديه، وهو يدرك أنهم غير قادرين على الوفاء، فدودة القطن كفيلة بذلك، وكانت نساء القرية رهن إشارة الست زوجته، وقد مهّد لها طريقاً سمّاه الأهالي "درب الست" لا يسير عليه أحد غيرها.

وكان إذا سكر تحوّل إلى عربيد، وقد نقل الشراب والقمار إلى القرية، ولم يصمد في وجهه سوى الشيخ شملان بن جابر، فقد لعبا معاً ذات يوم عند القره قولي، فلما حاول السخرية والتطاول على الشيخ، كان خنجر ذبّاح على عنقه، فتحوّل وجهه الأحمر إلى صفرة شاحبة، ولم يجرؤ على النطق، وبإشارة من الشيخ، أطلقه ذبّاح، فظلّ صامتاً طوال اللعب ومنذ ذلك اليوم توطدت أواصر الصداقة بين الاثنين حتى قتل الإنكليزي على يد أنيس سلطان رئيس مخفر مريبط في نزال ما زال الناس يذكرونه إلى يومنا، فتخلص الأهالي من شروره.

www.alkottob.com

. شارل ماكلين.. أكنت أفاقاً صعلوكاً أم فارساً نبيلاً؟!

ردّد الشيخ شملان والسيارة تدخل حلب، ففكر بزيارة بيت غنيمة أصدقاء الوالد أولاً ثم متابعة الطريق.

***

. لماذا أنت مثلوم كسكين استغنى عنه اللحام؟!

سأل سعيد النهري نفسه، وهو يغلق مخزنه آخر النهار، ويتجه في طريقه إلى البيت، وقد شوّلت الشمس للغروب، وخرجت الخفافيش من أوكارها، خفافيش مرحة لعينة ملأت وجه السماء الكابي، ومن بعيد لاح له مطعم حسين الرميلاوي، وقد وضع مذياعه الضخم على طاولة، وإلى جانبه أقراص اللحم بعجين الحارّة، المغطاة في صينية نحاسية كبيرة على طاولة أخرى، حيث اللبن الرائب المثلج والبصل الأخضر والفليفلة.

كان حسين الرميلاوي يجلس متربعاً على كرسي ضخم من القش والخشب، يدخن نرجيلته، ويستمع كعادته إلى إذاعة تركيا، فالإذاعات العربية لا تعنيه، ومشاكل العرب تخصّ العرب وحدهم، وهو التركي أباً عن جد، وبين لحظة وأخرى، يتناول خلسة كاس العرق من تحت الطاولة، ثم يعيدها بعد أن يرشف منها رشفة خفيفة، ويعود إلى التأمل، فالعامل عنده موكّل بتلبية حاجات الزبائن واستلام الحساب منهم.

وعند نهاية السوق، هجم عليه "أبو علي" بائع أقراص المشبّك الجوّال، انحنى على يده، يريد تقبيلها، فنهره:

. استغفر الله يا رجل، ماذا جرى لك؟

. يا حاج.. دخيلك.. امرأتي.

. ماذا جرى لامرأتك؟!

. أخذوها.. أخذها مني أولاد الكلب.

. ومن أخذها؟

. بيت أهلها.

. الصبر.. الصبر يا مؤمن..

. ومن أين لي الصبر يا عمي؟!

ولذّ له سماع كلمة "عمي" التي لا ينادي بها إلا وجهاء العشائر، فانتفخ

www.alkottob.com

كالديك العشاري، وقال:

. ليس للمرأة المتزوجة إلا بيتها وزوجها.

. يا عمّي حماتي قويّة وبنت حرام. تريد طلاقها مني، وأنت رجل تعرف الله.

. ورجل البيت؟! أبوها ما رأيه.

. أبوها يا عمي رجل مسكين على باب الله، كلمة تأخذه وكلمة ترجعه.

. سأسعى جهدي يا ابني..

. يا عمي صارت روحي الآن بين يديك، أنا بلا فطوم أفطس مثل الإكديش، وفطوم حلوة وصغيرة، مثل البيضة المقشّرة ومغطسة بالعسل، والحلاوة تجيب الذبّان، وحماتي معبودها القرش.

. راجعني بعد أسبوع.

. أسبوع يا عمي.. أسبوع؟

. قلنا الصبر طيّب.

. أمري إلى الله.

ومضى يحجل منفوخاً، تفوح منه رائحة الزيت والدبق، ولا يدري لماذا تذكر الإكديش؟!

فهزّ رأسه ضاحكاً وقال:

. فعلاً إكديش.. ولكن ماذا عن فطوم؟!

وتذكر حديثه عن البيض المقشّر والعسل، ثم مضى في طريقه صاعداً إلى زوجته الديرية وقد استعد للنقار والمشاكسة.

. والله أصبحت "عارفة" يقصدك ذوو الحاجات في البلد يا نهري.

قال صوت نائم في داخله، فشجاه وأفسد عليه لحظة المتعة الخاصة هذه التي لا تعدلها كل متع الدنيا من مال وجنس وبنين، فأسرع في سيره وكأنه مطارد.

***

مثل هرّة انسلت فريدة المسلاتي من المنزل.

وتوجهت إلى بيت "فلّة" الحفّافة، وقد أسدلت على جسدها عباءة سوداء من الحَبَر الثمين، شأن نساء الوجهاء في البلد، وظلّت سائرة في سبيلها، والشوارع والطرقات بدأت تخلو من المارّة، فالناس هنا ينامون باكراً.

www.alkottob.com

. الحاج عند الديريّة اليوم.

قالت مطمئننة، ثم نقرت على الباب الخشبي، فانفرج عن وجه فلّة الذي أشرق عند رؤية الزائرة الجميلة، فرحبت بها بصوت خافت، وقادتها من يدها إلى غرفة جانبية، ثم أغلقت عليها الباب، طالبة منها الانتظار ريثما تصرف الزائرة الأخرى.

شعرت فريدة بالخوف للوهلة الأولى، ثم جاءت المهابة، فلامت نفسها على تسرّعها، لكنّ عزاءها الوحيد كان في أن ما تطلبه يستحق المغامرة، فاستراحت إلى هذا الخاطر، فجلست وحيدة تستمع إلى حركات وأصوات تردّد في الحوش بحذر.

ـ أهلاً وسهلاً... انتظرت حتى ظننت أنك لن تأتي، الحمد لله جئت وحدك بدون خرما بومة الخراب هذه.

. امرأة مسكينة.

. ما علينا.. خلّينا في الشغل.

. لن أستطيع البقاء طويلاً... تعرفين الطريق..

. اطمئني سأوصلك أنا...

وبدأت فلّة مع الزائرة حديثاً هامساً، فتضرّج وجهها بالحمرة، ورمشت أهدابها الطويلة، وهي تستمع.. وقد سألتها بلهفة:

. ومن أين تعلّمت كل هذا؟

. من النَوَر.. كانوا جيراننا فترة، فأحبتني عجوز منهم، وعلمتني سرَّ الصنعة، بعد أن أخذت علي عهداً بكتمانه إلاَّ عن المحتاجات من أمثالك.

. وليس فيه أي ضرر؟!

. أبداً.

. وإذا رآه الحاج.

. أنت على نياتك.. قولي له أليس جميلاً؟! لقد صنعته من أجلك.

وقامت فلّة إلى خزانة صغيرة في الحائط، فتحتها بمفتاح خاص، وبدأت تنتقي من الرفوف ما يلزمها، من أبر وشذر أزرق وسواه.

. ما زلت في مكانك؟!

قالت بصوت أقرب إلى اللوم، فانتصبت فريدة مثل مهرة في مكانها..

www.alkottob.com

وأجابت:

. ما المطلوب مني؟

. تعرّي.

وشرعت فريدة، تتخفّف من ثيابها قطعة قطعة بيدين مرتجفتين، وصهيل مكتوم يحمحم من كل نتوء في الجسد، حتى لم يعد هناك ما يستره.

. استلقي.

أمرت فلّة وقد أحست بصعقة الجمال، وهي العارفة الخبيرة بأسرار الجسد وتضاريسه، ومواطن الإثارة فيهن فاستيقظ فيها حنين العشق القديم.

أغمضت الشابّة عينيها، وأصابع فلّة المدرّبة ترتجف وهي تلامس اللحم الدافئ، وتتوقف عند المنطقة اللدنة من البطن، تحت السرّة، تحدد المكان والشكل الذي سترسمه بالشذر الأزرق والدم والإبرة. هنا ستنقش "الزُّهرة" وتابعت الأصابع ترتجف.

***

جالت خرما في الغرفة مثل لبوة جريح.

وهي تلعن الأحياء والأموات، فما تعرضت له بالأمس، ما زال يحزّ في نفسها، ويضرب على أعصابها، خرما التي كانت لا ترثي إلا الشيوخ والكبار، تنحطّ إلى هذا الدرك من الخلق؟! على كل حال، ثأرت لنفسها، والحادثة لن تنساها أبداً، إنها تمرّ أمامها الآن كشريط سينمائي.

كانت في البيت وحدها في تلك الساعة، حين حضر إليها ثلاثة رجال، لا تبدو عليهم سيماء المهابة أو الوجاهة، وهي المدققة في مثل هذه الأحوال، وطلبوها "للمعادة"، تردّدت في البداية، لكنّ ظروفها أجبرتها، فوافقت على مضض، وصدق حدسها، حين رأت البيت والوجوه، وسألت . كعادتها . عن الميت: عمله وأخلاقه، فتردّدوا ثم أملوا عليها معلومات كاذبة، وانصرفوا لتستعدّ، فاختلف إليها أحد الخبثاء سرّاً، وحدثها عن سيرة المرحوم الذي كان حمّالاً في البداية، ثم مات قوّاداً في "كرخانة" حلب، وهو بخيل رغم كثرة ماله، ووسط دهشة الحضور، بدأت خرما رثاءها وحولها قريبات المرحوم.

مطري يا دنيا كباب

مات جاووش الكَحاب

www.alkottob.com

وسرعان ما تدارك الأهل الأمر، فجرّوها من وسط المعادة، وطردوها من غير أن يدفعوا لها قرشاً واحداً، وهم يسبّون ويشتمون أجدادها.

وبدون وعي أمسكت بالدفّ، تردّد على نقراته، ما قالته يوماً في رثاء الشيخ تركي حين قتل في إحدى غزواته، فهز مقتله البلاد من الشام إلى آخر بيت شعر على حدود تركيا، فاجتمعت وجوه العشائر للعزاء.

في ذلك اليوم وضعت خرما قدراً من قدور النحاس السوداء مقلوباً، ووقفت بدفها، وحولها تدور نساء الحي ممزّقات الثياب، والوجوه، مصبوغات الأسنان بالأزرق، ومعفرات الشعور بالرماد والتراب يردّدن معها بأصوات مثقلة بالحزن والبكاء.

وقد بدأت خرما قولها:

إحنا يا جناب الأولينا إحنا الأولينا والتالينا

إحنا كطٍّ ما نشرب مصفى إلا ع الغريف معلمينا

إحنا كطٍّ ما ناكل محمر إلا ع الفطير معلمينا

وكانت وجوه الرجال في المضافة تتلون، وتستمع إلى ذلك العويل، يتدفق سيلاً من الرؤى والصور والدم. وتابعت وأصوات النساء تردّد بعدها:

يا عبد شدْ له ع الركاصة محرز ومثكلها الدرع والطاسة

براس كوكب علكنا النار فروخ الصكر لسّاها زغار

ومثل سيل اندفعت بعد تلك المقدمات، سريعة قاسية، ونقرات الدفّ تحفر عميقاً في الوجوه والنفوس:

عزّوا الخيل عزّوها حليب بطاس واسكوها

عزّوا الخيل عزّوها حليب النوك واسكوها

حِسّوا الخيل حسّوها حليب النوك واسكوها

وصهلت الخيل، تحولت الوجوه إلى أقنعة حجرية من الفخار، وصوت النساء يعلو مع نقرات الدفّ المجنونة:

عنّوا الخيل عنّوها حليب النوك واسكوها

www.alkottob.com

حثـــــوا الخيـــــل حثوهـــــا   حليـــب بطـــاس واســـكوها

***

ســيوف ألمـــا حمـــت تركـــي   مناجـــل ســـوس ســـووها

عـــــزوا الخيـــل عزوهـــا   حليـــب بطـــاس واســـكوها

وتابعت خرما بقوة، والنساء يردّدن:

رمـــاح ألمـــا حمـــت تركـــي   جـــوّا الجـــدر وزوهـــا

عـــزّوا الخيـــل عزوهـــا   حليـــب بطـــاس واســـكوها

***

عبيـــد المـــا حمـــت تركـــي   علـــى الجـــلاب جلبوهـــا

عـــزوا الخيـــل عزّوهـــا   حليـــب بطـــاس واســـكوها

ولأنها تعرف كيف تثير الحزن، وتشحن النفوس، أطلقت خرما في تلك اللحظة آخر وأقوى ما لديها..

رجـــال المـــا حمـــت تركـــي   مـــع النســـوان جعـــدوها

عـــزّوا الخيـــل عزّوهـــا   حليـــب بطـــاس واســـكوها

وهنا هبّ الرجال من مكانهم، فقلبت قدور الطعام، ودقت أبواق النفير، وأغلق باب العزاء حتى ظفر القوم بثأر تركي.

مرَّ كل ذلك في بال خرما، فاندفعت تردّد أبيات مرثيتها بصوت خافت وعميق وحزين والوقت يدبّ بطيئاً.

***

حين لاحت دمشق من بعيد

تنفس الشيخ شملان بن جابر الصعداء، وقد استعد لأمور كثيرة، من مشاورات ولقاءات مصيرية، لكنه بداية لا بدّ أن يمر على حلاقه الخاص، ليقص شعره وأظافره كالعادة، كلما زار دمشق، ثم يذهب بعد ذلك إلى الحمّام، حيث الماء الحارّ والبخار ورغوة الصابون الغار والاسترخاء اللذيذ، فتذكر صباه في لمحة

www.alkottob.com

سريعة حين كان يغسل شعره ببول الناقة مثل كل البدو.

***

عند منتصف الليل رن جرس الباب طويلاً.

وبإلحاح شديد، وتتابع الرنين قاسياً أصمَّ، يحطم الهدوء البلّوري، يحيل صحن الليل إلى شظايا من الضجيج المعدني البارد، عوى الكلب الأسود الضخم، واستيقظت العصافير في أعشاشها مستريبة، وتحركت الأشجار العالية بجلال واسترسال غامض، ومدّ الدكتور سمير مهنا رأسه الأشيب من فتحة الباب، فأنعشته برودة الليل وهدأت من انزعاجه، كما آنسه صوت كلبه الحارس، فتقدم تحت ضوء القمر نحو الباب الخارجي بمنامته كأنه روح ضالة من أرواح الليل، إنه يعرف زوار منتصف الليل، هؤلاء القادمون من القرى والأرياف دائماً لهم مشاكلهم الليلية الخاصة التي تفسدها إشراقة ضوء مهما كان ضئيله، وقد اعتاد زيارتهم هذه التي بنت ثروته، وأضافت أصفاراً جديدة إليها، فما عادت تثير عصبه كما في البدايات، صاح من وراء الباب، وقد لطأ إلى جانبه كلبه تحسباً لأي طارئ.

. من هناك؟!

. افتح يا حكيم.

جاءه الصوت أجش عميقاً، تشرب بشموس الهاجرة، وسموم البراري، فاكتسب وقعاً خاصاً في الأذن، وفتح طاقة صغيرة في الباب صممها لمثل هذه الطوارئ نظر منها، فرأى في ضوء القمر ثلاثة أشباح لمرأتين جالستين في عربة جرّ خشبية، شدت إلى حصان قوي، وقد تلفعتا بالسواد، ونكستا رأسيهما بقنوت صارم وحزين، ورجل كهل يقف أمام الباب، وحين اطمأن فتح لهم فطالعه وجه الرجل بأخاديده القاسية وشاربه الكث، ونظرته الواثقة.

. أما كان باستطاعتكم الانتظار حتى الصباح.؟

. الليل ستار يا حكيم.

قال بصوت أشبه بالهمس، ثم أكمل:

. والله يستر على الذي يستر.

. من معك، هل هي زوجتك.

السؤال المعتاد، الذي يحدّد على ضوئه الخدمة المطلوبة.. فردّ:

www.alkottob.com

. لا.

. ابنتك؟!

. لا.

. إذن قريبتك؟!

. تقريباً، جارة وابنة صديق قديم، استرها، الله يستر حريمك، فهي يتيمة وليس لها غير عون ربك.

. اسمع يا هذا، تأتي وتزعجني في أنصاف الليالي، وبعد ذلك تقول لي يتيمة وليس لها غير ربك، هذه عيادة طبية خاصة عليها ضرائب وأجور وعيشة بشر، وليست تكية أو سبيلاً.

. طوّل بالك علينا يا حكيم، لا تفهمني خطأ، ما هو المطلوب؟

. بالعربي الفصيح، الأجرة.

. الأجرة؟!

. نعم من يدفع الأجرة.

. رقبتي سدادة من الفرنك إلى الألف

. أدخلها.

. يا ساتر يا رب.

وأخذت حركة الأشباح إيقاعاً إيمائياً جديداً، نزلت المرأتان الناحلتان ولولا انتفاخ بطن الصغرى الذي دارته بعباءتها السوداء الواسعة، لما شعرت بأكثر من أنهما أختان قادمتان من الريف لزيارة أقارب بعيدين، وقد أخذت خطواتها تتلكأ تحت صف أشجار السرو وصلابة البلاط اللامع، وعيون الكلب الواسعة البلهاء، تطارد شبحها، بينما غرقت نظراتها تحت أهداب مسبلة كثيفة، تداري عار اللحظة الحاضرة، وتزدحم في الرأس حورارات ونصائح لم تستفد منها شيئاً، ولم تمنع حدوث المقدر:

. هدلة.

. نعم.

. تأخرت اليوم كثيراً عند البير.

. كنت مع البنات.

www.alkottob.com

. أنت غير البنات.

. ولم؟

ـ لأنـك أحلاهـن وأضـعفهن لا أب يـدفع عنـك الأذى، ولا عـم أو أبنـاء عـم يردّون عنك طمع الطامعين وأولاد الحرام كثيرون.

***

. هدلة.

. قولي يا ضحوك.

. ما عدنا نراك كثيراً عند البير.

. شغل البيت كثير وأمي مريضة.

. العمر يخلص والشغل ما يخلص.

***

. هدلة.

. نعم.

. أبعدي عن ضحوك.

. ضحوك بنت مثلها مثلي ما راح تأكلني أو تشربني.

. يا بنيتي المرض ما يجي من الذبان ولكن من الوسخ الذي ينقله الذبان.

. ولكن..

. قللي الهرج واسمعيني.

***

. هدلة.

. ها، ضحوك

. لاحظت دحام؟

. ابن الشيخ؟!

ـ هو بنفسه، البارحة كان يريد يأكلك بعيونه عند البير، وهو على فرسه الأخدلية، وعينيه عليك طول الوقت.. وقال عنك...

. عني أنا؟!

www.alkottob.com

ـ نعم أنت، قال كل عين منك تساوي قطيعاً، والجديلة بمال وحلال جيس وشمّر.

. ضحوك؟

. هدلة إذا كان هو شيخاً بماله فأنت شيخة بجمالك.

. ضحوك سولفي غير هذا الكلام.

***

. هدلة.

. ها، دحام.

. أنت هديل روحي.

. وأنت عذاب قلبي يا دحام.

. أنا؟!

. أنت.

وليش.

. خايفة يا دحام، خايفة.

***

بياض وسواد، ليل ونهار، عجاجة ونوح ودم، وصياح في النزل:

. الأخدلية قتلت خيالها.

. دحام مات.

بياض وسواد، دمع وحسرة، وهمسات في أذن العجوز، مسيار إلى الجار سبهان، مشاورات انتهت إلى قبول الشيخ دفع أجور العملية وإن لم يصدق، فلتكن زكاة عن روح القتيل ولكن شرط ألا ترجع إلى العرب، الأرض واسعة.

***

. هدلة.

. ها، دحام؟!

. أنت هديل روحي.

. فرسك يا خيّال قلبي وخيّال الإخدلية، القاتلة قتلها أبوك في الوادي حتى لا يركبها أحد بعدك ولا تقع عينه عليها، والثانية هدلة روحك نفاها من العرب

www.alkottob.com

وأرسلها إلى المسلخ هذا، مع عمك سبهان.

وأحست هدلة بنفسها سعفة من النخل تظلّ رأسها، تدثّ مطراً خفيفاً، مزنة من دموع المسعدة، وترفرف فوق الشجر، رخمة عادت إلى عشها قبل الغروب، فأسرعت في خطوها، وكأن المسافة مائة عام.

ومن نافذة الغرفة العلوية، كانت زهيرة ترقب المشهد معذبة لا تقاوم، وهي تضغط نهديها على الخشب الجاف، وتمتلئ برائحة العشب والنارنج والبرتقال والليمون، وفروع "الأكي دنيا" بأوراقها الخضر الغامقة، وجلالها الهادئ، راقبت والدها يقود موكب الأشباح إلى قبوه السري، وأمها تخرج إلى الساحة تلاً من البياض واللحم وقد تهيأ وجهها الجبلي الذي عرف جمالاً أدار رؤوس كل من في البلد لقناع الممرضة القديم، قناع فقد مشاعره الإنسانية، وكل ما بقي فيه هو فرحة الصياد بوقوع الطريدة في شباكه.

ـ كل من هذا البيت يرهن جزءاً منه للشيطان، أمك قلبها، وأبوك ضميره الإنساني، وأنت؟! صفقتك ستكون شاملة، كل شيء أو لا شيء. السعيد الوحيد أخوك منهل في بيروت فمن هناك إلى أمريكا، وبعد التخرج إلى أستراليا، هكذا خططت له العجوز، وأنت دلفين يلزمك بحر واسع ونظيف وأشباه يشبهونك.

هجست وهي تتابع قامة الرجل الريفي الكهل، بخطواته الثقيلة على البلاط، يعبر إلى الشارع ثم صوت عربته الخشب، يعلو في هدوء الليل مبتعداً إلى مركز البلد، يودع عربته في أحد الخانات بناء على أوامر الدكتور، الذي عرف كيف يتخذ الاحتياطات اللازمة لكل طارئ حتى في اختيار موقع بيته البعيد عن أقرب منزل مسافة طلقة بندقية، وليس حوله سوى محطة المحروقات العائدة إلى رافي صباغ.

. بدأت الطقوس يا زهيرة.

هيئي أجنحتك للطيران مثل فراشة ملونة في جنة الإثم الصحراوية الصغيرة هذه، أيقظي الأسماك في الأحواض، وعصافير الدوري بمناقيرها الصفراء، وقطتك الجميلة، وعرائش الورد، فأنت الوحيدة في العالم التي رأت دموعاً حقيقية لذئب حقيقي، كان الشتاء قاسياً يومذاك، وتساقط الثلج لم ينقطع، جاع البشر وهامت الوحوش، والثلج يتساقط، سمعت قرعاً على النافذة، تناومت لكن القرع لم ينقطع، وحين فتحت عينيك، كانت الدنيا بيضاء مغسولة مثل عروس، والقمر ساطعاً وسط العراء البلّوري، ومن وراء الزجاج رأيت أنفاسه تذيب غبش الثلج، طالعك بوزه، ثم عيناه ووجهه الطويل المثلث، عيناه حزينتان أرادتا أن تقولا شيئاً، فلم تجدا

www.alkottob.com

سوى دمعة كبيرة تدحرجت على الوجنة، وربط لسانك الخوف، ولو لم يتكرر المشهد في الليلة التالية، لما صدقت، فصرخت رعباً، فانسحب وكأن عينيه تقولان "لماذا فعلت ذلك؟" وجاء والدك بالكلب، وانقطعت زياراته، لكن عواءه الليلي ظلّ يصلك باستمرار طويلاً وإنسانياً وحزيناً، ثم انقطع في النهاية.

استعدي يا زهيرة.

للأنين الأنثوي اليائس، والأمومة المحرومة، هنا تجدين نفسك مثل قربة مملوءة بالماء الغامض، وعطر البراري، والحنين الأبدي إلى لحظة مماثلة جرت قبل عشرين عاماً، ومضت مخلفة وراءها عارها.

استعدي فالموت أليف هنا مثل قط منزلي.

ترينه أحياناً عجوزاً أو حكيماً تحت شجرة الكباد يلهو مع العصافير، جاء باكراً ينتظر وليمة جديدة، وها أنت تكادين تلمسين الآن طرف عباءته الرمادية، وعقاله المرعز وأنفاسه الثقيلة.

. عودي إلى فراشك يا زهيرة.

. أيها العجوز الماكر.

. عودي، وانشغلي بقراءتك الفرنسية، فلقد رأيت ما لم يره أحد.

. ماذا؟!

وراقبت أضواء محطة المحروقات المجاورة، حيث رافي صباغ والقلب معلق بوهم جميل، وعادت إلى الداخل، واستقيظ العواء القديم.

***

www.alkottob.com

الكتاب الرابع
نجمة في الغبار

www.alkottob.com

www.alkottob.com

لِمَ تلح عليه صورة الرفاعي الجد؟

لا يعرف الدكتور عبد الله سبباً لذلك، فها هو اليوم، في هذه اللحظة يراه تحت ضوء القمر، يحمل قرآنه الكريم، ونوره ولحيته ذلك النور الذي لا يخبو لأنه نور العترة من آل البيت أولاد فاطمة الزهراء، وهو يسير على الماء كأحد آلهة بين النهرين، يجمع بين البرق والرمل، بين الماء واللحم والدم، ووجهه المستدير كقرص من الجبن الطازج قد تشرّب بألوان شقائق النعمان فتفجر بالعافية.

. يا عبد الله.

صوته العميق الأجشّ، يصل سمعه مغسولاً بالماء والنعناع ونرجس البراري المتوحشة.

. يا عبد الله.

صوت رجل من صلصال، رجل من لغة وإيمان، رجل عاش عابداً مترنماً بالبُردَة، وكل ما نهج نهجها، ها هو يلمّ الأصداف والكلمات والشبابيط ويرفع يداً ليست علماً وليست من دم أو دعاء يرمم ما تصدّع من روح الناس في بلد شارك في صنعه وخلقه، الرفاعي الكبير الذي ما زال الناس يقسمون بتربته ويتبركون به في الأعياد والجمع:

. ماذا تريد يا جدي؟

ورآه يقوده من يده طفلاً، إلى المدرسة الرسمية، بعد أن ختم القرآن وتوقف علم الشيخ العاشق، عاشق بنت السلطان، والعشق لغة ليست طارئة على الأسرة، فالرفاعي الأب عرفها في المشاريع الواقعية من التعهد للسفن إلى مشاريع الزراعة، إلى النسوة المبجلات، إلى الاستقلال في الاقتصاد، قاده بثياب وعمامة بيضاء من القماش الفاخر إلى الأفندي المعلم، ووقف أمامه خاشعاً وذليلاً، وللمرة الثانية يرى جده الأنوف ذليلاً، الأولى في الصلاة، والثانية هذه، ثم خاطبه باضطراب وتلعثم بصيغة الجمع:

www.alkottob.com

ـ يا أستاذنا الكريم، اللحم لكم، والعظم لنا، همنا أن يكون شيئاً على أيديكم غداً.

وهزّ الأفندي رأسه بفخار، وزها قائلاً:

. استغفر الله يا شيخي.

. أنا أعطيك فلذة كبدي.

. في الحفظ والصون.

. أشكركم.

ومضى خفيفاً كأنما يطأ رملاً صابراً، كانا رجلاً لرجل، يعرفان أقدار بعضهما، كما يعرف الفرات قدر الصياد العارف، وكما يعرف الشيح والعرعر قدر المطر وبشارة البرق، وكما يعرف التراب قدر أصابع الأمواه.

. ما اسمك؟

سأله الأفندي المعلم، فردّ:

. عبد الله.

. أنعم وأكرم.

قالها بطريقة ساحرة ودودة قربته منه، وألغت حواجز كثيرة،

ثم أمره بالجلوس في مكان حدده إلى جانب تلميذ من سنه، تبدو عليه النظافة والصحة، وهذا امتياز لم يقدّر قيمته إلاَّ فيما بعد، حين رأى تلك المخلوقات الصغيرة تخرج من مكامنها في الرؤوس وتدبّ على الرقاب، إنه القمل، يأتي مع كثر ممن ألفوه، وعاشروه في بيوتهم وفي ثيابهم، كصديق لا بدّ منه.

. والآن، اسمعوني..

وأشار بيد رشيقة إلى مساحة سوداء مغطاة برسوم وحروف ملونة، ولم يكن يحمل عصا، أو يهدد بفلقة، ووجهه الحليق يشرق بفرح، وبدأ يتكلم، ومع كل كلمة يرسم بيتاً أو نهراً، وطوال الدرس لم يبصق، أو يمد يده إلى صرّة قماشية كشيخ الكتّاب يخرج منها تبغاً وورقاً ثم يبدأ في التدخين وهو يتكئ على الدكّة بثيابه ولحيته المهيبة وحذائه الذي يقعي إلى جانب قدمين حافيتين شققهما ماء الوضوء البارد في أيام الشتاء. تداخل ساحر سرى إلى الأعماق فتح نوافذ صغيرة على مطر ورمل وحصى وبروق وأعصاب، فأنس مع مرور الأيام إلى هذا العالم،

www.alkottob.com

وبدت الحياة في ثياب جديدة، يعرف كيف يلونها أستاذه الشاب، واتسعت الهوّة بينه وبين عوالم أبيه، مع اكتشافه الأول لسحر تلك الأناشيد الشعرية، التي ظلَّ يرددها ويترنم بها حتى خارج الدوام، فلم تعد الطاحونة تغريه، ولا سفن العبور، هجر حياة العجاج والصخب، لاذ في ظل الكلام، أغرته حكايات الأستاذ، وفك سرّ الأحرف، ثم الجمل ومعانيها، وحين قرأ في القرآن اكتشف فيه شيئاً لم يكن يدركه من قبل، شيئاً من عظمة وإجلال، فامتلأ بالإنساني بعد اللاهوتي.

. عبد الله.

. نعم يا جدي.

. هل أعجبتك المدرسة؟

. كثيراً يا جدي.

. إذن لا خوف عليك.

. والصلاة؟!

. في مواعيدها.

. بارك الله فيك.

ولم يفهم سرّ هذا الحوار إلاّ بعد زمن طويل، فالرفاعي الكبير، رجل التحديات الفذّ، يظل عقلاً صافياً مثل ماء النبع، ومفتوحاً على احتمالات الغد، بدأ حياته لاهياً وراء بيوض القطا وأوكار الحمام البري والثعالب، وجحور اليرابيع الفتية والقنافذ، وهو أصغر عشرة أخوة من أمهات عدّة، فتعدد الزوجات أمر معتاد في الأسرة، كان هو الاستثناء فيه، ويوم شبّ تعلق بالقمار، قمار بدائي يعتمد على تلك القطع العظمية المأخوذة من الذبائح الحيوانية يسمونها "الكعاب"، ولمهارته في اللعب، كان يحمل دائماً مجموعة من الكعاب في كيس قماشية، حتى غلب عليه لقب لازمه زمناً "أبو كعب"، وحارت فيه الأسرة، فالعادة عندهم التعلّق بالنسوان والخيل، أما القمار فشيء جديد ما عرفوه:

. السرّ عند الأخوال.

قال أحد الأخوة، فردّ آخر:

. لم نسمع عن أخواله شيئاً من ذلك.

. وما يدرينا فأمه غريبة؟!

وسكت الجميع فانبرى أكثرهم حكمة:

www.alkottob.com

. دعونا من الأعمام والأخوال وفكروا في الحل.

. الحل؟!

قال الأخ الأكبر، ثم ضحك ساخراً وتابع:

. الحل عند أمونة، تربية النسوان لا ينفع فيها طب ولا خبّ.

وأمونه كانت أم الرفاعي الكبير، ربته بعد موت أبيه وكانت صغرى نسائه، وأكثرهن حظوة لديه، وقد وصل إلى سمعها المرهف ما دار من حوار وكان أكثر ما حزَّ في نفسها قول ابن زوجها وهو ينفض عباءته الثمينة ويخرج:

. الذئب إذا ربّته كلبة يطلع كلباً.

وفي الليل أخبرته الحديث الذي دار، وللمرة الأولى يشعر الرفاعي بأنه يغطس في ماء ثلجي، يغطس ويغطس وتكاد أذناه تنفجران، ومهما حاول أن يلمس برؤوس أصابعه العارية أرضاً لا يجد غير وحل وماء.

. هكذا إذن.

جملة يتيمة أطلقها، ثم دخل غرفته ولم يخرج منها إلاّ بعد أسبوع.

سبعة أيام مرّت، سبعة أحصنة حمر وسود وخضر وبيض ودهم وزرق وصفر مرّت تحت سماء وعصافير، وفتحت الدنيا صدرها من عجاج وهجير وعواصف فرأى في النهاية كما يرى النائم خنجراً يمنياً من الفضة يرتفع وبيد ترفع ثوبه عن عضوه النائم، تمطه ثم تزلف تلك الزيادة اللحمية، وصاح كالطعين "آ...آخ" ثم تلمس ثوبه، فغرفت أصابعه بدم وملح حار، إنه الطهور النبوي صاحت أمه، ثم خرج إلى الناس، أولم وأعلن توبته. ثم انطلق من الجزيرة الفراتية على قدميه يقصد الحجاز للحج إلى بيت الله الحرام.

. يا سبحان الله، من الكعاب إلى الكعبة.

قال الأخوة، ومضى، عاشر الوحدة والبراري، وهام ودليله قلبه إلى مكة، وفي كل مكان كان الله والقرآن معه، والشوق يحدوه، شوق لم يعرفه من قبل، فيه ثقة وهدوء ودأب، ومع الوحدة عرف الله، تجلى له في كل شيء، التلال والسهوب والحصى والطير، ولحظة يفيء إلى ظل شجرة ويقضم رغيفه اليابس مع حسوة من الماء يدرك معنى هذا الكائن العظيم الذي اسمه الإنسان حين يهتدي إلى الحقيقية، فالكون ينطوي مثل كرة في داخله، كل الكون والمحيطات والسموات تبدو ضيقة أمام عبارة من عبارات القرآن بل أمام حرف من حروف "ن.. أو..ق"، تتحول الدنيا إلى جزّة من الصوف الحقير تسعى فيها الخنافس والديدان، وتتصقل

www.alkottob.com

المعاني ووسط هذا العراء الأبدي الولادة الدائمة حميمة وأليفة، يتداخل الراهن بالأبدي، العارض بالجوهري، الجسدي بالروحي، والشكل بضده، ويرفع الرفاعي يديه إلى السماء ووسط الدمع والنشيج ينادي جدّه الحسين الشهيد، فترف القدسية راية من البياض الساطع والنور، وتحلق الحبارى في الفضاء، وتمرّ عانة من الغزلان تبحث عن صنع أو غدير ويألف المكان، يندغم الصوت بالعرعر والشيح:

. يا أبا القاسم، أنا دخيلك، يا جد الحسنين، يا جدي.

ومرّت الأشهر، تسلّخ الجلد والقدمان، وتعفن الجسد، هذا الجسد كافر ولئيم، فليكن طعام القمل والجرب والرمال، المهم أن يظل العقل صاحياً ومتقداً كجمر الرمث، المهم أن يدفع ثمن كل لحظة آثمة، هذا التطهير لا النار والجمر ولا السياط ولا المرض يغسله، بأية لغة أو عبارة يمكن أن يقول الربّ لخاطئ عفوت عنك، يا بن فاطمة بلّغ جدك أننا على العهد ولكننا خطَّاؤون، يا جدنا، دمك السبيل، وما نذرناك للقتل، هي شارة، وأنت تركت لنا شبيهك وتواريت، لم يقل الرفاعي كل ذلك بلسانه إنما دخله مثل ريبة، أو برعم تفاحة، أو ربما دلّ سلماسة تحضن بيض قطاة، والرفاعي تتكب الطرق الموحشة غير المطروقة، كي لا يلتقي ببشر أو سواهم ولم يعط بصره ووجهه لغير كتاب الله، يرشف أحرفه ويراجعها، من علمك الحرف علمك الحياة، هكذا ثمَّن من يومها قيمة الكلمة، وتابع الطرق.

ويوم وصل نبتت له أجنحة حملته وسط الحجيج حتى وصل شباك أبي القاسم فارتجف وهمس:

. اغفر لي وأرجو أن تكون فاعلاً.

ثم لثم الحجر فنسي كل قبل الدنيا.

وعاد الحاجُّ إلى ديارهم.

ولم يعد الرفاعي الكبير، رأى نفسه عارياً، مغسولاً بالضوء والرمل، يولد من جديد في يمينه القرآن، وفي يساره عصا يتكئ عليها، ولم يقرب طوال أيامه هناك غير الماء والخبز الجاف، افترش الأرض، استمع إلى قلبها يحدثه عن الموت والحياة، ويروي له طرفاً من سيرة الرسول ε وأصحابه، فرفع يدين عاريتين إلى الأعلى ونادى "يا جدي.. يا رسول الله" ورأى كما يرى النائم حمامات الحسن والحسين ترفرف بأجنحة من نور وبللور، وترش عطر الغالية والزعتر في السماء، ومن يومها جاور الحرم، مثله مثل المجاورين الآخرين القادمين من مصر والعراق والمغرب الأقصى، رجال جاؤوا يحملون قلوبهم وخطاياهم وأشواقهم إلى الروضة

www.alkottob.com

الطاهرة، رجال أنحفهم الجوع والخوف فباتوا كأشباح وأظلة، رغبوا عن الدنيا، وهجروا البيوت إلى الخلاء اللانهائي، نادتهم الصحراء فلبّوا، وأسرعوا خفافاً من الولد والمال والمتاع، شربوا كما شرب من زمزم، وجاس مرابع النبوة الطاهرة، فامتلأ بعطرها وروحها، واغتسلت نفسه من أدران الوقت والناس والمال والطمع الذي يزيّن الموبقات لذوي النفوس التي لم تحترق بنار القلب المقدسة، نار الله التي تنضج خبز القناعة والمعرفة، وتزرع سر الخميرة في عجين الطين، فيتبرعم الوعي كزهر الخرنوب الأحمر.

. يا شيخ.

رفّ قلبه للكلمة حين ناداه رجل عجوز من المغرب، فتحول إلى سمع ينتظر:

. نعم.

. لا تأخذ نفسك بكل هذه الشدّة، فالخطايا تمحوها كلمة أخفّ من لمس جناح الفراشة، وأنت تجور على حالك، فارفق تنل، وإلا فإن ظلمك نفسك يضيع الأجر.

. ماذا أقول في الحساب وأنا من أنا في الخطأ.

. قل أشهد أن لا إله إلا الله، وأصدق النية فالصدق سفينة النجاة، من عرف الطريق إليها نجا.

. يا جدّي.

ـ جدّي وجدك رسول الله، ونحن في ضيافته، فاترك قلبك يبوح بخطاياه واخرس لسانك العاصي.

. يا ربّ أشهد..

. الشهد في الشهادة.

. ماذا أقول؟!

. كل القول الذي مضى في العصيان؟!

. من ذكر الله ساعة غفر له بقية يومه، ومن عرف الله نسي الشيطان، فلا تلّج وتحتار فتضيع.

. إنها سنوات.

. الزمن عند ربك الصفاء، وسنوات مثلها قادمة، فأنت شاب.

. سدّت الأبواب.

www.alkottob.com

. وفتحت أبواب التوبة.

–عاقرت الخمرة.

–فماذا تقول لمن يعاقرها ولا يرجو التوبة؟

–وقاربت الزنى.

–الله غفور رحيم.

–وقامرت.

–مثلك كثيرون.

–وهجرت الصلاة عمراً طويلاً يا سيدي.

–ومع ذلك لم ينقطع ما بينك وبين ربك، ولولا ذلك ما تداركك برحمته،

–يا ربّ كل ذلك اقترفته، لكنني لم أعقّ والديّ.

–ذلك يكفيك.

–وهذا القلب؟!

–دع قلبك فهو في هذه اللحظة كالإناء المصدع، كلمة لوم تحطمه.

–كأنك تقول..

–أنا لا أقول، فحاذر الكلمات وقم إلى الصلاة، ففي هذه الرحاب الطاهرة ليس أثمن من الصلاة على سيد الخلق والعالمين، جدي وجدك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

–سيدي ومولاي لا تؤاخذني.

–قل يا عبد الله.

–من أنت يا سيدي؟!.

–عبد من عبيد الله أمثالك.

–وهذا العلم؟

–من الإثم.

–وهذه التقوى.

–من الضلالة، فمن لا يعرف المرّ لا يعرف الحلو.

–حيرتني يا مولاي.

www.alkottob.com

–الحيرة طريق المعرفة أو المحبة فلا تجعل الصلاة تفوتنا.

–هيا بنا.

***

ومع مرور الوقت توثقت عرى الصداقة.

بين الرفاعي والشيخ المغربي، وفي كل يوم يرى له إشارة أو كرامة فتزداد نفسه اطمئناناً وإيمانه رسوخاً، وتلتئم جراح القلب المصدّع.

–مولاي كيف أردّ معروفك؟

–يا شيخ محمد، ما أخذته عني أعطه لمن يحتاجه، لغريب تلقاه، هكذا ينتشر المعروف بين الناس ولا يموت، ويعم الحبّ القلوب الضالة فتعرف لذة الإيمان وعظمة الخالق، هكذا تكون أوصلت الأمانة.

–مولاي هذا كثير.

–انس كل ما هو فانٍ أو ماضٍ، الجسد والشهوات والأغلال، واغسل قلبك بالدعاء والصلاة، انس الفضل فلا فضل إلاّ لله، وانس الأسماء فلا بقاء لغير اسم ربك.

–ونعم بالله.

وغرق الشيخ بكاي في دفقة من نور، وغاب، خلع نعليه، وتخفف من لباس الدنيا ومضى زمن كان فيه قاطع طريق، يرهبه كل البلد.

***

وبعد سبع سنوات عاد الرفاعي.

وقد عرّج في طريق عودته على القدس، وكانت عودته مفاجأة، فلقد ظنه معظم الناس غير أمه قد مات، تقدم به العمر، واستوى عوده، وفاح منه عطر خاص من حكمة وأبوة واستعداد لفداء، وشعّ منه نور السماحة والثقة التي لا تعرف الحدود.

–سامحيني يا أمّ.

قال وارتمى عند قدميها، مهيباً جليلاً، لا يحمل معه من هدايا غير قرآن وكسرة خبز يابس.

ويوم أراد العمل اختار الرفاعي الرعي فهو مهنة الأنبياء، اشترى قطيعاً ومضى إلى الخلاء، وليس معه غير قرآنه وعصاه، فاتحدّ بالطير والحجر

www.alkottob.com

والنبات، سمع لغة الأشياء، وعاشر الصفاء والوحدة، رأى فيما يرى النائم شيخه المغربي يمضي خفيفاً وراء التلال، نحيلاً يشع منه النور والكلام، فناداه مرة لكنه لم يردّ، فهجس "أعن قل لي يا مولاي؟" فردّ قلبه بلسان شيخه "نحن مثل ماء النهر، كل موجة تعطي لمن بعدها لتتابع، فاعط لمن هو أمامك، وانس الماضي، ابحث عن المحتاج بعد أن اكتفيت."

وبدأت رحلة الروح وسط بهاء صوفي خالص، وقيل يومها لم يفقد الرفاعي شاة واحدة من أغنامه، بل أقسم كثيرون أن الذئاب كانت ترافق الأغنام وتختلط بها في وحدة وأمان، ومع الأيام بدأت تتوطد مكانة الرفاعي وأهميته كرجل مبارك وعارف بالله.

–جدّك رجل مبارك ومتنور.

قال الأستاذ يوماً لعبد الله.. ثم تابع:

تعلّم منه وأطعه، فأمثاله لا يجود بهم الزمن دوماً.

والرفاعي الكبير لا يعكر صفاء أيامه، سوى تصرفات ابنه الذي جرفه تيار الدنيا الفانية، فتعلق بها وخاواها، لذا صبّ اهتمامه على حفيده.

***

خُلقت أَلوفاً...

كلما تذكر الدكتور عبد الله مطلع هذا البيت للمتنبي شاعره الذي تعشقه دائماً –تصاعد الدم في عروقه، ورفرف قلبه، وحضرته مدن ومساجد وحجارة، وتخبط كفرخ الدّراج بالماء والحصى والطرفاء.

هذه الألفة كالإلهام تقود خطواته الآن، طفلاً شاحباً، وضائعاً في هجير من الضياع والوحشة والبعد الحارق، يوم وقف ينظر إلى الرفاعي الكبير، يهتز كنخلة عجوز، وتدمع عيناه، نعم تدمعان في لحظة وجد وخوف وصوفية لا تملك شجرة المعاني تفسيراً لها.

–سلم على أمك.

قال له أبوه بود لا يعرفه فيه من قبل، هذا الأب المشغول دوماً بزواج أو أرض أو مشروع، وحين انتهى، تقدم من جدّه الواجم الساكت وقد بدت أصابعه ترتجف وهي تحمل حبات سبحته الصفراء، وقف للحظة ثمّ دفن رأسه في الصدر، سمع دقات القلب تختلط بعطر لا يجد له اسماً حتّى يومه هذا.

–إنها رحلة البداية، فكن رجلاً.

www.alkottob.com

همس بذلك بصوت تخنقه الدموع، ثمّ خاطب الأب:

–ماذا تنتظر؟ خذ الولد وامضِ.

ثمّ استدرك وكأنه نسي شيئاً مقدساً:

–لا تنسَ الله يا عبد الله.

–جدي.

خرج صوته أجش مخنوقاً، فردّ:

–الله معك. سلم على جدك حمد.

ومضى الركب الصغير من الأب والابن وخادم شاب، يشق طريقه في ذلك الصبح الشاحب إلى عالم مجهول، عالم كان له أكبر الأثر في خلق هذا التأريخ من الدم والعصب والذاكرة والرحلات والكتب.

–أرض من ذهب وبشر من تراب.

يقول بسخط وهو يرقب مساحات الأرض الجرداء إلاّ من الشجيرات والصرّ، ثمّ ينفث دخانه ويوجه خطابه إلى خادمه الشاب:

–ولْ يا حسين.

–ها، أبا عبد الله.

–لا تنسَ حين نصل مريبط أن تذكرني لنزور الطاحونة الجديدة، فلقد سمعت عنها الهوايل.

–إن شاء الله.

–الله يأخذ روحك. يا عفن.

يقول بنرفزة معروفة لا تفهم منها أين حدود الرضى من حدود الغضب ومع ذلك يظل حسين أقرب رجاله إلى نفسه وأكثرهم جلداً وتفّهماً.

كان الحلبي يسلف الناس المصاري، ويقبض مقابلها الصوف والسمن والخرفان ونقول نصف مصيبة فهو ابن البلد ويفتح خانه للرايح والجاي، لكن المصيبة أن يأتي إنكليزي من آخر الدنيا ليبني طاحونة ومشاريع زراعية وينهب مالنا، ودليله ابن الكلب صاحب الخان الحلبي.

يقول أبو عبد الله بأسى وسخط، ثمّ يتابع نفث دخانه، وعقله يستطلع الأرض والقرى ويقرأ وجوه العابرين، ويبحث عن المشاريع والأعمال وهو يقبل كل شيء إلا وجوه الفرنسيين، كان يمقت المحتلين ويرفض أي شكل من العلاقة معهم.

www.alkottob.com

-ول يا حسين.

-ها، أبا عبد الله.

-ذكّرني قبل أن نترك حلب، لنزور خان ابن الشحنة.

-إن شاء الله.

-الله يأخذك. يا عفن.

وطوال الطريق الطويل كان عبد الله يراقب ما حوله، وهو يردّد شيئاً من القرآن، والخوف يأكله، فهو لم يبتعد طوال عمره أكثر من بضعة كيلو مترات عن قريته وهاهو اليوم يمعن في البعد، وتطول المسافة، يرى جبالاً وأودية خضراء وسهولاً، وتطالعه قرى لا يفهم سبباً لوجودها فهي أشبه بأطلال خربة زرية.

وفي مربيط توقف الركب عند بيت واسع من الطين ألحقت به بعض القباب الجميلة، وهو يضجّ بالكلاب والحمير والناس والأطفال، رحب بهم رجال، وبعد الغداء عرّج الأب في طريقه على الطاحونة، كان بناؤها باذخاً وهديرها يصمّ الآذان وقد التفّ حولها بشر جاؤوا من كل القرى القريبة والبعيدة، يحملون حبوبهم ويدفعون حميرهم لطحن حبوبهم، فازدادوا مقتاً وكراهية لصاحبها، فعاتب منادي الأحمد الذي فرّط بأرض قريته، وترك للإنكليزي أن يفعل بهم ما يشاء، بل يسوقهم كالأغنام أمامه إلى بازار حلب ليبيع ويشتري فيهم، فلم يهتم.

***

ومهما مرّ من السنين.

لن ينسى البناء، ذلك البناء الحجري الأشهب، القائم في الطرف الجنوبي الغربي من حلب، على رابية تشرف على طلول قصر سيف الدولة الحمداني، بناء جميل، تحيط به حدائق غنّاء، وملاعب فسيحة، كما لن ينسى الخطوة الأولى وهو يجوز الباب الحديدي المشبك إلى الممشى الظليل المرصوف بالحجارة ثم إلى الباب الداخلي، حيث يبدأ بهو صغير يتفرّع منه رواقان جانبيان طويلان وينتهي إلى درجتين ملتويتين يقودان إلى الطابق العلوي، صورة مهما مرّ من العقود ستظل مرسومة كالوشم على ذراع بحار ضائع، صوت الطبل المشهور يعلن نهاية حصة، أو دعوة إلى تجمع، تطلقه عصوان في يدي محمد مرجان، رئيس الخدم الأسود، بقامته الرفيعة الطويلة، وملامحه الموروثة الدقيقة التي تشي بعصبية لا تجد لها متنفساً إلا في هذا الصوت، صوت الغابة البعيد، حيث سماء وأرض وبلاد منسية وعيون نسيت الأمن، إنه الصوت الذي يغيب فيه بنشوة

www.alkottob.com

صوفية حارّة، واتحاد معجز.

–هذه مدرستك الجديدة يا عبد الله، فكن رجلاً وبيّض وجهنا.

قال الأب ثمّ تابع بحرص:

–سامحك الله يا أبي، لو تركتني أعلمه صنعة حرّة، أو على الأقل كنت علمته كيف يدير أملاكي؟ عسى أن ترضى عني.

ووقف نحيلاً حائراً بثيابه الجديدة وطربوشه الرسمي:

–سيأتي جدك حمد ليأخذك إلى البيت اليوم. فأعرف الطريق.

–عرفته تقريباً

–سريعاً؟!

–نعم. والحمد لله.

وبعد الإجراءات المعتادة، أصبح عبد الله طالباً في مدرسة السلطاني، التجهيز الأولى، فنزل إلى الباحة، أشجار ومقاعد وطلاب بل قل بحر من الطلاب، فدهمه دوار وخوف فودّ لو يلحق بأبيه لكنه كتم الصرخة.

أجل، لم يكن الدكتور عبد الله قد عرف في قريته كل هذا العدد اللجب من الطلاب أو الناس، اللهم إلاّ في صلاة الجمعة أو العيدين، وهو الذي لم يعرف المبيت خارج بيته لأكثر من أسبوع إذا كان في زيارة لأخواله ومع أمه، لذا استظل سروة متطرفة وبدأ يدقق في الوجوه الصاخبة الضاحكة، والعيون التي تخلو في معظمها من الفضول فحمد الله على ذلك، فذلك ساعده على استرداد روعه، فعصى الخوف والرهبة وتقدم خطوات كطفل تغازل قدماه العاريتان ماء المحيط، ثمّ مضى في الحشد، وتمتم ببعض السور القصار كمن يدخل وجر الضبع، واستعان بها على الجهد الواضح، وللمرة الأولى ترّن كلمات أبيه في أذنيه بدل نصائح جده:

–في المكان الذي لا يعرفك فيه أحد، اترك الناس تسعى إليك ولا تسعَ إلى معرفة أحد، فمكة يأتيها الحاج من كل مكان من الهند والصين والغرب والشرق ولكنها لا تذهب إلى أحد، فهمت يا عبد الله؟!

هكذا فهم أبوه مكة، المحجّ والمركز التجاري وحمّام الغفران، ومع ذلك كانت في داخله نوازع لها قيمتها اليوم في فن الإدارة وتصريف الأمور دون الإخلال مع ذلك بالإنسان.

www.alkottob.com

ومضى اليوم الأول بنجاح.

ثمّ توالت الأيام تحمل رنيناً خافتاً وإيقاعاً غامضاً فتتفتح براعم غامضة مثله لم يدرك مغزاها إلا بعد مرور وقت طويل، فالصباحات الندية التي يغادر فيها بيت أقربائه في جبيلة ثمّ ينحدر في ريف وخضرة حتّى يصل المدرسة خلقت منه الشاعر المرهف فيما بعد، أمّا أساتذته فشيء آخر وأروع.

***

–تصوروا يا أولادي، الأسد، نعم الأسد ملك الغابة وسيدها المطلق، هذا الحيوان بكل قوته وشراسته وسمعته، يرعب الغابة وما فيها من حيوان وشجر وإنسان، حين يزأر ترتج السهول والجبال ويقف الجميع كالمصعوق، ولزأرته دوي معين، نغمة خاصة، وحين يشيخ لا يبدو في شكله، فالأسد أسد، العيون والعفرة والمشية والجبروت، كل ذلك لا يتغير، إنما التغير يبدأ حين يسقط الناب الأول والثاني هنا يختلف الصوت وتكتشف الغابة ضعف ملكها وشيخوخته، فيبدأ الهجوم، من تعتقدون البادئ؟ إنها البعوض، من أصاغر مملكة فيها الفيل والجاموس ووحيد القرن، ثمّ يتوالى بالأكبر حتّى يحكم ملك شاب جديد، يعلن عن نفسه بصوت يصعق الغابة، وتفرّ لهوله المطامع والقلوب من الصدور، فكأن العالم دائماً يحتاج إلى فأر ليفتح ثغرة في جبروت الأقوياء فيأتي السيل العرم.

كان الأستاذ يقول ذلك، بحركته الوادعة، وألفاظه المختارة بدقة، فيحس عبد الله بعالم جديد، عالم مغاير لما سلف، فبرغم تشابه الطريقة بين ما علموه إياه في القرية وبين أساتذته الجدد، إلا أن كلام هؤلاء فيه شيء غير الحكمة، شيء من رائحة الأرض والبلد واللغة فالفرنسية لا تفتنهم بل يراهم يترنمون بالعربية بعشق وتعلق، ولم يدرك لمَ يصرّ الفرنسيون على تدريسهم تاريخ شارلمان وأدب لإمارتين بدلاً عن الرشيد ومجنون ليلى والمتنبي إلا بعد وقت.

وحين تعاود الدكتور عبد الله تفاصيل ذلك العام الحاسم في حياته، تطالعه في البداية سحائب من ضباب وخيالات وصور، إبريق وضوء وسجادة صلاة ومصحف عجوز وهريرة لا تشيخ، وأناشيد صوفية مبهمة وحارّة تنبت في براري حلب لابن الفارض هذا العربي الذي لم يواطن عمره سوى الكلام، رأى فيه الوحي والمنزل والوطن والمعجزات وبدء البدء ونهاية المعنى والإسراف في نفي الذات من أجل القول لا من أجل القائل.

–يا عبد الله.

www.alkottob.com

صوت الشيخ حمد يسقط ناضجاً كالكمثرى، تفوح منه الحكمة كرائحة الحناء ليلة عرس، ثمّ تابع.

–قم يا ولدي. الصلاة.

ويقوم من فراشه، مليئاً بهمة ونشاط، قبل أن يختلط الخيط الأسود بالخيط الأبيض ويجهجه الضوء، ويسير وراء الشيخ العجوز، الذي يبدو ناحلاً وجليلاً، تتدلى من على كتفيه الهزيلتين عباءة من وبر حمراء، يتنحنح في الغبش الواقب، ويحوقل، زاجراً شياطين الوسواس، ويترنم وسط الهدوء الساجي:

يا حادي العيس عرّج كي نودعهم يا حادي العيس في ترحالك الأجل

وينود في سيره، وقبعته البيضاء التي تعلو جمجمته، تفصح عن فضة ووقار لا يثمّن.

وبعد الوضوء، يستقبلان القبلة، ويزيد الشيخ حمد من ترنمه بآيات القرآن فيختلط الصوت بالظلمة وهذا ما ساعده فيما بعد في فهم الصور البيانية عند المعري فمن يبهره النور الإلهي كالأعمى، ينسى صور الأشكال الفانية ليذوب في الشكل الكلي الخالد.

وترفّ أوراق الدالية الخضراء في الهدوء الساحر، وتظل القطة ترقب الشبحين بعينين خلتا من الدهشة، فلقد اعتادت المنظر، والشيخ حمد عجوز بلا أولاد، هجر القرية قبل نصف قرن إلى ضواحي حلب، لخلاف استعرّ بينه وبين بني عمومته فقطع صلاته بالجميع، عدا الرفاعي الكبير، واستعان على ذلك بربه الذي لا يأخذ بل يعطي، وتزوج بامرأة صالحة من الجوار، تقضي أيامها بالعناية، والاهتمام بالمنزل، وهو يردّد على الدوام:

–دخلت امرأة النار بقطة، وسأدخل الجنة بقطة.

فصرف جلّ وقته يعتني بهريرة صغيرة تشبهاً بأبي هريرة، وعن غير قصد تراه يخلط الغزل بالتصوف، والنكتة بالجد، إنه إرث العشيرة الذي لا يخون.

ثمّ تقفز صورة أخرى إلى البال، صورة أليفة إلى نفسه، طالما استغرقته وسرقته حتّى من دروسه، إنها صورة الغراف القريب من المدرسة وسط حقل الشعير الأخضر، حيث يرى البغل يدور على الدوام، والماء يتدفق ليروي المدرسة والأرض والجوار، هذا الغراف أعاده إلى الفرات والناس وصوت أغاني النايل والسويحلي للورّادات، فكان يقف طويلاً يتأمله، ويبحث بين السوق الخضر عن بيوض القطا والصعو، ثمّ يخرجه من هذا العالم صوت الطبل يعلن نهاية الفرصة

www.alkottob.com

فيمضي متثاقلاً إلى الصف، حزيناً تشده إلى الشمال الشرقي نوازع لا تهدأ، فيكاد الدمع يغالبه لولا صوت أبيه يرن في أذنيه:

-يا عبد الله، كن رجلاً.

فيهرع في لحظات الفراغ إلى المسجد في المدرسة، يقضي بين رحابه لحظات تعيد إلى نفسه الأمن بعد الجزع، فيرى جده يقف أمام عينيه، ثمّ يمضي عموداً من النور والنخيل، طويلاً ومهيباً، يحمل قرآنه وعصاه ويتجه إلى الفرات، يتبعه قرنفل ونرجس بري وقطيع من الغزلان، فيغرق في مثل نشيد صوفي طالما ردّده أمامه الشيخ حمد في ساعات وجده "سائق الأظعان عرّج على كثبان طي.."

***

ومع طول ما قاوم شعور الغربة.

ظلّ هذا الشعور ينخر جذره الغضّ كالسوس، فيقطع ما يصل بينه وبين المدرسة والأساتيذ والطلاب، حتّى ودّ لو يعار جناحي طائر فيفرّ إلى هناك، بجسده الشاحب الذي بات عرضة لأي وعكة، وقبل نهاية العام وقع ما كان متوقعاً، فكان مرضه الغامض الذي لا يذكر منه سوى صورة الطبيب السويسري "مونيه" الذي عالجه ومنعه من تناول الحلو، وبعد أن علم والده، جاء إلى حلب، ليعود به، شبحاً غائر العينين، يتماثل للشفاء، والعافية، ولم يجد جده بانتظاره، ففهم سبب علته، إذن فقد رحل الرفاعي الكبير إلى ملكوت ربه، وسقطت دموع غزيرة على وجنته الشاحبة.

***

-منذ البداية قلت ما لنا ولهذا الطريق؟

قال أبوه يلوم نفسه:

-مدارس، مدارس، أشوف ما علمتنا المدارس والحمد لله نجحنا في حياتنا، تعال أعلمك الذي لا تعلمه المدارس.

وقاده من يده يومها، وقد بدأت دماء العافية تورّد خده الشاحب ومضى به في طريق ضيق طويل لا زال جزء منه موجوداً حتّى يومنا هذا، يمتدّ متعرجاً تملؤه الحفر وبرك الماء الآسنة والأطفال، ينظمه لون واحد، هو لون الطمي والفخار الذي بنيت منه المنازل، وفي الربيع يتبدل، فالأسطحة تكتسي بزهر ونبات أخضر لأنها من تراب بري لازالت بذور الحشائش في داخله وهي تستجيب للمطر فتربو وتهتز.

www.alkottob.com

–اسمع يا عبد الله، جدك –الله يرحمه أراد ولكن ربه ما أراد لك وما قسم النصيب في المدرسة.

يقول أبوه وهو يهزّ كفه بعصبية اعتادها خلال تعامله مع فلاحيه وعماله المُتْعبين: ثمّ يتابع:

–المدارس على العين والراس، لكن الحياة أكبر مدرسة، فيها تتعلم كيف تكسب وتربح، وكيف تكتشف سرقات العمال، وحيل الفلاليح، وأساليب الصناع في الغش والبلف، المدارس لا تقول لك متى تشتري ومتى تبيع؟ متى تربح ومتى تخسر؟ جدك أرادك للجامع والكتب، وهذه الأملاك؟ نتركها داشرة للقرباط والحرامية وأبناء الحرام. لا. لا، خلّك من الكلام وحكي الملالي، وحافظ على قروشك. فالذي لا يملك قرشاً لا يساوي قرشاً.

ويطول الطريق، يتلوى، وقد بدت أسطحة الحوانيت القريبة سطحاً واحداً لتراصها وتقاربها، وبين لحظة وأخرى تهب زوبعة صغيرة من العجاج، والغبار، ويتابع الأب:

–اليوم سترى مشروع أبيك الجديد، مشروع يحتاج إلى رقابة وحب فالعمل بلا حب لا يثمر ولا يتطور، خاصة مع الآلات، هذا الحديد في داخله قلب، مَنْ لا يفهم لغته يخسره، وهذا سرّ صناع الأرمن ومهارتهم فهم يفهمون لغة هذا القلب، ويعطونه من أنفسهم ويدللونه فإذا لم يستجب انتظروا، وفكروا، ولا يقولون اكسر أبداً، لذا لا تسلّم آلة إلاّ لأرمني، ولا تستخدم في الزراعة إلا فلاحاً من بزاعة أو سفيرة، أمّا أفضل الخدم والعزبان فهم سكان الضواحي من الرعاة والغنامة، فهمت يا عبد الله؟!

–فهمت.

–زين، زين؟!

–زين.

وقبل نهاية السور الأثري الذي بدت أطلاله عن يسارهم، ينحدر الطريق الضيق باتجاه النهر، حيث يعرف عبد الله أن لهم أرضاً هناك، يزرعونها في المواسم بالخيار والقثاء والبطيخ، أرضاً كانت موئلاً في المواسم لقوافل الغجر القادمة من الجنوب، زهد بها أصحابها فشراها الأب بدراهم قليلة، وهو ينتظر معجزة أو إلهاماً يدعوه مشروعاً جديداً ليحولها إلى إنجاز ينضاف إلى سلسلة إنجازاته.

www.alkottob.com

–يا عبد الله، اسمع، التاجر إذا اشترى الذهب وباعه وربح به، لا فضل له في شيء، أمّا التاجر الشاطر فهو الذي يشتري التراب ويبيعه على أنه ذهب، الشطارة هنا، الكيميا هنا.

يا الله! ماذا جرى؟ أبوه الذي لم يكلمه طويلاً كاليوم، ماذا أصابه؟!! إنه يندفع في كلام فيه سر وحكمة وقت تجمعت على مرور السنين، إنه أشبه بمدرّسيه في حلب، دائماً يخلطون، السمن بالعسل، والدبس بالطحينية، والتمر بالدسم، والوقت بشؤونه، والدروس بالمظاهرات، نعم يراهم يعلّقون الدروس، ويشاركون الطلاب الهروب من المدرسة في صخب وضجة وصياح لجوج، بينما يعاقبون الطلاب على تأخر بضع دقائق، يضجرون ويبتسمون حين تصدر الأوامر بإغلاق المدرسة لأيام.

–ماذا تريد يا أبي؟!

ودّ لو يصرخ ولكنه عطّل الصرخة، وتابع سيره، وحين انفرج الطريق الضيق عن خلاء وأرض وسيعة، رأى في أرضهم الزراعية بناءً جديداً فقال أبوه بفخر:

–إنها الطاحونة الجديدة والوحيدة في البلد، مثلها اثنان واحدة في مريبط والأخرى في تل أبيض، الاثنتان للإنكليز، والوحيدة لأبيك يا عبد الله.. نعم لنا.

وهمد كل شيء، وود لو يصرخ:

–يا جدي... رحماك.

***

ولحظة دخل هاجمه.

عجاج من غبار أبيض فهم أنه الطحين، وضجيج رجّاج هو صوت الطاحون، وقامة أبي جورج العملاقة، وبدأت رحلة جديدة مع الناس والحساب والحديد الذي يحتاج إلى دم من البترول، وعناية خاصة تقوم على الفهم والمعرفة فهنا تنتهي رحلة حبة القمح لتتحول إلى غبار وانتظار، وتردّد في القبول، فدرجة الطحن ضرورة لخبز جيد.

–يا عبد الله.

تآلف مع صوت أبي جورج وروحه المرحة التي لا تشهر أشواكها إلا حين يخيم الغجر في المواسم، وهو في لحظات صفائه يقول:

–انظر يا عبد الله إلى هرش الخيار أو البطيخ، إنه مثل ابن آدم، يحاول أن يخفي بأوراقه ثماره عن أعين الجناة، ولكن دون فائدة.

www.alkottob.com

ثمّ يقوم إلى الآلات يتفحصها، ويستمع إلى قلبها الحديدي بحب، ولا يفهم عبد الله معنى كلامه.

***

يوم الجمعة تقفر الطاحونة.

من القادمين لطحن حبوبهم، ومن الدواب وتهدأ الضجة والغبار الأبيض ولكن أبا جورج يظل لا يفارقها، يتفحصها قطعة قطعة، ضارباً بكفه الضخمة المشعرة حديدها البارد، باحثاً بعينيه وأذنيه، متقرياً بأصابعه الحجر الجبار، وحين يطمئن يصعد إلى السطح حيث طاولته الخشب، وكرسيه، والعرق وموقد النار، ومن هناك يرقب النهر ودغل الطرفاء والحور، ويمتلئ بصوت العصافير وشمس اليوم، ثمّ يبدأ طقسه المعروف، تتصاعد رائحة الشواء والعرق، ويطلق لصوته العنان وهو ينتظر وعيناه على البئر القريب من الطاحونة، فربّ قادمة ترضى دخول مملكته، تلك الغرفة الملحقة بالبناء.

وقد لذّ لعبد الله مراقبة أبي جورج، وهو يعمل، أو يغني، أو يغمز لفتاة حلوة خلسة، أو يحمل الأكياس فارغة ومليئة، ويصيح بأعلى صوته:

–سجّل يا عبد الله، وخذ الأجرة.

ثمّ يستدير كأحد آلهة الإغريق، ويتابع عمله.

ولكن اللذة الكبرى، كانت حين يحضر يوم الجمعة بعد الصلاة وهناك يصعد مع أبي جورج إلى السطح يأكل ويراقب ويضحك، فأبو جورج يقول كلاماً كثيراً حين يشرب، يخلط فيه بين الحكاية والكلام الفجّ والحكمة، كما يخلط البندورة والخيار والبقدونس والبهار في صحنه الواسع.

–أبوك يا عبد الله رجل فهمان، رجل أعمال ذكي وشاطر أمّا الباقون فهم حمير يأكلون مما يصنع الله، ولا يصنعون شيئاً، يتسكعون في النهار ويشربون القهوة المرّة في المساء، وينامون مع نسائهم في الليل، والعمل؟ والحياة؟ والسفر؟! ما في من ذلك شيء، هذا البلد كان يجب أن يكون جنة، الماء والأرض الطيبة ماذا يلزم؟ يلزم ابن آدم يعمل لا هؤلاء الحمير التي ترعى وتتقاتل ويركب بعضها بعضاً.

ويتناول كأسه المترع ويغبُّ منه، ثمّ يمسح فمه بظاهر كفه، ويتابع في جو احتفالي:

–أعطني حماراً فأطعمه شعيراً وتبناً في ظل بارد، ستجده سعيداً، واعطني

www.alkottob.com

رجلاً من هؤلاء المخاليق، فأطعمه لحماً مشوياً ولبناً بارداً، بالتأكيد ستجده سعيداً، لكن الرجل والحمار لن يفهما شياً من الشعر والغناء والشراب، من هنا فالحمار والرجل متساويان في الفهم، ألم أقل لك هؤلاء المخاليق، أغبياء لا يمكن أن يشبهوا البشر إلا بالشكل، ولا أسوأ منهم إلا القرباط.

-أبو جورج، لماذا تكره القرباط؟

-لأنهم قرباط وهل هناك أكبر من هذا السبب؟.

ويتناول كأسه، ويغرق في غيبوبة وذهول، ويدوي صوته القوي الحنون بغناء فاجع وحزين فيخلط الأرمنية بالتركية بالعربية، وتمتلئ السماء برفوف العصافير، وحالماً محلقاً يظل عبد الله، يفقد الترابط بين الأشياء، وينبهر بأشياء لا أسماء لها، ولا أشكال لها.

-ياولْ، يا بو جريج.

يأتي الصوت من الأسفل، فيسكت أبو جورج، ثمّ يبدأ في التجديف والشتيمة فالقادم يعرفه من صوته المشروخ الغليظ، إنه حسين خادم الرفاعي الأمين، وتتعالى خطواته وهو يصعد الدرج، ثمّ يطل وجهه ضاحكاً، مثل ثعلب جائع:

-ياولْ، يا كافر.

-كافر أبوك وجدك.

-الكافر من يشرب العرق يوم الجمعة.

-ويوم السبت؟

-يشرب سماً.

-قرّب يا خنزير.. قرّب.

-الله يقرّب أجلك، ويخلصنا منك.

ويجلس قريباً من أبي جورج، ثمّ ينظر إلى الشواء تتصاعد منه رائحته الزكية فيفهم أبو جورج، ويتغابى، بل يقوم إلى النار، يأخذ كأساً طافحاً بالعرق ويرشه على اللحم، ثمّ يعود إلى مكانه، مدندناً بلحن تركي راقص، رافعاً من جديد كأساً طافحاً وقطعة من اللحم المشوية، ويهتف بظرف:

-سيد حسين، تفضل.

ويحكّ حسين ذقنه الخشنة ولا يجيب، فيتابع أبو جورج:

-قلنا تفضل.

www.alkottob.com

–ابن أصول.

–نتعلم من أولاد الكلب.

–أي نوع من الكلاب؟

–القرباطية.

–أصيلة. ولا مثيل لها.

وقام حسين من مكانه، حمل إبريق الماء في يده ورشّ قليلاً منه على اللحم، فتصاعد دخان ورائحة وضحك أبو جورج، فقال حسين:

–الماء يغسل كل نجس.

–لكنك أفسدت طعم اللحم يا فاسد.

–المهم أنه أصبح حلالاً، والنار كفيلة به.

تبدأ مساجلات ومناظرات، فيعيب حسين على صاحبه عدم ختانه وبالتالي سكره المتواصل، بينما يعيّره أبو جورج بعلاقاته المشبوهة مع الحيوانات ويخص الأتان، فهو يخرج كل جمعة بحثاً عنها ليقضي وطره ويعود إلى المنزل:

–ولْ حسين، نصف الحمير التي تراها تحمل الحبوب إلى الطاحون من نسلك العظيم.

–الله يلعنك، خلنا ناكل.

–تاكل سماً.

ويرشق كأس العرق على طعامه، فيضحك ويتابع الأكل قائلاً:

–مستعد لأن أدخل النار شرط أن أغيظك.

–الحمير لا تدخل الجنة.

–ولا السلاقي.

–ما رأيك في كأس؟

–الله يبعدنا عن الحرام.

ولا يفهم عبد الله من كل ذلك شيئاً سوى أن ديكين يتناقران على سطح طاحون في الشمال البعيد، بعداء ومحبة.

***

آخر النهار يعود عبد الله.

www.alkottob.com

يقوده حسين في الطريق نفسه، من مشرق البلد إلى مركزه الذي كان يومها مجرد بيوتات من الفخار المشوي والطين والجصّ والقلوب الفارغة من الهم والسياسة، وهو في طريقه تعاوده ذكريات العام الذي لم يكتمل في تجهيز حلب، فلا يحنّ إلى العودة رغم أن المرض فارقه، ويجد في التذكر خوفاً من تكرار التجربة رغم أنه يحس بنوع من خيانة الرفاعي الكبير، فالنشيد الصوفي ولون الكلمات تحوّل إلى طاحونة وحجر.

–عبد الله.

–نعم.

–اسمع يا ابن الناس، كلمة من جدك الرفاعي تساوي كل أملاك أبيك فالطاحونة، وأبو جورج، وأخوك الكبير حسين، كلها تشغلات فاضية فالدنيا بنت حرام لا أمان لها.

–لماذا تقول ذلك لي؟

–لأني أحبك وفيك رائحة جدك الرفاعي الكبير وعقله.

–المعنى؟

–مكانك في المدرسة مع الكتاب.

–والأملاك؟

–الملك لله وحده.

–تتكلم مثل جدي، وتتصرف مثل أبي.

–علمني جدك الكثير، لكنني أريد العيش، لقمة الخبز مرَّة.

–والطاحونة؟

–وين برج بابل؟ وين ملك فرعون؟ وتقول الطاحونة؟

–حسين؟

–يا ابن الرفاعي. اسكت، اسكت.

وتتسارع خطوات حسين، وقد ركبه ألف عفريت في تلك اللحظة.

***

كان معجباً باللغة الفرنسية يرطن بها، ويشعر بالامتياز أمام أقرانه في القرية، لكنه في تجهيز حلب رأى امتيازاً آخر يغاير ما درج عليه، فلقد رأى في

www.alkottob.com

المدارس الوطنية ما ذكره بجده الرفاعي الكبير، وهو الترنم باللغة العربية، وتمجيد المتنبي وابن زيدون، والمعري بدل لإمارتين وهوجو، فاحتار وقلق، لكنه احتكم إلى الذي لا يخون إلى القرآن فرجحت كفة اللغة الأم، فلغة القرآن عربية، ولغة أهل الجنة –كما قال مدرس اللغة العربية –عربية.

لذا لم يكن الفرنسيون يعنون شيئاً لدى عبد الله الرفاعي، شيئاً يثير الحقد والكراهية فالغزو والغزاة والانتماء القومي معانٍ لم تتبلّر يومها في باله فأستاذه الفاروقي كان يطرب لزهير وطرفة ويحاول أن ينحو منحاهما، في فنون القول الشعري، بينما أستاذ الفرنسية يبذل جهداً في إعطاء صورة حضارية للغته عبر لثغة لا تعني أكثر من صوت وصورة لجند مدججين بالسلاح.

ولم يفهم تماماً لِمَ كان الطلاب في التجهيز الأولى يخرجون في جموع حاشدة يسمونها المظاهرات، احتجاجاً على ممارسات أو تعبيراً عن آمال وأمان إلاّ بعد أن وقع ما اعتبره بداية الدرس الذي لا ينتهي لأمثاله من المتنورين الذين تطبخهم نار الأحداث الهادئة خميرة لما سيحدث دون علم منهم.

كانت البداية في الطاحونة، مشكلة صغيرة جرت كما يجري أمثالها في كل يوم حين يختصم الطحانة القادمون من القرى البعيدة وهم يتزاحمون على الدور طمعاً في طحن أبكر للعودة إلى قراهم، وقد لعب أبو جورج دوراً في سيادة النظام والدور فهو يهدد على الدوام بوقف الآلة، أو تغيير درجة الطحن للمخالف مما يفسد الطحين ويعّرض المخالف إلى كلام ولوم طويل في بيته.

لكن المشكلة هذه المرة جاءت من المحتلين الفرنسيين، ففي صباح مزدحم، دخل الفناء الواسع للطاحونة، مجموعة من القادمين على راسهم سرجان فرنسي يحمل بندقية حربية، يريدون أن يطحنوا بعض أكياس القمح بدل أن يحضروا الطحين من حلب أو يشتروا الخبز الجاهز من فرن رزوق، فيوفروا بذلك مالاً يصرف في غير وجهه.

فزّق السرجان الحشد. واخترقه كما يخترق السكين قالباً من الزبدة، ومن ورائه الحمير والرجال، ثمّ دلف إلى الداخل، ووقف الموكب عند الباب تحاصره العيون الغاضبة المتذمرة، والخائفة من فوات النهار وقدوم الليل حيث تبيت في هذا العراء الموحش عرضة للحيوانات المفترسة ولصوص البدو القساة وقد تصل أولاً إلى قراها.

دخل السرجان الطاحونة ووقف قريباً من عبد الله الذي فوجئ به، حيث فاحت منه رائحة خاصة هي خليط من عرق وزيت سلاح ولأول مرّة يقترب فرنسي

www.alkottob.com

كل هذا القرب من عبد الله.

-يا ولد.

صاح السرجان، وضاع صوته في ضجيج الآلات الصاخبة، وكان أبو جورج بقامته العملاقة ينحني على الفم الحديدي الفاغر، غير عالم بما يجري من حوله، ولو علم لكان له غير هذا الموقف.

-أنت يا ولد.

صاح السرجان بعربية مكسّرة، فردّ عبد الله بفرنسية حاول أن يفخم حروفها على طريقة أستاذه في التجهيز:

-أية خدمة أستطيع تقديمها لك؟

وصعق السرجان للحظة ثمّ استعاد نفسه، وصاح بأعلى صوته مخترقاً الصخب والغبار:

-أنت. هناك.

وفي تلك اللحظة استدار أبو جورج، فشاهد السرجان يصرخ في وجه عبد الله، وقد انتفخ كديك حبشي، فترك كل شيء وانحدر على السلم الخشبي، يكاد يطفر الدم من كل عرق في عروقه، فأبو جورج يعتبر الطاحونة مملكته وكنيسته ووطنه، وهو يصرخ:

-يا ابن الـ...

ويضيع صوته الغاضب، ثمّ يكبح اندفاعته أمام السرجان مثل موجة عملاقة، تريد أن تحتوي المكان في لجتها، وقد فعل هذا التصرف العفوي فعله في نفس السرجان، فالهجوم المفاجئ جعله يتخذ موقف المدافع المذنب أمام العملاق الغاضب:

-نعم؟!

قالها بصوت أجش وعريض ورفع يدين مشعرتين يكسوهما غبار الطحين مثل تمثال هرقل بائد، دبت في عروقه الحياة فجأة، ولم يجب السرجان، زاغت عيناه، وكطريدة محاصرة عرف الخوف طريقه إلى سويداء القلب وتلفت يبحث عن حشد أو لحظة إلهام، أو ثغرة في هذا الجسد دون جدوى، فأمامه غوريللا فائق القوة، فتجمدت أصابعه وصقيع السلاح البارد يجري في دمه، فلا تستجيب لأية إشارة من إشارات الدماغ.

www.alkottob.com

-إلى الخارج.

جاءه الصوت هذه المرة آمراً بلغة فرنسية ركيكة فاستجاب فيه حسّ الانضباط، وتراجع بخطوات منتظمة، وحاصرته العيون من جديد وتقدم أحد مرافقيه من السكان المحليين الذين يستخدمهم الفرنسيون لأعمال الخدمة والتنظيف من اللفيف المجاور للثكنة.. وقال لأبي جورج بأدب:

-يا ابن الحلال ماذا فعلت؟

-وما علاقتك أنت؟

-طولّ بالك، وراجع نفسك.

-إلى جهنم بكل هذه الأشكال.

-يا ابن الحلال لا تمّد يديك في غار العرابيد هذا.

-عرابيد أو كلاب، لا فرق.

-يا رجل سمّ بالله، واسمعني، كل الشغلة ما تستاهل الزعل، عشرة أكياس من القمح نطحنها ونمشي ويا دار ما دخلك شرّ.

-كل إنسان بدوره، والفرنسيون ليس لهم دور.

هذا القانون سنّه أحمد الرفاعي لطاحونته، ووعاه أبو جورج جيداً ونفذه بدقة، فالرفاعي يكره الفرنسيين إلى درجة أنه رفض أي مشروع مهما كان مربحاً بالاشتراك معهم.

-أنت مهبول أو سكران، المجيدي مجيدي، والبرغوث برغوث.

صاح الرجل بأبي جورج وهو يراه يستدير إلى الداخل ويوقف الطاحونة عن العمل، ثمّ يقول ببرود:

-الطاحونة تعطلت، عندنا صيانة.

واتكأ على الجدار يتابع المشهد بلا اهتمام وقد سدّ الباب بجسده الصلب.

***

وتفاعلت المشكلة ثمّ تفاقمت فاستدعى المستشار الفرنسي أحمد الرفاعي، فالموقف غير الودّي الذي قوبل به عناصرهم يعتبر سابقة قد تقود إلى أعمال أكبر لها عواقب وخيمة وقد أوغر صدره إضافة إلى خصم الرفاعي الدائم في البلدية، أمر آخر وهو أن الرفاعي يرفض إشراكه في أي مشروع من مشاريعه العديدة، مما يحرمه من دخل مالي، ومن تأمين جانب رجل مهم وذكي في هذه

www.alkottob.com

القرية الفراتية.

فقد جرت العادة أن يدفع التجار ومتعهدو السفن وأصحاب الخانات أتاوات على شكل هدايا إلى المستشار الفرنسي، إضافة إلى ما يدخله من رشاوى الموظفين وعلى رأسهم القائمقام الجابي ورئيس البلدية:

-الرفاعي شايف نفسه أكثر من اللازم، يلزمه تكسير راس.

قال رئيس البلدية للمستشار الفرنسي.. ثمّ تابع وكأنه يحدّث نفسه.

-وصلت الأمور إلى هذه الدرجة؟! والله يا بن الرفاعي زين، تريد تحطّ راسك براس فرنسا.

-هذا الرجل يابس الرأس.

قال المستشار الفرنسي بغيظ مكتوم.. ثمّ تابع:

-ونحن لا نستطيع أن نذهب بعيداً.

فردّ رئيس البلدية بحماس يحركه حقد دفين:

-وماذا تنتظر سيدي، دقّ هذه الراس حتّى تطحنها وتصير فرجة الناس.

-المشكلة أن هذا الرجل ثعلب، وليس لدينا شيء ضده.

-وهذا الذي فعله؟

-يجب أن نتعامل مع ما حدث بحذر، وإلا وقعنا في خطأ كبير، فنحن لا نريد أن نجعل من الرفاعي بطلاً أو مناضلاً بحماقة صغيرة.

-إذن.

-يلزمه فركة أذن، كم ليلة ينامها في حظيرة الخنازير ثمّ نطلقه.

-بسّ!!

قال رئيس البلدية بخيبة أمل، ورانت على وجهه سحابة من ضيق وقنوط حارق، فقام يستأذن ثمّ يخرج.

***

كانت صدمة عبد الله باعتقال أبيه كبيرة، فهو لم يفهم من المشكلة أكثر من خلاف على الدور بين زبائن، شاهد مثلها كثيرات، لكن أن يصل الأمر إلى الحبس والتوقيف فهذا خلق عنده شعوراً بالغضب والكراهية لكل ما يتصل بالفرنسيين.

www.alkottob.com

وقد تعاقب على البيت زوار كثر، من الأقارب والأصدقاء والجوار والأهالي، فمنهم من استاء وشتم الفرنسيين، ومنهم من لام الرفاعي على موقفه المتهور ورأسه اليابسة، منهم من جاء لمعرفة ردود الأفعال والتشفي، حتّى باتت المضافة تغص بالناس على الدوام، وهذا ما عجّل في إطلاق الرفاعي، وأبي جورج، قبل أن تصل الأمور إلى مرحلة لا يمكن السيطرة عليها.

–الحمد لله على السلامة يا أبا عبد الله.

انطلق صوت حسين يملأ البيت، فكان له وقع القنبلة، إذ اندفع الرجال والنساء والأطفال، يرحبون بالقادم، فتلقاهم بالتأفف المعتاد والغضب الدائم، الذي ينبئ عن السلطة والأمر، وعصاه في يده يلّوح بها، ويهزّ برأسه يمنة ويسرة، وقد طالت لحيته أكثر من المعتاد وبان على سماته ولأول مرة إجهاد لا يلحظ مباشرة وسط مظاهر الغضب ولكن عين الخبير تدركه.

–كفّارة يا حاج، السجن للرجال.

فلم تعجب الكلمة الرفاعي، فدمدم بكلام غير مفهوم، ثمّ دخل المضافة، كأنه عائد من رحلة من رحلاته المعتادة إلى قرى له فيها مشاريع، وحين تصدر المجلس صاح بحسين:

–القهوة المرّة يا عفن.

–تكرم يا عمي.

ودارت فناجين القهوة، وفاح الهيل وعبق القهوة، يختلط بأنفاس الحضور، وجرت الأحاديث، عن الفرنساوي والظلم، وكأنه قدر من الله، أو جائحة مرضية لا بدّ أن تنحسر، وفي هذا الجو الحميم تفتحت نفس عبد الله كزهرة النيلوفر في رقراق الماء، ورنّت في سمعه كلمة جده وهو يقوده إلى المجلس:

–ليكن قلبك كالمسجد، يدخله الطاهر واللص والقاتل، فكل الناس خير وبركة، ولا تقف عند الصغائر، فربّ ضارة نافعة، وانظر إلى الكون الواسع هذا عالمك، بعصافيره وجباله وحيواناته وناسه، أمّا الأهل فهم ضيوف بين مقيم اليوم وراحل غداً، وهذا ربك يا عبد الله يرزق الكافر والمسلم والنصراني، كما يرزق الذئب والفراشة وطيور الفلا، ملكوته واسع ورحمته واسعة..

وعند باب المسجد يتوقف قليلاً ليخلع نعليه، ويدخل، لم تلحّ اليوم على عبد الله ذكرى الرفاعي الجد، ألأنه يرى مودة وفرحة عارضة في بيتهم غير مألوفة، ترى ماذا سيقول لو كان حيّاً؟! بالتأكيد سوف يتمثل بآية قرآنية ثمّ يهزّ رأسه

www.alkottob.com

ويعتكف في غرفته.

-يا جدي الكبير.

هجس عبد الله ثمّ انسحب إلى الداخل، كانت أمه تعدّ الماء الساخن لحمّام أبيه، وجدته تجلس شاردة، فهي بعد موت الجدّ تعيش في غيبوبة أشبه بالحلم، فاقترب منها وجلس، ولدهشته امتدت أصابعها تمسّد شعره بحنان وحب:

-كنت حبيب المرحوم.

قالت وكأنها تخاطب كائناً آخر، ثمّ مدّت يدها وناولته المفتاح وقالت أمس سألني مالي لا أرى عبد الله عندي؟!

وقام عبد الله، بينما عادت الجدّة إلى شرودها الذي لا تصحو منه إلاّ عندما يزورها مريض مصاب باليرقان، فإنها تستعيد نشاطها وتعمل بهمة ودقة.

***

رائحة لها نفاذ حادّ في الأنف.

واجهت عبد الله حين دخل الغرفة، سجادة الصلاة كانت ممدودة، والبسط العربية الملونة لم تزل على حالها وإن علا بعضها الغبار، لكن الكتب كانت مكانها، تناول أقربها، كان ديوان ابن الفارض، قلب صفحاته الصفراء فشع عطر وأنداء من الصفحات، ثمّ تلفت يبحث عن ضالته، هاهو القرآن والموطأ ودلائل الخيرات، والجوهرة في نسب الإمام علي، ثمّ فصوص الحكم والفتوحات المكية لابن عربي.

-أهلاً بولدي.

لسعه الصوت كنار العطابة، فرمح والتفت يبحث عن مصدره وقد خالجه شعور هو خليط من خوف وحذر وتوجس، فمّد يده إلى القرآن حيث الملاذ والأمن والسلام الذي لا يكذب.

-هل أنت خائف يا عبد الله؟

-أنا... لا... من أنت؟

-هل نسيت العهد يا عبد الله؟

-العهد؟!

-نعم العهد يا بن الرفاعي.

-ولكن أي..

www.alkottob.com

-خانتك الشجاعة يا بن الرفاعي، فهل نسيت جدك؟

-جدي؟!

-نعم، جدك.

-ولكن جدي.. جدي ما..

-مات؟! أين ذهب ذكاؤك؟!

-يا ربّ.

-نعم يا ربّ، هذه بداية الطريق، فاسمع.

عند الكلمة الأخيرة، رأى عبد الله جدّه، طوالاً مهيباً، يحمل سبحته الكهرب وعصاه، ويقف أمامه، وإلى اليوم لا يجد لما حدث تفسيراً، وهذا الذي عكسه أدبه وكتاباته وحار فيه النقاد فيما بعد.

-يا عبد الله.

-نعم يا جدي.

-هل أفرخ روعك؟

-نعم يا جدي؟

-قل يا جدي ولا تخف.

-إنني أقولها.

-خذ الكتاب بقوة.

-سآخذه.

-كل وسخ يغسله الماء.

-نعم يا جدي.

-وكل إثم تغسله المغفرة.

-نعم يا جدي.

-وكل جهل لا يغسله إلاّ العلم.

-نعم يا جدي.

-فلا يأخذك شيطان المال.

-لن يأخذني.

www.alkottob.com

ثمّ تقدم إليه وهو يقف في مكانه، ضمه إلى صدره ضمّة قوية وذاب كماء في رمل وظل الصدى يملأ الغرفة، ففرّ خائفاً، حيث ذاب في الصخب والضجيج بينما كان الزوّار يتكاثرون، والخراف تذبح ابتهاجاً بالمناسبة التي تمثلها عودة أبيه.

أربع سنوات تقضت منذ تقطعت الأسباب بين عبد الله الرفاعي، وبين المدرسة في حلب، سنوات مرّت بين عالم الطاحونة وما فيه من نبض وحياة وسيل من بشر جفاة ممصوصين يأتون على عجل، يدفعون حميرهم في طرقات خالية، من قرى بعيدة أو قريبة، وهم ينتظرون هجوماً مباغتاً يشنه بدو لصوص، اعتادوا التعرض للطحانة، يكمنون وراء الرجوم والآكام، وعيونهم تلمع كعيون بنات آوى، بانتظار الطرائد.

بشر ينتظرون أو يتقاتلون أحياناً، قتالاً وحشياً يستخدمون فيه العصي والفؤوس التي تتدلى على الدوام من محازمهم، وقد يستظلون أحياناً تحت الشجيرات التي زرعها أبو جورج ونمت سريعاً، وعند الدفع يحلّون أصرتهم القماشية الملّونة، وعيونهم تهمل لمرض مزمن يعالجونه على الدوام بالقرمز، ثمّ يسألون:

-كم مجيدياً؟

وبمكر يتصنعون الصمم وعدم الفهم إذا كان المبلغ يزيد بضعة براغيث صغيرة، فيزعقون:

-ها، أيش قلت؟

وحينها يتدخل أبو جورج من مملكته العالية، فيبتسم الرجل ويتذلل وهو يعدّ النقود قائلاً وأصابعه الطويلة ترتجف:

-لا تؤاخذني عمّك أطرش.

ويسرع في الركض وراء حماره ليلحق بأهله قبل أن يغلّق الليل ويصبح فريسة سهلة للحنشل.

وآخر النهار يحتاج إلى زند من حديد وعصا سنديان وعين حمراء، ولا مكان فيه للإنسان الطيب.

بينما يؤكد عليه أبوه مذهبه وفلسفته في الحياة:

-يا بني يا عبد الله، ها ترى هذه المجيديات؟ من يملكها يفصّل الدنيا على قدّه، مثلما يفصّل جلابيه أو ثوباً.

www.alkottob.com

سنوات قطعها نجمة في غبار الطحين والعجاج وأسماك أبي جورج وغنائه الحزين بعد كأس العرق الثالثة.

–اسمع يا عبد الله –يؤكد عليه أبوه –هل ترى أبا جورج، هذا النصراني السكيّر، لولاه لكانت الطاحونة كومة من الحديد الأخرس، ولسرقك الأوباش الطحانة، فلا تأخذك عواطف الدين والعشيرة أو القرابة في الشغل، أنا أحب أن أسمع المفتي في الجامع، لكن الطاحونة شغل أبي جورج، هل فهمتني؟

ولا يفهم عبد الله تماماً، فيلجأ إلى غرفة جدّه، يقرأ في كتبه كلاماً عصّي الفهم، وقد انزلق إلى قراءات أخرى لكتب يأتي بها من دكان عطّار حلبي، تفاوتت بين ترجمات سقيمة لقصص بوليسي، وبين سير شعبية فتنته لأبي زيد وبني هلال، وعنترة العبسي، وحمزة البهلوان، ويوم قرأ ديوان ابن الفارض على يد قريب له، تفتحت نفسه أمام هذا السمو الرفيع واللغة الأنيقة، ووجد روحه تخضلُّ من رذاذ عطر نبوي مقدس، شتلة من ريحان بري تزهر، فازدهى، وتوازن قليلاً:

–ابن الفارض يا عبد الله عاشق الكون الكبير، الذي جعل قلبه جامعاً وكنيسة ومعبداً لكل الأديان، فتعلّم منه، فإنه نوَّارة الحب.

قال له قريبه، وهو ينهي درسه الأسبوعي، ثمّ كانت الروضة الغناء "الفتوحات المكية" لابن عربي، التي عاش في رحابها مع قريبه فترة طويلة يرفد ذلك كتب جرجي زيدان عن تاريخ العرب والإسلام التي قادت خطاه إلى قراءة التاريخ بولع ولذّة.

ويوم نظم عبد الله أبياتاً ساذجة من الشعر، أحسّ بلذة خفية وخجل كمن يرتكب إثماً مقدساً، فواراها عن العيون، لكنه ظل يترنم بها في لحظات انفراده.

–عبد الله، الخبز بدون اللحم علف للدواب، واللحم بدون سلطة وخضار لا يرفعك فوق مستوى كلب جوعان، واللحم والسلطة إذا لم يكن معهما المشروب جنة بدون ناس، واللحم والسلطة والعرق بدون الغناء مثل إنسان بلا قلب، طاحونة واقفة.

كان أبو جورج على جري عادته، يحاول أن يربط الأشياء فيما بينها، بعلاقات ووشائج، ليخرج بنتائج تهمُّه شخصياً، لأنه يطبّقها حرفياً كقانون ربّاني، كما يطبق يومياً دوشه المسائي، حيث يقف أمام البئر في وسط الفناء عارياً كآدم، يمتاح الماء ثمّ يدلقه على جسده بمتعة وصفاء نادرين، بينما يتعالى صوته مرحاً سعيداً:

www.alkottob.com

-عبد الله.

يصيح من مكانه.. فيرد عليه:

-نعم.

-تعال.. اغسل عرقك.

-الماء بارد وجسدي لا يتحمّل.

-جرّب مرة.

-لا أقدر.

-تندم.

-الندم أفضل من المرض.

تدور الحوارية دون أن يتوقف أبو جورج عن متابعة ما يقوم به، ثمّ يتحرك عبد الله في طريق العودة إلى البيت.

***

حتّى كان ذلك المشهود الذي قلب مسار حياته، فقصيدة من الشعر ألقاها نيابة عنه أحد الأصدقاء في مناسبة رسمية، كانت السبب في هذا الانقلاب فحين شاعت وأعجبت الحضور وعرف المقربون أنها له، ألحّوا بعدها على أبيه حتّى عاد وألحقه من جديد بالمدرسة، ولم يذهب هذه المرة إلى بيت قريبه وإنما انتسب كطالب داخلي ينام في المدرسة.

***

إنها التجهيز الأولى مدرسته مرّة ثانية، يجوز بابها بخطوات غير خطواته الماضية، يعبر الممر الظليل، واثقاً متألقاً، وهو يشعر بكل حجر وكأنه يعرفه، ويرحب بمقدمه ترحيباً زاهداً أخرس.

-ألا نذهب إلى زيارة جدي حمد؟

سأل والده برغبة حقيقية، فتململ الأب محرجاً وقال:

-لن نذهب.

ولم يسأل لماذا أو ما الذي حدث، أطرق برأسه كما تطرق السنبلة برأسها أمام العاصفة.

فأردف الأب:

www.alkottob.com

-جدك حمد مات.

وهاله الأمر، نفذت كلمة مات إلى سويداء القلب، إلى اللبّ مثل سهم قاتل لكنه كابر أمام هذا الطاغوت الموت، نظر إلى شجر السرو والمقاعد وحقل الشعير والغراف الذي لم يتغيّر، وتذكر الطاحونة، ومملكة أبي جورج، والحشد البشري المتقاتل، بينما عصا أبيه تشق درباً وسط هواجس ومحاذير تعني الكثير في مشاريع الرفاعي الأب.

-عبد الله.

-نعم.

-أنا أحمد الرفاعي خالفت جدك، لكنني نجحت فغفر لي، وأنا اليوم أعيد سيرة جدك فأترك لك الحق أن تخالفني ولن أغفر لك إذا أخفقت، ففي عائلة الرفاعي الإخفاق والفشل ممنوعان. -سأكون عند حسن ظنك.

-كن ما تكون ولكن إياك والعودة خائباً.

قال وهزّ عصاه في غضب هو بين الرضا والسخط يقرّبه إلى النفس ولا يخلق النفور إلاّ لماماً.

***

بعد الإجراءات المعتادة.

أسلم عبد الله نفسه إلى ما حوله، اتجه إلى الباحة وسط الطلاب الذين رآهم بعين جديدة، فلم تبهره الكثرة، ولا الألوان، أو التعدد بل ربما رأى في ذلك تجربة جديدة تثري عالم الطاحونة.

-عبد الله، يا عبد الله.

اخترقه الصياح مثل رصاصة، فاستفاق من شروده، ونبت من حوله شبحان عرف فيهما طالبين من بلدته.

-صالح، سعيد.

-عبد الله.

وتعانق الثلاثة ثمّ اندفعوا وسط الجمع، وكأنهم في دغل من أدغال الفرات يبحثون عن بيوض الدّراج والحمام البري، وهم يعلنون عن خشونة ليحموا جلوداً ورؤوساً حارة من صدامات غير محببة إلى نفوسهم.

www.alkottob.com

-فرصة سعيدة يا عبد الله.

-أسعد بلقاكم.

-تصوّر: طلاباً من مرعش وأورفه وعينتاب والشام وطرابلس، ولا طالب غيرنا من البلد، أليست مأساة؟

قال صالح، فرد سعيد:

-ماذا تتوقع من جماعتنا؟ إذا جاءهم مجيدي اشتروا به خنجراً أو فأساً ليتقاتلوا، وإذا جاءهم عشرة بحثوا عن فرس أو امرأة.

-لا تظلموا الناس يا ناس.

-نظلمهم؟ يا رجل اتق ربك.

قال صالح، وضحك الثلاثة، فلفتوا الأنظار، فلم يبالوا وحين جاءهم صوت الطبل الذي لم يتغير نظروا إلى بعضهم وغرقوا في ضحك نظيف وحقيقي.

***

كانت المرحلة الأولى امتحاناً لعبد الله في مادة الرياضيات التي عانى منها في السابق، لكنه اليوم يقترب من مفاتيحها ويلج عالمها، ربما ساعده على ذلك النضج والمدرس الممتاز للمادة، فجلّى فيها كما في غيرها، هذا التجلي رسخ ثقته بنفسه، فاندفع غير هياب، يودّع التردّد القديم والخجل، ويبدأ مشاركته الفعّاله في الحياة الطالبية، ويتقدم إلى امتحان فصلين دراسيين ينجح فيهما، فيكون الضائع مثلهما، ضاعا ولكن دون أسف فما ربحه كان أعظم وأثمن.

وعم النشاط بدأ اسم عبد الله الرفاعي يجد طريقاً إلى اللوحة التي تحمل التكريم والتقدير للطلاب المبرزين، وياله من فخر أحسّه حين جلس يلقي أول محاضرة علمية عن السرعة في عصر السرعة، ويوم جاءت أخبار فيضانات القلمون وما فعلته بالأهلين، تولى رئاسة لجنة التبرعات وجمع مبلغاً محترماً أدخل إلى نفسه لذة معايشة الحدث العام والتفاعل معه.

-عبد الله يا بن الرفاعي.

صاح به سعيد.. فردّ عليه:

-ماذا يا سعيد؟

-أصبحت نجماً.

-اتق ربك يا صاحبي.

www.alkottob.com

ودار الاثنان في الباحة، فسأل عبد الله:

-أين صالح؟

-تراه ذهب إلى الغراف؟

-وماذا يعمل هناك.؟

-علمي علمك، أغلب الأحيان يذهب إلى هناك وكأنه عاشق على موعد مع الحبيبة.

وتذكر عبد الله علاقته الماضية مع حقل الشعير والغراف الذي كان يرى فيه الأهل والبلد وناسه البعيدين، فابتسم وتابع التجوال في المكان وحنين ناعم إلى عالم الطاحونة يمازج دمه ويخالط روحه.

-هذا عبد الله، هه.

صاح صديقه الإدلبي.. ثمّ تابع:

-تلقاه يضحك دائماً مثل المضيّع جحشة خاله، إن لقاها يغني، وإن ضيعها يغني.

-يا ظالم، بطلّ كلام الـ...

ولم يتركه يتم كلامه، بل سحبه من ذراعه ومضى به إلى زاوية من زوايا المدرسة الخالية.

وقال بطريقة جادة:

-عبد الله، ما أقوله لك أتمنى أن يظل سراً.

-في بئر عميق.

-اليوم بعد العشاء، تجهّز نفسك.

-وما وراءك؟

-المهم تلبس أحسن ما عندك، وتحلق.

-موعد غرامي..

قال عبد الله ساخراً.. فتابع الصديق بالجدية نفسها:

-غرامي جداً.

-أنا لا أفهم.

-ستفهم فيما بعد يا بدوي.

www.alkottob.com

–ومن سيكون معنا؟!

–لا تستعجل

وانفلت مسرعاً وهو يقول:

–لا تنسَ.. ها.

وقرع الطبل، صحا عبد الله من انشغاله ثمّ أسرع إلى الصف.

***

كلّ شيء كان هادئاً في المهاجع الليلية، حين انسلّ عبد الله برفقة صديقه الإدلبي في الممرات الخالية إلا من أضواء شاحبة تتراقص.

–إلى أين تأخذنا؟

–اسكت؟

–ستورطنا مع رئيس النظار.

–لا تخفّ.

–يا..

–اس.. كت

وصالب سبابته على شفتيه، وتابع في اتجاه الباب الرئيس وقد بدت الموجودات خاشعة مستسلمة إلى سلطان النوم المستبد، وحين باتا على عتبة الباب الرئيس، وجدا أمامهما رئيس النظّار فلم يهتم الإدلبي بل تقدم إليه، وظل عبد الله في مكانه:

–تعال.

قال صديقه وهو يجرّه من وقفته. ثمّ رأى كالحالم الرجل الذي طالما بثّ الرهبة في النفوس، يفتح الباب أمامهما ليعبرا ثمّ لحق بهما، فاجتمعوا حفنة من الطلاب ثمّ ساروا، يتقدمهم رئيس النظار.

–إلى أين؟

همس عبد الله، فردّ صديقه ساخراً:

–سنسرق بيت المستشار الفرنسي.

–أعوذ بالله من شرّ هذه الليلة.

–ستظل تذكرها طويلاً.

www.alkottob.com

-حيّرتني.

-احتار عدوك.

-بدأت تتحدث كالعجائز.

-يا عجوز، يا بدوي.

وراقب عبد الله ما حوله، الظلام البهيم، وأضواء قناق حسين المدرّس، ثمّ بيت الجنرال الفرنسي قائد المنطقة الشمالية، بحرسه السود الذين يقفون دوماً على الرصيف، يمنعون المارة من السير عليه، ثمّ صوت خطوات زملائه التي تبدو أعلى من المألوف وسط هذا السكون الهادئ، الذي لا يؤتمن.

-عبد الله.

-ولم يردّ.. فتابع صديقه:

-إذا اجتمع البدوي والليل كانت السرقة ثالثهما.

ردّ عبد الله، فردّ الصديق ضاحكاً بخفوت.. وتابع حديثاً هامساً عن وجهة سيرهما، فهم إنهم على موعد مع الدكتور ناظم القدسي أحد أقطاب الكتلة الوطنية المعارضة للاحتلال الفرنسي، هذا الشاب العائد من سويسرا يحمل درجة علمية في الحقوق ندر وجودها في البلد تلك الأيام.

***

على مدى أيام ظلّت صورة الدكتور الشاب النحيل، لا تفارق خيال عبد الله، كما ظل صدى كلماته المتقدة يرنّ في سمعه، "أنتم جيل المستقبل، وعدّة الأمة، وعمادها، فكونوا لائقين بالمهمة التي تنتظركم.." وتغيب المقاطع والحروف في جو احتفالي عابق بعطر فاغم وضوء وأناقة تشع من كل مكان في البيت، وألوان ولوحات تزين الجدران.

-والجانب الآخر لهم الحق في الكلام والرأي.

لم يدرِ كيف أفلتت الكلمات من بين شفتيه فران صمت، قطعته ضحكة ناعمة من الدكتور وتعقيب:

-نحن لا ندعو إلى مصادرة آراء الآخرين.

وتتابع الحوار وقد تكسّر الجمود والخشية في النفوس، وبدت الكلمات أقرب، والقلوب أكثر ألفة، وفي نهاية اللقاء، قال الدكتور:

-وكل ما نريده منكم، أن تكتبوا لنا تقارير عمّا يجري في المدرسة، لنكون في

www.alkottob.com

الصورة.

–تقارير؟!

صاح عبد الله كالملسوع، ثمّ تابع والدهشة لا تفارق كل كلمة ينطق بها أمام الدكتور:

–نحن نكتب تقارير؟

–نعم وماذا في الأمر؟ مصلحة البلد تتطلب ذلك، فأنتم لا تكتبونها لعدو يريد خراب البلد.

–لا. أبداً، لن نفعل.

–ولماذا لا؟

–لأن كتابة التقارير مهمة ووظيفة أناس آخرين بحكم وظيفتهم وعملهم، أمّا نحن فالأمر يختلف، فهو أقرب إلى التجسس على غيرنا، مما يقلل من احترامنا لأنفسنا، واحترام الآخرين لنا. فابحثوا عن وسائل أو أناس آخرين يفهمون الأشياء بنضج أكبر، فمن يتعود كتابة التقارير لا يهمه فيما بعد الجهة التي تطلبها منه.

ولم يعقب الدكتور، هزّ رأسه بأناقة ونعومة ثمّ ابتسم وهو يرافق المجموعة إلى الباب، دون أن يغضب.

أيام مرت، أعقبها تصاعد حدّة المظاهرات والاحتجاجات ولم يعد إلى الحديث عن اللقاء مرّة أخرى مع صديقه الإدلبي.

***

وقد حمل إلى عبد الله نشر قصيدة من قصائده ثقة جديدة، ومع ذلك ظل ينشر بأسماء مستعارة هرباً من تبعات لا يريدها، وحين قرر الاحتفال بالمناسبة نزل مع سعيد وصالح إلى مركز المدينة، فركبوا الترمواي بمتعة واحتفال، ثمّ حضروا فيلماً سينمائياً في صالة "رويال" وتابعوا بعدها التجوال في الشوارع وحينما مرّوا من أمام سينما "روكسي" صاح صالح وهو يرى امرأة تعبر من أمامهم كتلة من السواد لا يبدو منها شيئاً:

–امرأة.

–بل شبح، ففي حلب لا ترى النسوان سافرات إلاّ في الحلم.

–لكنني رأيت العشرات منهن حاسرات سافرات أمام عيني.

–كذّاب. أين رأيتهن؟

www.alkottob.com

-لا تتسرع. اهدأ واسمع.

-أسمع مجنوناً يريد أن يقنعني أنّ الشمس تشرق من الغرب، لا، لا. قل كلاماً آخر.

صاح سعيد، فتابع صالح:

-نعم تسمع، فأنا كما تعرف نحيف، ضئيل القامة، أبدو أصغر من عمري بكثير. وهذا واضح.

-وماذا يعني ذلك؟

-أعوذ بالله من العجلة والعجولين.

-حسن، هات ما عندك، فكليّ آذان صاغية.

عند هذا الحدّ، تنحنح صالح، وتصنع الجدّ، وبدأ يروي:

-صباح أحد الجمع الماضية، سحرني الجو المشمس، والعصافير على الشجر فقادتني قدماي إلى هنا، تسكعت بلا هدف أرقب الناس والحركة الدائمة وواجهات الدكاكين، ثمّ توقفت أمام سينما "روكسي" فاقترب مني رجل كهل، يضع طاقية من الصوف على رأسه، ويبرق الذهب من أصابعه وأسنانه وقال:

-مرحبا خاي.

ورددت السلام بكلمات متشككة، فتابع:

-تحب السينما؟

فهززت رأسي وقلت بصوت خفيض:

-نعم.

-إذن تحب الدخول؟

ولم أحر جواباً، فقال:

-أنا مستعد لإدخالك السينما.

-لماذا؟

كان صوتي خافتاً، والخوف يلبط في عبيّ مثل فأر لجوج فتابع:

-الشغلة بسيطة، أنت تريد حضور الفيلم، وأنا أريد أن أربح.

-كيف؟

-الحفلة اليوم للنسوان، ولا مجال لدخول الرجال، وفي فترات الاستراحة

www.alkottob.com

سوف تحتاج الحاضرات إلى الماء، وهذه شغلتك، أعطيك الماء تبيعه لهن، كل كأس ببرغوث صغير.

-لا عمي لا.

-وفوق ذلك سأعطيك ربع مجيدي، بل قل نصف مجيدي، ولا برغوث فوق ذلك.

-لا.

قلت له بتردد، وقلبي يدق بعنف فبرم شاربه المصبوغ وتفكر لحظة ثمّ قال بعد ذلك:

-أنت ولد طيب، سأعطيك مجيدياً، ماذا قلت؟

-قبلت.

قبلت ثمّ دخلت، كانت الأضواء مطفأة، فانتبذت مكاناً قصياً ورحت أرقب الصور المتلاحقة بأنفاس لاهثة، ويدي تمسك بإبريق الماء والكأس المعدني، ومضى نصف ساعة على ذلك، وفجأة سطعت الأضواء فكاد يغمى علي والله، فما رأيته لا يمكن أن يراه الإنسان، نسوان، عشرات النسوان عاريات الأذرع والصدور، بيضاوات وسمراوات وشقراوات كعذارى الجنة يصخبن ويضحكن بعيون مكحولة وخدود تتفجر بالنار وزهر الرمان.

-وبعد؟!

قال صالح بلؤم:

-وما بقي لي وحدي.

ثمّ ضحك وقد بدأت المدرسة تلوح على البعد ببنائها الشامخ الذي يكاد يكون معزولاً عن المدينة آنذاك.

***

سنة مرّت، تلتها سنوات أخر في حلب.

وفي عامه الدراسي الأخير، عايش عبد الله جمر الغليان، واكتوى بلهب المواجهة العنيدة بين الحركة الوطنية، وبين المحتل الأجنبي، حتّى تحولّ البلد أرضاً من الجمر والغضب، ففي إضراب السبعين يوماً، وحلب منشغلة بالمواجهة والتحدّي، منعت قوات الاحتلال الفرنسي الأهالي من الصلاة في الجامع الكبير، خوفاً من وجود جموع بهذا الحجم، قابلة للاشتعال كقش يابس.

www.alkottob.com

وقد جاءه صديقه الإدلبي ذات يوم بعد غيبة قصيرة، وكأنها أشهر، فبادره على الفور قائلاً بلهفة:

-عبد الله..

-نعم. مالي أراك ملهوفاً؟

-أين أنت يا رجل كل هذه المدة؟

-أين تريدني أن أكون؟ شرقي المخمر، غرب الصاج.

-دعني من أمثالكم البائسة الآن.

-هآنذا وكلي آذان صاغية. تفضّل.

-سنذهب للصلاة في الجامع الكبير هذا الأسبوع.

-ماذا تقول؟

-سنذهب للصلاة في الجامع الكبير.. سمعت؟؟

-ولماذا الجامع الكبير بالذات، وفي هذه الظروف الحرجة من المواجهة مع محتل فقد صوابه؟!

-لأن هنانو سيصلي هناك.

-وأمر المنع؟!

-ليذهب إلى الجحيم هو ومن أصدره.

وجاءت الجموع من كل مكان، من الأحياء الشعبية وغير الشعبية، من القريبة والبعيدة، عمال وأصحاب دكاكين وموظفون وباعة جوَّالون، لابسو طرابيش أو عمامات أو كوفيات، وكانت العيون غاضبة، تقدح شراراً، والنفوس هائجة تجيش بسخط حبيس، ومهما مرّت السنون لن تفارق خياله المحموم وستظل صورة إبراهيم هنانو يجرّ عطفيه في صحن المسجد بتحدٍ وكبرياء والهام عبقري. ولم تكن الصلاة يومها صلاة فحسب، كانت شيئاً لا اسم له، شيئاً خارقاً، مزيجاً من عطر النبوة وتراب الأرض، مطراً تمتد خيوطه ما بين سرة الأرض وقبة السماء.

وقد كتب في دفتره: "لم يكن هنانو في تلك اللحظة رجلاً وحسب، بل كان وطناً في صورة رجل."

ثمّ ردّد الآية الكريمة "إنَّ إبراهيم كان أمةً".

وآخر العام حمل حقائبه وشهادته الثانوية.

www.alkottob.com

عائداً إلى بلدته استعداداً لرحلة جديدة إلى جامعة دمشق حيث سنوات من الصقل والتحصيل والجمر.

***

www.alkottob.com

على غير ما ألف أفاق ديران باكراً، ببساطة وآلية تثاءب وهو يرفع الغطاء عن صدره، وينسل من الفراش عارياً، يستقبل تباشير الفجر، ودوار خفيف يعصف برأسه، قام بحركات رياضية سريعة ثمّ تابع إلى المطبخ، وقد شعر بحلقه يلتهب من العطش والجفاف.

شرب قليلاً من الماء البارد فأحس بالانتعاش، ثمّ أعدّ فنجاناً من القهوة ومضى إلى ساحة البيت، حيث الطاولة والكرسي في مكانهما المعتاد، جلس ومدد ساقيه، وشرع يشرب قهوته بصفاء وعذوبة بعد أن أشعل سيكاراً من تبغه المفضل وسط هدوء بهي يسوّر عرائش الورد، ويتوج ذؤابات السرو، هذا الطالع بشموخ يريد أن يناط عروة السحاب الأبيض بينما أبره الخضراء تنتظر إطلالة إله بعربته النارية، ومواكبه الباهرة، لتبدأ تراتيلها الجنائزية اللائعة بأنين طويل لا يعرفه غير الأرمن.

رشف حسوة من فنجانه فأعادته حرارة القهوة إلى واقعه، تأمل أظافر قدميه، وأصابعه الطويلة، وجلده، ومربعات البلاط، وعضّ على شفته السفلى دلالة اليقظة، وودّ لو يلمس رأسه ليتأكد من أنّ الرأس ما زال موجوداً.

وتذكر هاتف الظهيرة، فأعادته الذكرى إلى أيام الاندفاع، والعشق، والشباب الغرير، أيام زكاء القربي المجنونة، تلك الفاسدة الصغيرة، التي جاءت إلى الدنيا نتاج لحظة جمعت بين عثمان القربي التاجر وإحدى الفنانات القادمات للعمل في مرابع دمشق الليلية من بلاد الضباب والجليد في الغرب.

فتنتها دمشق بروحها الأموية الشرقية أكثر مما فتنها الرجل الشرقي فتزوجت، وحين ملّت كل شيء رحلت مخلفة وراءها طفلة كانت ثمرة تلك النزوة، ولم يأسف الوالد كثيراً.

قالت له مرة بعد زواجها:

ديران.

www.alkottob.com

-نعم.

-هل أنت غاضب علي؟!

-لا أعرف.

-إذا كنت غاضباً فأنت مجنون.

-وأنت؟

-أنا سعيدة فزوجي غني، معه المال الذي سأرى بواسطته الدنيا وحين أمل من الدوران والذهب والفنادق سيكون أول عمل أفكر به هو خيانته.

-اسمحي لي أن أقول: هذا عهر.

-بل هو ميراث الدم الذي ورثته عن الوالدة العزيزة.

-ولا تخجلين.

-لا تكن غيوراً مثل فلاح أحمق.

-وشرف الرجل؟!

-رجل مثله يملك كل المال هذه لا يمكن أن يكون له شرف وإلا كيف استطاع أن يجمع كل هذه الثروة؟!

-الرجل يعمل في التجارة

-التجارة تعرف الشرف صفقه رابحة.

-اليوم تتكلمين فلسفة.

-وهو كذلك.

بالتأكيد ستأتي، ولن يكون الأول أو الأخير الذي يصطحب عشيقته لتعيش معه فهناك بعض الأطباء والموظفين الكبار الذين يعيشون مع عشيقات جاؤوا بهن لكسر رتابة هذه الأيام الرمادية. وقام من مكانه.

***

تحت شجرة التوت الكبيرة.

جلس "قره بيت نها بيديان" صانع العربات العجوز، كان قلقاً محاصراً، وخائفاً متهيباً، وضع فنجان القهوة، وتابع حلقات الدخان تتابع من لفافته، ومن وجهه الأشقر المحروق كانت تطلّ نظرته الحزينة، الجزعة وكأنه مقبل على أمر عظيم وخطير.

www.alkottob.com

فناء المنزل واسع تتناثر فيه قطع الأخشاب وأحواض الماء الواسعة لكنه اليوم خالٍ من أية عربة، فالمعلم "قره بيت" توقف عن العمل، هكذا قال للجميع:

–يوم الراحة يعني راحة.

ورغم التوسلات والإغراءات رفض كل عروض القرويين الذين اعتادوا على عمله المتقن وصدقه في التعامل ومواعيده الدقيقة، واقتصر في النهاية على هزّ رأسه الأشيب الكبير دلالة الرفض وهو يغص بالألم والدمع، ولا يبدي سبباً.

البيت خاوٍ ساكن لأول مرّة، فالنار مطفأة، وعدة الشغل متناثرة بإهمال وزهد لم يعرفهما المعلم طوال حياته التي قامت على الجدّ والعمل، والعمال صرفهم مع "بخشيش" مناسب لكل واحد. لذا بدا كل شيء يغرق في ذهول الصمت بدءاً بالخشب وانتهاءً بشجرة التوت والحيطان والعصافير التي وقفت واجمة أمام الجو الجديد.

كزّ على عقب سيكارة بنزق ورشف قهوته المرّة، ثمّ راقب قامة زوجته وهي تخرج من إحدى الغرف، لم يبقَ سواهما، فالأولاد هاجروا إلى أمريكا والبنت تزوجت وهي اليوم في حلب، قد يرونها أو تراهما في المناسبات البعيدة والأعياد.

واليوم؟! آخ من اليوم، وألف آخ من الأيام القادمة، لأنها لم تعد أيامك يا معلم "قره بيت" فأيامك مضت، صوحت بهجتها أعوام الذبح والترحيل، حيث أكلت من قدميك الممرات الجبلية، وصحراء دير الزور والرقة وعاشر جسدك الأرمني ثلوج الشتاء القاسي، والوحل، والريح الصرصر وعرف شموس القيظ، حيث يسقط مخّ العصفور، وتذوب الكائنات في هجيرها، فتآخى هذا الجسد مع كل ألوان العذابات، مع حشائش الأرض، وهوامها، مع الرجوم والوديان وكائنات الليل، ولصوص النهار، حتّى الأفاعي لطأت إلى جانبك وكأنك قربان مقدّس، ذبيحة المواقف الأولى، حيث كان على أجدادك أن يحفروا معابدهم في باطن الأرض، ليهربوا بإيمانهم عن العيون، هذا الإيمان الذي علّمك اليومي والخالد، العادي والخارق، وكانت بروق الأسئلة تمرّ برأسك الفائر من ألم وإيمان: ليش؟! ولا يجيبك سوى قنوت الوديان وانبساط الأرض العراء ولم تفقد وعيك أو أدعيتك، ركضت مثل سروة حزينة يتصاعد أنينها وسياط الجندرمة تسلخ لحمك الحيّ، والدم يتفزّر، يعلن عن انتمائه ووحدته، صابرت وصبرت، ورأيت في كل الوجوه وجهك الأرمني الصابر، المطمئن، المكابر، وكأنه غضار شقفه العطش، وتجمعت كل الصرخات في صرخة واحدة "أرمينيا"، ومع ذلك خاف لحمك الدامي وما خاف قلبك، تهرأ جسدك الأرضي، وما تزعزع إيمانك السماوي، ومع كل

www.alkottob.com

ضربة سوط كنت تسمو، تصعد الجلجلة، وسط نشيد سرّي من تراتيل الشهداء والقديسيين، حيث تبرز وجوههم أيقونات تزين صحراء الجزيرة الفراتية، ويظل السؤال معلقاً في سقف الحلق، يتدندل علقاً، حسكة شبوط، يختصر عمراً واخزاً من الألم والأنين.. يتصاعد: ليش؟! من أرسل القتلة بثياب الناس؟! من أعطى للأصابع حركة الإطلاق؟ وللعيون حدّة الرؤية؟ من قال للأدوات: اقتلوا شعباً لا طرائد من الثعالب والغزلان؟! من خلق الضدّ وقال: تلك الأضداد؟!

هاكم شريعة الذؤبان، حين البيوت نهبت، والأعراض سلبت، والأرواح –يا عزّ هاتيك الأرواح –باتت أرخص من التراب، وكان كل شيء ضدكم ضدنا، ضد الدنيا، الآبار تحولت إلى مقابر جماعية، والأنهار عصابات لليل والنهار، الطرق، و... و...

هذه المشاعر تلمسها في كل عصب، في كل جرح اندمل في الجسد، ولم يندمل في الروح، وما من شيء يرفأ جرح الروح، كل ذلك حولته أناملك التي لم تفقد عزمها إلى رنين أجراس الكنائس المثقل بتاريخ أنت صداه، تاريخ مثقل بدمع وحجارة، بنار وحديد أو نحاس، بعصب ودم، نغم وقيثارة صعد منها كل هذا البكاء في براري الموت الأرمني حيث لا مفرّ من دفع ثمن ألا تكون الآخر الضدّ، وما خنت.

نحلة تستيقظ فيك بعد موت وعطش، تطلب زهراً لعسلها هذا الشعور الذي يتوالد فيك الآن يا معلم، ومع ذلك لا يفهم فيك الرأس ما تقوله الأصابع للقدمين.

–الطريق بات واضحاً.

–لا تنظر إلى موطئ قدميك فتعثر.

لو أثرت مثل هذا الحوار لخامرك الخبل، ومع ذلك تعبر عنه الرؤيا التي لا يفسرها أحد، فالعربات وحديد العجلات قالت كل ذلك ومع ذلك فهمت –ولكنّ ذلك كان متأخراً –فأنت اليوم تفقد كل شيء، يسكت الأنين في الخشب وحديد العجلات، وتفقد أصابعك رنين اللغة، ويهدأ الصخب في البيت ولا يبقى لك سوى الجسد المصلوب وعبء الشيخوخة.

واليوم؟!

ما في شغل؟! ما في معلم قره بيت؟ أين ذهب كل ذلك؟ وماذا بقي؟! هل هو هذا الحنين الجارف الذي لا يقاوم؟ أم الانتماء إلى مجرّة أخرى غير المجرّة الأم –قد لا تفهم كل ذلك يا معلم –لكنك تحياه، تحسه، تلمسه بأصابعك الملهمة،

www.alkottob.com

كما تلمس جلافة الخشب فيتحول إلى موسيقا ولحم ينبض بالحياة تصدح في الياس.

***

–أهلاً وسهلاً مسيو ديران قال قره بيت وهو يقفز من مكانه ويقف باحترام وتقدير، فردّ عليه ديران بمودة وتقدير:

–مرحبا معلم قره بيت.

–أهلاً.. أهلاً.

وتصافحت اليدان ثمّ جلسا..

–أراك اليوم وحيداً

–صرفت العمال

–لم يعد هناك عمل؟.

–نعم.

–إضراب؟!

–وضحك بينما اقتربت سيدة البيت بالقهوة، ففاحت رائحة ألفة ومودة، وأجاب قره بيت:

–لا. بارون ديران

–ميرسي.

وتناول فنجان قهوته شاكراً، ثمّ رشف منه جرعة وأردف:

–مشروع جديد؟!

–لم يبقَ من العمر ما يكفي لمشاريع جديدة.

–إذن.

–لقد قررت العودة.

–العودة؟!

–نعم.

–وإلى أين تريد العودة؟

–إلى أين؟ إلى أرمينيا.

ووجم ديران ولم يعقب، ورفت في عينيه رعشة غامضة لا يدرك معناها إلاّ

www.alkottob.com

الخبير المدقق.

–لقد وفيّت هذا البلد كماله في رقبتي من دين، ولم يبقَ أمامي إلاّ العودة لأموت هناك في الوطن، مثلي مثل أي غرنوق عجوز.

–ولكن لماذا لا تهاجر إلى أمريكا؟

–وماذا أفعل في أمريكا؟ من أجل المال؟ هنا أربح أكثر من أمريكا.

ولم يعرف ديران بمَ يجيب؟ فتابع شرب قهوته.

***

–قلت ما اسم البلد؟

–الرميلة، أتعرفها؟

–الرميلة؟

كرر الاسم وهو يهزّ رأسه الأشيب باسماً، ثمّ رفع نظره إلى وجه أبي الخير الفتي دون أن يتكلم أو ينطق بحرف.. ثمّ انفجر:

–الرميلة يا سيدي قرية، وكلامي هذا قبل عشر سنوات فهي لا بدّ كبرت كثيراً الآن، تقع على نهر الفرات في الشمال، ربما ضايقك جوها الحار والعجاج في الصيف والوحل في الشتاء، لكنك سترجع بثروة فهي منبع القطن والصوف والسمن والقمح ومشاكلها قليلة.

–لكنهم قالوا لي في الداخلية، أنت ذاهب إلى بلد مثل تكساس في أفلام الكابوي كل يوم رصاص وخناجر وقتلى أمام سراي الحكومة، الوزير غاضب من هذا الأمر والمراجع العليا محرجة، وقد اختاروك لسمعتك، لتعيد هيبة الحكومة إلى ذلك البلد، ومعك صلاحيات فوق العادة من أعلى مستوى، المهم أن تتوقف هذه الموجة البدائية من العنف غير المعقول وغير المفهوم، فلا أهداف سياسية أو اجتماعية أو دينية وراءه مجرد هيجان دموي.

–إياك أن تردّ على هذا الكلام، فالرؤوس الكبيرة، والكروش المنفوخة وراء الطاولات اللامعة والرتب والنياشين عند أول زوبعة يختفون، اسأل من عمل معهم طويلاً، تجدهم في المكافآت والثناءات في الصف الأول، وفي تحمّل المسؤوليات في الصف الأخير، ويقدمون ضحاياهم، فلا تسلمهم رقبتك، أو تمكنهم من أذنيك.

–لا تنسَ أنني أبو الخير، بهذه الذراع القوية ركعت كل زعران وشيوخ الشباب في الشام والجوار، ومسحت بالمتظاهرين من جماعة السياسة الشوارع.

www.alkottob.com

–الشيخ منا يجد كل ما قمتم به من عهد الزعيم إلى الآن لعب صبيان، فالذراع القوية بدون عقل تتحول إلى ساطور.

–يا شيخ لا تتحدثون إلاّ عن العقل.

–هذا لأنكم جيل طلّق العقل وركب موجة "الحيونة".

–اصرفوا العقل مكافآت ورتباً يا حضرة الشيف العجوز.

–موفقّ أبا الخير، لا تنسَ أن هؤلاء الذين تتعامل معهم أرواح وأبناء بلد.

–تكرم أبا عدنان.

تذكر هذه الحوارية بينه وبين جاره المتقاعد العجوز، والسيارة تخترق في غبش الفجر شوارع دمشق دمشق النائمة، أميرة أموية تحلم بذراع هشام العظيم، وقاسيون يبدو جليلاً وقوراً يدفع بمناكبه الجرداء السحب الشاردة وبقايا ضوء النجوم، وثمالة من سكرة الماضي لا زالت في خوابيه.

نظر عن يمينه، المقعد المخصص لثلاثة خالٍ إلا من امرأة جميلة جداً، أنيقة وواثقة جداً، يبدو أنها دفعت أجر المقعدين الآخرين.

–الوجه الجميل يجلب الفأل الحسن.

قال في نفسه.

–هذا الكركدن يبدو مضحكاً في ثيابه العسكرية، وهو يتصنع الحلم والاتزان، لكنه نافع في الطريق ومفيد.

قالت في نفسها، والسيارة تمضي كنجمة الصبح، تعبر البساتين، وتخلف أضواء البيوت الشاحبة، وحركة الاستعداد السرية لاستقبال الصباح تعلن عن نفسها تنتظر لحظة أن يولد النهار من الليل كما يولد السيف من غمده.

–مثل هذا الجمال يقلب حكومة.

قال الوكيل، وقد حبس أنفاسه، وكأنه يتقدم فصيلاً عسكرياً ذاهباً إلى الإعدام في غبش الفجر.

–هذه العصا الحكومية الغليظة لائقة بالقرى التي تذهب إليها.

–قالت المرأة، وشعور جارف في سيكارة، تغرق في دخانها الأزرق يسيطر عليها، علها تكسر حدّة التوتر، لكنها قد تكون مدخلاً إلى سوء ظنّ وخطل وضلالات تنكر عليها الراحة التي تستسلم إليها.

–لها رأس ملكة، وجسد عاهرة.

www.alkottob.com

قال الوكيل.

–هذا الشارب شارب مصاص دماء.

قالت المرأة:

–داخل هذه الثياب الغالية جنّة صغيرة من الدفء والقهوة والهيل، لا يدخلها إلا الحصان الفحل وهي ذاهبة إليه.

قال الوكيل بثقة تقرب الإلهام.

–لا يمكن لمثل هذه اليد الثقيلة أن تعرف لمسة الحنان.

قالت المرأة.

–جمال ومال.

قال الوكيل.

–ترى ماذا يدور في هذا الرأس؟ أي نمل أسود يدبّ الآن؟

قالت المرأة.

–بالتأكيد وراءها عائلة تملك نصف الشام، وزوج من كرتون.

قال الوكيل.

–هذا الوضع محرج، كمن حبس في قفص مع غوريلا صامتة ومهذبة.

قالت المرأة.

–ومع هذا يمكن أن تكون عاهرة على مستوى عالٍ، عشيقة لواحد من الضباط القادة أو الوزراء.

قال الوكيل.

–اللعنة على الرميلة. وعلى ديران ميناسيان.

قالت زكاء القربي.

–اللعنة على الرميلة هذه القرية التي نسيها الله، ترى كيف يتذكرها القائد العام للدرك ووزير الداخلية؟

قال أبو الخير ثم استرخى، وقد بدت النبك في ضوء الشمس الغامر.

***

حين ألقت نظرتها الأخيرة على البناء الباذخ.

شعرت بذلك الشبع القابع في داخلها يتقلقل، وبتماسكه الصواني يتفتت،

www.alkottob.com

يتحول إلى حوّار هش ويتلاشى، شعرت أنها تغتسل من رائحة الغرف الواسعة والخشب الصامت، وعيون الخدم الخرساء والمرمر البارد، ومن الشبع، الشبع من المال، من التسلط، ووهج الذهب البارد، والرحلات، والثياب ووجوه الضيوف المقنّعة، شعرت أنها سلحفاة تخرج من ثلاجة وعند أول لمسة دفء إنساني خارج أسوار البناء تدفق الدم في عروقها يكمل دورة النشيد الأزلي الخالد، ومن داخلها همس الصوت:

. أنا إنسانة.

ثم انطلقت في الشوارع، كانت وجوه الناس قريبة، وأنفاسهم تلامس بشرتها وشعرها، وأيديهم قريبة أيضاً، لو شاءت لمستها بكل بساطة، هذا القرب من الناس وحشي وأنيس، يؤكد ذاته خفية، وبإشارات غامضة فيها الرغبة والتكامل والخوف والفقدان، ينطلق مرة من عيون غزلة، ومرّة من بسمة ذابلة، وأحايين من حركة الأصابع والخطوات، كادت أن تصرخ بهم "أين كنتم كل هذه المدة؟ بل أين كانت هي؟" أرنب حبيس في قصر من البللور في ظروف مثالية للموت السعيد.

وقاءت كل ما في داخلها من امتلاء وخدر وغثاثة هذا الداخل المعقم كقطن نظيف، لينطلق من الهدير، والأجراس الضوئية، والفراشات الملونة والإثم المتألق فالحياة الباردة طعام بارد، تأنفه الروح المشبعة بعبق الفلفل والبهار والدفء، وضوء الشمس كصارية غير منكّسة.

. من أجل البنت على الأقل... ها؟!.

. نعم.

قال بخنوع، ثم تحرّك في الغرفة بارتباك. وتابع:

. أرجوك زكاء.

. البنت قلت لي...؟

. نعم أرجوك.

ـ وأين البنت الآن؟! في المدرسة الداخلية أليس كذلك؟ كم مرّة نراها في السنة؟ خمس مرات، ست مرات...؟

. ولكن...

ـ أعرف سلفاً ما ردّدته على سمعي مائة مرَّة. التربية، والراحة، والتأهيل، والحياة، والمستقبل.

www.alkottob.com

. زكاء. اسمعيني.

. شيء واحد من الممكن أن أسمعه منك إما طلاقي أو طلاقها، من الممكن أن يكون لك بيتان وسيارتان ورصيدان، أما زوجتان؟! مستحيل.

. زكاء.

. من كان يصدق، أنَّ هذا الرجل المشغول دائماً بالأرقام والحسابات يمكن أن يدبر هذا التدبير الماكر؟ سنة كاملة... سنة؟!

. زكاء اسمعيني، ما يلزمك الآن رحلة طويلة للتفكير والتكيف وسترين أن كل ما أحسست به مجرد تهويل.

. تهويل؟!

. نعم.

. نعم؟ جميلة هذه النعم، رائعة وفاتنة مثلك.

. لو فكرت قليلاً لوجدت أنها ليست نهاية العالم.

. فكرت؟! ليست نهاية العالم؟!

ردّدت بمرارة سوداء وسخرية، ثم تابعت:

. حتى الكروش الكبيرة بدأت تفكر، وتفكر بصوت عالٍ يا رب السموات، أين كانت كل هذه الأفكار مخبأة؟ هل طرحوا في الصيدليات حبوباً للفهم أم جرعات للفلسفة والمنطق؟

. بالرغم من كل شيء تظلين السيدة المطلقة.

. السيدة على ماذا؟

. على كل شيء.

قال واختنق وسط إحساس عميق بالورطة والعناد والإصرار على عدم التراجع، كطفل يرفض أن يتنازل عن لعبة اشتراها خلسة من مصروفه الخاص، رغم التأنيب والعقوبات، حصان عجوز ينهزم أمان حسّ التلاشي بدأ الخوف يدفعه إلى خطوات خارج مدار التوازن وهو الذي عاش مساحة من اللحم والشيكات والورم المالي يقبع كرنين جرس صغير، ينحدر وزكاء تتألق وتصعد، حمامة بيضاء إلى قمة النضج والثراء الرخص، يقلب أصابعه المثقلة بالخواتيم والشعر الأسود، وهذا الجلد اللامع المدهون بالعافية، غشته غمامة من الكتامة والجفاف، ورنين الجرس الصغير يثقب جدار اللحم مثل القرحة، وينحدر ويظل يزهو، يزهو

www.alkottob.com

بثيابه ولغوده وأمراضه وبرودة فراشه، ولعبته الصغيرة في خداع زكاء، والزواج.

. حين يكبر الثور فمكانه اللائق المسلخ.

قالتها بالفرنسية، وخرجت بشموخ أميرة أموية تشهد سقوط الشام من شرنقتها الحريرية إلى الضوء والدفء، أغلقت الباب، شعرت بآلاف الأذرع والشوارع والبيوت تشرع أبوابها ونوافذها وشناشيلها، ولم تسأل نفسها إلى أين عليها أن تذهب؟ فهي إن تعبت من المسير، ومراقبة العالم الذي عادت إليه بعد غيبة، فستذهب إلى منزل العائلة الباقي، العائلة التي لم يبقَ منها سوى جدّة عجوز، وأخ خسر كل شيء ثم هاجر إلى البرازيل، وحكمته في ذلك:

ـ لا تعش في بلد عرفك غنياً إذا افتقرت، أو كنت سيداً فيه فخانك الزمن فتدنيت، فمن يسقط تكثر السكاكين عليه.

ولم تعرف قيمة كل ذلك إلا الآن، نعم الآن، اكتشفت معنى العبارة التي قالتها يوماً في حديث عابر مع ديران "لا يعود التاجر إنساناً إلا إذا أفلس" فهذا الجلد القاسي من الغرور والثقة العمياء والاستهتار يتقشر كلحاء الشجر ليطل اللبّ الإنساني الأبيض اللدن، فتعرف العين ملوحة الدمع، والحنجرة الشجو، والقلب نبضه الحار، هذا الانكسار الأنيس في حركات أخيها الأخيرة، والحيرة، والمراجعة واللوم لم تثمنه إلا الآن، نعم، فلقد تغيرت نظراته، أصبحت أكثر أنساً، ولمسة أصابعه فارقتها خبرة التاجر بالأقمشة والمعادن، وبات لها عصبها الإنساني، نعم الآن.

***

. هذا الرأس الجميل لم يخلق للتفكير والتأمل.

قال الوكيل، والسيارة تخلّف النبك وراءها، والسائق يفتح حواراً مع الراكب الذي إلى جانبه حول مواصفات السيارات، وأنواعها.

. كل شيء أصبح حقيقياً، فمن يصدّق أن زكاء القربي في طريقها إلى قرية لا يعرفها أحد في دمشق؟!

قالت المرأة، وراقبت الطريق، والمرتفعات، ووجوه الفلاحين في القرى، وجوهاً معجونة بالشمس والتعب والعرق:

ـ امرأة مثل هذه لو طلبت إليك رأس قائد الدرك لقدمته لها على طبق من فضة، أو لبن العصفور لخلقته لها من تحت الأرض، ومع هذا تذهب وحيدة، وحزينة إلى جهة مجهولة، زمن ابن حذاء، ورجال من جصّ.

www.alkottob.com

قال الوكيل، ثم أخرج علبة الدخان بأبهة قبضاي أزعر.

. بدأت الزوبعة.

قالت المرأة، وهي ترقب الأصابع الخشنة ترفع العلبة، وتسحب السيكارة، تغرسها بين الشفاه الغليظة وتشعلها:

. كل هذا الوقت لم يخطر لك الدخان إلاّ الآن؟!.

قالت المرأة، ومع أول نفثة أحست بدغدغة في حلقها وخيشومها وحلمة ثديها، وبين أصابعها:

. تشرب سمّاً.

قالت المرأة، ولأول مرّة ترغب في شيء ولا تجرؤ على الاقتراب منه، فكل تعاملها كان دائماً مع مدنيين، أما الدرك؟!

. الدرك كلاب حراسة لقصور الأغوات في الريف.

لا تدري متى سمعت هذه العبارة؟ ولا ممن سمعتها؟ لكنها تذكرها الآن وهي تراقب حركات الوكيل الجافية، ودخان سيكارته المُغري.

. أدفع رشاوى عام كامل لو رافقتني إلى الرميلة.

قال الوكيل.

. لو تكلم لكان أكثر قرباً إلى النفس، أو على الأقل تبددت هذه الوحشة.

قالت المرأة:

. لأول مرّة تنهزم يا أبا الخير، ولا تجرؤ على الكلام، مجرد الكلام، ومع من يا شيخ الشباب، وبعبع الدرك؟! مع امرأة.

قال الوكيل، يسخر من نفسه، ومن أدبه الذي يليق برجال الصالونات لا الدرك:

. هذا الوضع غير معقول، فليأكلني ولكن ليتكلّم أولاً.

قالت المرأة، ثم نظرت إلى الوكيل وقالت:

. ممكن؟

. نعم.. تفضّلي.

قال مأخوذاً، فتابعت:

. لو سمحت، زجاج النافذة إلى الأسفل قليلاً، فالدخان ملأ السيارة.

www.alkottob.com

. أمر الجمال.

قال الوكيل وبدأ إنزال الزجاج وقد لمعت في عينيه فرحة ناعمة أعطت ملامحه شكلاً إنسانياً مقبولاً وقريباً من القلب، يبدد صورة الجلاد والخشية التي تفرضها بزّته الرسمية، وتاريخها في البلد.

. مرسي.

قالتها بالفرنسية دون قصد، فتردد في القول:

. عفواً.

وغرق في سعادة غامرة قلّما أحسّها من قبل، وقد بدأت في داخله مثل أسراب من النحل والفراشات وأزهار الحوذان والنمل النبوي الأسود، تتحرك ويتحرك الدم في عروقه التي ظلّت مشدودة كل هذه المسافة، دون سبب واضح إنما هي مواقف قلّما صادفها خلال عمله الطويل.

. أظنّها حمص.

قالت وهي ترقب الأبنية والبيوت الممتدة تلوح من بعيد معلنة عن مرحلة جديدة من سفر الجنون هذا الذي اختارته كما تختار ثوباً أو قبعة من محل عام من محلات الصالحية.

. أعتقد أنك وصلت.

قال بصوت من لا يريد للرحلة أن تنتهي.

. لا، ليس بعد.

. إذن حماة.

. أبعد من حماة.

. لم يبقَ إلا حلب.

قال وقد لذَّ له أنها لم تفارقه، وأن هناك مسافة جديدة تعبرها معه فتبدّد وحشته وضجره.

. لم تحزر. وأظنّ حلب محطتك أنت.

. محطتي لن تخطر لك على بال.

. واحدة من قرى حلب؟

. أبعد من حلب.

www.alkottob.com

. إذن قد تكون الرميلة.

وهزّه اكتشافها الصغير، فصاح:

. وتعرفين الرميلة؟ غير معقول.

. لأنني ذاهبة إليها.

. وأنا أيضاً.

قال الوكيل ولم يصدق، إنه يحلم، بالتأكيد يحلم أو هو نوع من السحر، فالمناطق تلك مشهورة بالسحر والجنون، وها هو في موقف لا يحسد عليه.

***

لم ينم حمو الكاولي ليلته.

هاجمه الهلواس والأرق والتذكر كأسراب البرغش، ضاء قلبه فانوساً من العشق والدم المشاكه لون الكرز، واستيقظت الأيام السالفة من مقبرتها، قطعاناً من العجول والأكباش والتيوس يدفعها الرعاة في المقاريض والضهاري وشعبان الأقحوان والخذراف البري والكدري.

والدروب تسلمه إلى الدروب، وعيون المرأة الجزعة كعيون عنز الغزال الشاردة ترقبان خنجراً يولد من وراء رجم حجري أو يخرج من مغارة يعرف طريقه جيداً إلى العنق لينجز شعيرة الكاولية الخالدة "الذبح مقابل الخطف".

. حمو سيدركك هورو ولو اختبأت في بطن قطاة.

رنّت كلماتهم القديمة في ذهنه رنين أجراس الكباش:

. أعرفك لن تهدأ حتى تجدها.

قال لحظة صحوه الأول.

والنوم عصي عليه ليلته، وكأنما أهدابه شدّت إلى حواجبه، والهلواس يبعثر ما في داخله من أمن، يتمترس بين العصب والدم، ويطلق كلابه القرباطية على درّاج الروح، ويمام الحشا، هذا الجو مسكون، يطلق رائحة الضبع الجائعة، هذه الرائحة تملأ المكان، تنام في جمار القلب ونياطه، تعلن أن ما حوله غير آمن، ثمة حركة خطوات غريبة وبلطة وخنجر، وعيون حاقدة ترصد غفلة، وتدرس المكان، والكلاب تعوي في الخارج، وتوثات أويس القرني ترفّ بأذرعها الخضر، والقمر قصدير، خفّ جمل أبيض تائه في الفضاء، وتصله حركة دونا والولد وصوت تنفسهما المنتظم فيطامن من قلقه.

www.alkottob.com

وعند الفجر غفا، وظلت عيون القلب يقظى، تحركت دونا، فتحت قلباً وعينين وقامت ولها رائحة أوراق التوت، كان الخيط الأبيض يخالط الخيط الأسود حين خرجت من البناء المتداعي القديم، ومضت تحمل وعاء الماء إلى الساقية القريبة، ومن مكمنه راقبها، زوالة سوداء تمضي في الفجر الندي، وليس سوى الكلاب والحجارة وشجر العاقول بورده الأحمر، وأسنته المدببة.

عند الساقية انحنت على الماء ثم اعتدلت، فشعرت بالزند الحديدية المشعّرة تلتف حول عنقها، وبالكفّ تغلق فمها، وبرأس الخنجر البارد ينغرز عند ملتقى الصدر بالعنق حاداً هتَّاكاً، يقص العصب والأضلاع إلى السرّة ثم الحوض، واندفع الدم والأنين، وانهار الجسد في خور الساقية، وارتفعت البلطة تقطع الأطراف والعظام وتفصل الرأس عن الجسد، ثم ينسل الشبح كما جاء.

وفي الصباح لم يخرج يزدشير إلى العمل، وظل صندوق البوية مركوناً في الزاوية وقد طوّق الدرك المكان بعد أن اكتشفت الجثة المقطّعة من قبل الورّادات، وشاع أمر الجريمة كالنار بين الناس.

***

www.alkottob.com

الكتاب الخامس
الخلوج

إيضاح:

ومن عادة البدو.

حين تنتج الناقة وليداً، أن يذبحوه . أحياناً . لطيب لحمه، أو لحاجتهم الماسّة إلى هذا اللحم في سنوات المحل والجوع، ويُجمع دم الذبيح في حفرة، تردم بالتراب ومع ذلك تستدلّ الحيوانة عليه، فتشمّ التراب، وقد أقسم كثيرون إنهم رأوا الدموع في عيني الناقة وهي تقف على المكان الذي ذبح فيه وليدها، وكي لا يغرز حليبها، يسلخون جلد الذبيح، ويملؤونه تبناً، ويخيطونه على شكل "بوّ" لتدرَّ حليباً، ينتفع به البدو، ولا ينتفع به الوليد، وكيف ينتفع الموتى بحليب النوق؟!.

www.alkottob.com

www.alkottob.com

حين سمع الحاج سعيد النهري بالأمر، استعاذ بالله.

ثم التفت إلى جاره وهو يرفع كأس الشاي ويتساءل:

. قطّعها تقطيعاً؟!

. ورمى كل قطعة في جهة.

. ولْ، هذا ليس من عمل البشر.

. وأكثر من ذلك يقولون شقّها من حلقها إلى رحمها بالخنجر.

. اللهم سترك وعفوك، تحوّل البلد إلى مسلخ والحكومة نايمة.

ـ الحكومة ما تنام يا حاج، وإن نامت، نومها نوم الذيب، عين وعين والفرج اليوم على الطريق.

. لم أفهم قصدك.

. البارحة وصلت برقية من الشام بتعيين قائد فصيل جديدة للدرك، يقولون إنه كبريت أحمر، عايق ومحنّك.

ـ كلما جاءنا قائد فصيل جديد نقول خلاص هذا ما بعده، ثم نكتشف أنّ الشيخ الفلاني شراه وجاء به لتأديب خصومه الخارجين على سلطته وليس على سلطة الحكومة، دفع للقائد العام للدرك ليأتي به، ويدفع خصومه أكثر لنقله، وهكذا الدرك من اختصاص المشايخ الصغار والأغوات المزارعين والقائمقام من اختصاص شيخ واحد شملان بن جابر بحكم مكانته في المجلس النيابي ومكانة أبيه بين العشائر.

. الأمر اختلف اليوم يا حاج فهيبة الحكومة مضعضعة، والشام أرسلت رجلها القوي لا رجل الشيوخ.

ـ شهر شهران أو ثلاثة إفرض وتعود هيبة الحكومة وتدور عجلة القانون والسلطة ويخاف الناس، بعدها؟! يطرح رجل الحكومة في مزاد الشيوخ والأغوات

www.alkottob.com

لإعادة هيبتهم هذه المرّة في أعين الفلاحين والأتباع، فيقبض القائد العام للدرك من جديد ثمن رجله ويقبض الرجل ثمن خوف الآخرين على شكل هدايا ورشاوى أولها في البلد وآخرها في مكتب القائد العام، لعبة واضحة للطفل الصغير مثل واحد زائد واحد.

. والله يا حاج الجلد الوسخ هو الذي يجلب على صاحبه الجرب.

. لكل داء دواء.

. إلاّ الحماقة والعقل الناقص يا حاج.

قال الرجل ومن بعيد لاح لعيني الحاج "أبو علي" بائع المشبّك، يحمل صينيته على رأسه وينادي على بضاعته بصوت ثخين أشبه بخوار عجل، وخلفه لمّة من الأطفال والذباب والعجاج، وشرواله الأسود يعطي نصفه الأسفل شكل الدنّ الفخاري، فتذكر زوجته المغضبة عند أهلها، وحديثه عن حماته الظالمة وعمه المغلوب على أمره، فقرر بينه وبين نفسه أن يذهب للوساطة بعد صلاة العشاء وصوت سرّي جذّاب يدفعه إلى هناك، وقد ظهر كل ما حوله مدهوناً كحائط من حيطان السراي الداخلية يلمع بنعومة تذكره ساعات عمره الخشنة، ساعة انشقت شجيرات السوس عن وجه أحمر طافح بالعافية، تطل منه عينان زرقاوان، وجه باوم الألماني، وذراعه القوية تمتد كالقدر ترفعه من سقطته.

. من أين جئت يا ولد؟

سأله بعربية مكسرة تعلمها من تعامله مع العمال والأهالي، لم يجب، أشار إلى الشرق أي من هناك، وكان الجوع والتعب والخوف قد هدّ قواه، فلم يسأله أكثر، حمله كالفرخ ثم ألقاه في الغرفة، مشيراً إلى الطعام والماء، فاندفع مثل جرو يأكل بيديه وفمه ورأسه ورجليه، وباوم يضحك، يضرب فخذيه ويضحك والجسد المكدود تدور فيه القوّة.

باوم كان ابن حرام ضاحكاً وسعيداً، يعمل كثور في النهار، في جمع عروق السوس وتشغيل آلات معمله ويشرب كفيل في الليل، علمه كثيراً، وذات مرّة جاء شريكه من حلب مع الإنكليزي صاحب الشركة المنافسة، وبعد جدال صاخب وبرود من الإنكليزي الذي عاد من حيث أتى، ظل باوم ساهماً، وبعد حرب سريّة لم يفهمها أفلس الألماني، باع كل شيء، وأشعل النار في البقية التي لا تباع، ثم رحل إلى وطنه وهو يشتم الإنكليز والتجار، فنزل إلى البلد، وقد أحزنه رحيل صاحبه الضاحك من القرع في رأسه، وعمل خادماً في بيت الفراتي يجلب الحطب

www.alkottob.com

والماء ويعتني بالحيوانات.

. ملعونة تلك الأيام.

غمغم، ومن بعيد مرّت سيارة الدكتور عائدة بسرعة، فقال الجار وقد رآها:

. عاد الدكتور من مكان الحادث.

وخطرت في باله على الفور فريدة زوجته. لماذا كلما ذكر فريدة يهتز حطبه الجاف فيكتسي بالخضرة والزهر؟ لماذا؟!

***

جلس ديران وحيداً.

صبَّ قدحاً من الويسكي، ودخّن كثيراً، فلقد هزّت الجريمة وجدانه، شرب قدحه وفي غمره الاستغراق رنَّ جرس الباب طويلاً وبإلحاح فقام متثاقلاً إلى المدخل وهو لا يجد في نفسه رغبة في استقبال أي مخلوق ومع ذلك فتح الباب فدهمته رائحة العطر الأنثوي الفاغم والقامة المزروعة مثل زنبقة في المكان... فصاح:

. زكاء

ثم أوسع لها الطريق لتدخل... وهو مبهور الأنفاس.

***

www.alkottob.com

من أعلى المرتفع راقب محمد الأخرس العين.

بيوت الشعر والكلاب، والصبيان، والخيل الأصيلة، والغنم المتخلفة، وبعض القباب، وبيوت الطين المستعملة كمستودعات للعلف ومأوى للحلال أيام البرد الشديد، أو الثلج.. آه يا للثلج! هذا القاسي الأبيض سفاح الشتاء البارد الذي يقتل بلا رحمة، وبين البيوت تدرج بعض جواري العبيد أو البدويات عائدات من العين التي أعطت للقرية اسمها، وتركزت نظرة محمد الأخرس على بيت الشيخ جابر يمتد مثل غيمة سوداء عملاقة من الأعمدة والشعر وإلى جانبه بيوت العيال والزلم خاصته.

ـ ماذا تقول يا محمد بن زامل؟ يا عجوز. الشيب حوّل رأسك إلى رغوة بيضاء مثل رغوة الحليب، واللسان مربوط، سبقك الثلج يا مسبوع لوى لسانك وربط عروقه، فسمّاك عربك الأخرس، نسوا "زامل" شلايا الغنم والقطعان تروح وتجيء أمام عينيك اللتين بدأ نورهما يخبو، ينطفئ، وأنت ولا أنت، كل شيء راح يا بن زامل مضى سريعاً، وخلفك مثل خرابة، مثل قهدة حزينة في صدر يتيمة وما ذنبك يا عجوز؟!

أيام ضحكت لك، وأرادت أن تحقق لك ما تريد... وأنت يا محمد الساكت، يا محمد الثلج، يا محمد الأخرس، قلت للدنيا بضراعة:

ـ يا دنيا... يا مهيوبة، يا شينة وزينة، يا كبيرة وزغيرة، يا قلب قطاة ورجم صوان طلبتي هينة، ولا تعكر مزاجاً، مالي شغل بالنساء، ولا بالإبل الوضح، ولا لي طمع بالشيخة، كل همي قطيع غنم لي، بأجراسه ومراييعه وكلابه، وحماره.

سرحت راعياً عند خلق الله عشرين عاماً، اخترت أحسن ما في القطعان أجراً لك، وكثرت أغنامك، وخذ يا بن زامل من الفطايم والخرفان، وجئت بالأجراس والمرايا والخرز، جئت بالكلب والحمار والخنجر، وحين تزوجت كل أخواتك اشتريت بالمهر أغناماً وإذا ما سألك سائل:

. متى تتزوج يا بن زامل؟

www.alkottob.com

تقول متبرماً:

. ريّض بعد يا خلق. همي القطيع.

ماذا أصابك اليوم يا عجوز؟ تفتح جراحك العتيقة، وتعاود استرجاع الماضي، إيه يا بن زامل!! يوم تثور زوبعة من الغبار من بعيد، يقولون: قطيع ابن زامل، يوم يجيء ذكر الأغنام يقولون مثل غنم ابن زامل. وأنت اليوم... الأخرس أم الساكت أم المخبل؟ راح الحلال، وراح الاسم معه، ولم تطع أحداً يوم رحلت، وأمعنت في البعد، وما دريت أن الدنيا غدّارة، بيد تعطي وبالأخرى تأخذ.

أوغلت بكلابك وقطيعك في الحماد بعيداً، ومع المغيب بدأت دنياك تدثّ، والسماء تتعكر، قلت تواسي نفسك:

. مزنة وتعبر.

وقرصك قلبك، ولاجت كلابك، والمزنة تحوّلت ثلجاً، تربطت رجلاك، تخبلت، والأغنام اجتمعت، والثلج يتعاظم، ضجت الكلاب، وعوت الذؤبان، والثلج يطمّ كل شيء، وصياحك يتخافت، وكل ما حولك أبيض وبارد حتى كادت أطرافك تتجمد.

وكوّمت خرافاً تحتك وخرافاً فوقك فبنى الثلج منكم قبّة بيضاء استدل من خلالها الرجال عليك، فحملوك بين الموت والحياة، بينما أتى الثلج على أغنامك وكلابك وحمارك، وقد خرس كل عضو فيك.

. دنيا. يا بن زامل.. دنيا.

وانحدر من التلة وهو يقصف عوداً بين يديه، في طريقه إلى بيت الشعر، يعد القهوة المرّة للمساء الهال، وقد استعاد هدوءه، وغمرته سكينة مكابرة، ومن خباء مجاور مدّ زنجي أسود رأسه، وصاح ساخراً، وروحه الداخلية العابثة، المتألمة، الملعونة لعنة لا تمحي تبدو جلية في نغمات صوته:

. محمد، أنت يا محمد.

ولم يجب تابع انحداره كالمسحور، والأرض تحت قدميه جاسية صلبة، تكشف عن نبضها السري وروحها المفردة، والقطعان تعود مبكرة إلى مراحها على غير العادة، تثير الضجيج والعجاج.

. يا أخرس، يا أثول.

وتابع انحداره، وقد قرر ألا يردّ ولو كان المنادي ضاري بن سلطان، فالعجاج ومنظر القطعان ذرّ الملح على الجروح القديمة، وفتق قطوبها، فاشتعل من الداخل بعوامل جديدة، تك كدلّة القهوة المرّة، فضرب الأسود كفاً بكف:

www.alkottob.com

. هل تخبل محمد الأخرس أم أصابه الطرش؟

قال ثم أردف:

. ركبته الجن والله.

وظل يتابعه باستغراب، كما تابعته أنظار خطر وحانوت بن تركي وجزاع الملوي وذلول الشيخ وفرسه وكلابه، وجراء العبيد، هذا الجيل الجديد من الخلاسيين الذي فضح غزوات الشيخ ورجاله الليلية إلى مضارب العبدان الغائبين عن عمد في مهام خاصة، وهذه الظاهرة بدأت مع شيخة ضاري بن سلطان، كما فشت ظاهرة خصاء العبيد، والمخصيون منهم بلا قلوب، يختارهم الشيخ للمهام الخاصة والعصيَّة لتأديب الفلاليح والخصوم.

. هذا الرجل فقد عقله.

قالت خطر وراقبت العبيد يجتمعون وراء ذباح يحملون خيوطاً خاصة، ينطلقون إلى القطعان، إنه موسم الخصاء، حيث يدفن الرجال خصيتي الفحول في بطونها ثم يربطون الصفن بتلك الخيوط حتى لا تعود للخروج مرّة أخرى، فتضمر ويتوقف نشاطها الجنسي، خصاء الأكباش الفتية كي لا تهدر قوتها في السفاد، فتهزل، وتصبح عرضة للبرد في الشتاء، يفتك بها، خصاء الجمال الشابة، وفحول الماعز، وربما الأحصنة غير الأصيلة احتياطاً، لكي لا يحدث مرة أخرى، ما حدث "للصقلاوية" فرس الشيخ الأصيلة. فذات صباح ككل الصباحات مرَّ رئيس المخفر القريب من العين ليشرب قهوته ويسلّم على الشيخ، كان يركب حصاناً أدهم فتياً، كأنه الفيل. يخبّ مزهواً، ضارباً الأرض بقوة وثبات قلعة وكأنه فحل إبل يرقل.

. لو كان أصيلاً لفتن الدنيا، خسارة.

قال أحد البدو، وصهيل الأدهم القوي يدعو كل أفراس الأرض والسماء إليه، ويوقظ في أجساد النسوة شبقاً نائماً إلى مجد الفحولة وعرشها المتألق، فترتعش، وتتهيأ المناطق الحساسة لعرق يبلل الثياب والأفخاذ.

ما إن نزل عنه صاحبه، وأعطى رسنه لذبّاح حتى صهل، فردّدت البراري والرجوم والوديان صوته، وشربته الأجساد والأرض، وجاوبه صوت الصقلاوية في مربطها رهيماً أنثوياً فيه دعوة واستعداد، وما جرى بعد ذلك كان خارقاً ومفاجئاً كالمعجزة، صهل الأدهم مرة أخرى، ضرب الأرض بقائمتيه الأماميتين فارتفع مثل غيمة، مثل أيل أسطوري، فقذف بذباح مسافة بعيدة، ومضى بين بيوت الشعر،

www.alkottob.com

ففرّت النساء والكلاب والفتيان، وصاح ذبّاح بالرجال، فركضوا خلف الأدهم يحملون الحبال والعصي، طاردوه، ولم يتوقف إلا عند مربط الصقلاوية، حيث اعتلاها رغم العصي والرجال وقد راقبته النسوة بشغف وحين انتهى نزل عنها، ثم عاد إلى مكانه هادئاً، وقد أقسمت كل من رأته من النسوة أنها أحسّت برعشة لم تعرف مثلها طوال حياتها وبلل لزج بين فخذيها انحدر حتى الكعب.

وثار الشيخ، نادى ذباح، فجاء خائفاً مذعوراً ولونه الأبنوسي يرشح بالعرق، وأمره بإزالة ما فعل الحصان الهجين بالصقلاوية، فمضى ذباح ومعه اثنان من الرجال إلى مربط الفرس، كانت هادئة نشوى، خاضعة، شمّر ذباح عن زنده الأسود الرفيع كقصبة، ثم أمرهم بإمساك الفرس من رأسها، ومدّ يده في داخلها، كان رحمها حاراً طرياً هزّه بقوة وهو المخصي، وبدأت عملية إخراج السائل المنوي حتى لا تمتزج الأجناس وتضيع الأصول، ومن بعيد سمع الطلقات ثم الصهيل المكتوم، قتل الحصان.

. محمد.

نادى شملان بن جابر، فأسرع الأخرس يلبي النداء، وقد تبخر من رأسه كل ما راوده من ذكريات وانطفأت شعلة الجليد.

. هات قهوة بالعجل.

ومضى مسرعاً إلى موقد النار، حمل الدلّة والفنجان، وقد تناثر الرماد خفيفاً في الهواء.

وقرأ الأخرس في حركاته آثار حديث الشيخ جابر بن ضاري معه إذ قال له على انفراد "اسمعني زين يا شملان، الشيخة ما هي بتنكيس العقال أو ميلانه على صفحة مثل ولد الفلاليح، الشيخ بدع يا بن جابر وحفيد ضاري، عقل ما هي عقال مرعز وكوفيه مركزيت وركض وراء النساء مثل تيس ماعز، لا تكسر بهدبك مثل البنات واركز، خل لك هيبة بين عربك، كل يوم والثاني على البلد وأيش في البلد؟ عائلة ما صار لها في الشيخة عشرة أظهر تنام ربع الليل فقط أنت فاهم يا شملان، جدك سلمني الشيخة زدت عليها النيابة وزعامة كتلة العشاير بالبرلمان، وأنت أيش عندك يا شملان، وأيش هو زودك؟! جلّ الهرج والسوالف الغثة، وفكر بالوقت ترى الوقت شين يا شملان، يجي يوم ما تظل شيخة ولا شيوخ، وتأكلك واوية الزور أو تحجز كلاب المدن على خشمك والنفس الطالع من صدرك، هذي دعوات الإصلاح الزراعي والأحزاب، الدنيا مخبوطة يا شملان، اليوم للشيوخ وباكر يمكن للفلاليح وأيش اسمهم هذول العمال، الشيخة ما عادت تكفي، وكيل

www.alkottob.com

بالدرك اليوم أحسن من شيخ بلا معارف في الحكومة، فكر بزودك يا شملان، فكر يا ولدي، ترى الخلق من الجوع والعازة مثل الإبل لورعت "جزعة" تجنّ وتطفش وتحرق الأخضر واليابس.

شرب شملان قهوته، تذكر حواء بنت التعاويذي مهرة قلبه، وسعيد النهري، ثم صرف الخاطر وعاد إلى مداره الحقيقي، وقد تذكر جدّه ضاري وعهده.

***

. خطوة عزيزة يا حاج، والبنت أنت وليها.

قالت المرأة العجوز بلهجة حلبية واثقة، وهي ترقب أصابع الحاج المثقلة بالخواتم تحرك حبات سبحته الثمينة، وقد فاحت منه رائحة المال والثروة والخيانات القديمة التي تفهمها هذه المرأة وتقدرها حق قدرها.

. شكراً يا حاجة، المرأة ليس لها إلا بيتها ورجلها.

قال وراقب ملامح العجوز، فردّت:

. هذا إذا كان لها بيت ورجل يا حاج، أبو علي على عيني ورأسي لكن على الأقل يؤمن لها الستر والمرأة تكون له، وأنت يا حاج ما ترضى بالظلم.

. أعوذ بالله، من يقبل بالظلم؟

. وكي لا أظلم الرجل سترى بعينك يا حاج.

قالت ثم نادت بأعلى صوتها:

. فطوم، فطوم، تعالي الحاج ليس غريباً، ادخلي.

ودخلت، تسبقها رائحة عطر أنثوي، وخجل لذيذ، وحين سفرت تاه الحاج، رأى ما لم يره طوال عمره، قمر من زهر الرمان، والحليب على قامة من الرند، وأكملت العجوز هجومها الصاعق قائلة:

. قبلي يد عمك الحاج.

ورمشت العيون المثقلة بالكحل، امتدت اليد الرخصة البيضاء ترفع يد الحاج، واقتربت الأنفاس هبةً من الدفء، وغيوم البهار، واعتدلت العجوز، وقد أيقنت أنها قد ربحت حربها الصغيرة، فبدأت ترسم التفاصيل والشروط وأولها بيت في حلب يسجل باسم ابنتها.

***

مسح ذبّاح العرق عن وجهه الأبنوسي الأصيل.

www.alkottob.com

الذي يفخر بأنه أسود خالص من ظهر أسود خالص، لم تخالط دمه دماء أخرى كما يشاهد اليوم، وقد شعر بالغبار ورائحة الفحول الفتية من الأكباش، تلك الرائحة الحريفة الخاصة، تدخل كل فتحة من مسامه، فتخزها كأبر العاقول، راقب الرجال، وكلاب الرعيان والحماد والتلول البعيدة، والأجساد المرمية على الأرض ترفس، وتجاهد يائسة في الدفاع عن ذكورتها دون جدوى، تلمس بأصابعه الطويلة خصية الكبش الفتي المكتوف، فأحس نبضها الحار ينقره كفرخ قطا حديث الولادة، وبالعصب والعروق والدم، ضغطها بقسوة وتشفٍّ فثغى الكبش بألم حاد، ثم دفعها بدربة إلى الداخل مع أختها، وربط الصفن بخيط خاص، ومضى إلى كبش آخر، وقد قرر أن ينتقل بعد ذلك إلى فحول الماعز لأن صوت تألمها أكثر علواً من الأغنام، فهو ينفجر ثاغياً مثل جرح في القلب، يقلق كل موجودات الحماد وطيوره.

. ذبّاح أمهر خاصٍ للمواشي في الديرة.

. وخاص للرجال أيضاً.

دارت هذه الحوارية بين رجلين، ولم يكن الثاني يكذب، فذبّاح رجل الشيخ الدموي، ووارث خصوماته وذراعه اليمنى في حروبه وغزواته لتوطيد سلطته، كان يسلّ أرواح أعدائه من خصيانهم يمسك بأصابعه . التي تشبه الكلاّب الحديدي . خصيتي خصمه وبلذة سفاح مجنون يمرسهما كما يمرس قطعة لينة من "قمر الدين" وينتشي وجهه الأسود حتى يطفح بمثل قناع من البرونز بدائي يذكّر بشعائر أفريقيا وأرواحها وسحرتها، بينما يعلو جعير غير إنساني من خصمه، تتشنج القسمات، وتبرز عروق الرقبة، وتجحظ العينان، ويتلون الوجه بلون أزرق كلون المرارة، عند هذا الحدّ، يستلهما ذبّاح ويلقيهما في العراء، وكأنه ينتقم بكل هؤلاء من ضاري بن سلطان، شيخه الذي خصاه على غير سنة الشيوخ المجاورين:

. "هؤلاء هم الشيوخ الجدد، لم تطرخهم الشيخة بعد، يظلون أمكر من ثعالب الزور، وأكثر حذراً من زرازير الحماد، وأسوأ من ذئاب الشتاء الجائعة، خائفين دائماً على نسوانهم وخيلهم وأرواحهم".

تدور الكلاب حول القطيع لاهثة حذرة، وتسير المراييع القادة بصوفها الطويل وخرزها الأزرق ومراياها بعيداً، هي أيضاً مخصيّة، وقريباً منها تقف الفحول المنتخبة التي أبقى عليها فحولاً للقطيع ولم تخصَ، قويّة تهزّ بقرونها، وتندفع نحو بعضها بهجمات شرسة، تؤكد دورة الدم وبداية الفوران الجنسي، وتألق نشاطه،

www.alkottob.com

وهدوء البرية القانت، والعمل الرتيب يحرك في صدور الرجال رغائب يعبرون عنها بنكات بذيئة، تطول الرعاة الشبان وعلاقاتهم السرية بحميرهم الإناث، وتهديد السذج منهم بافتضاح أمرهم في حال حمل الاتان إذ ستولد جحشاً برأس إنسان، فالذكورة في نشاطها البدائي بعيداً عن سلطة العقل الواعي تتشابه فلا فرق بين نزوات الأكباش والجمال الفتية وبين نزوات الشباب من الفلاليح والرعاة وعلاقتهم "السادومية" الشائعة.

تبغم تيوس الماعز وتلبط بذعر وألم، فتثقل خصى فحول الشباب، ويرتعش السود أمام هذا الطقس الوثني، وقد امتلأت رؤوسهم العارية بالتراب والعرق والدم الحار، و تشنجت أصابعهم أكثر من اللازم، وعلى الخصوص ذبّاح:

. ذباح. يا ذباح.

يأتيه الصوت الأنثوي الواثق، فيسرع:

. يا عونك، يا عمتي.

"وعمتي وعمي" هي الألفاظ الشائعة في مناداة الأسياد، وهي شكل من التهوين على العبيد وحفظ إخلاصهم ومودتهم:

. هات ماء.

ويعرف حينئذٍ أن الشيخة في الحمّام، وحمّام الشيخة وعاء معدني واسع تملأه بالماء الحار وتسدل من حولها أروقة البيت الشعري، وغير مسموح لإنسان الدخول عليها سوى ذبّاح، ودخول العبيد على شيخاتهم في عرف المشايخ القدامى أمر شائع حتى ولو كانوا فحولاً، فالعبد لا يعتبر أكثر من شيء أعجم مثله مثل ممتلكات الشيخ من خيل وكلاب وأغنام، فهل تستحي امرأة من حصان أو كبش؟! والشيخة واجفة بنت سلمان وهذا اسمها من عائلة عريقة في الشيخة، أصهر إليها ضاري بن سلطان سنداً له وظهراً لتوطيد أركانه بحلفاء أقوياء، لذا كان جابر بن ضاري يأخذ رأيها بكل كبيرة وصغيرة، ولا يخرج عن طوعها ويعاملها باحترام وإكبار، ولا ينغص عليه سوى سر صغير لا يجرؤ على البوح به لمخلوق، فأسرار الفراش مقدسة عند البدو، فمن يصدّق أن عبده ذباح يرى في الحمام ما يذوب الشيخ لرؤيته وعلى استعداد لدفع قطيع مقابله؟ رآها عارية، وهو إلى اليوم لم يرها، مرّة وحيدة دخل على غفلة، لكنها أحست به فنثرت شعرها الأسود فغطاها حتى كعب القدم، وغطته بنظرة كجمر الغضا، فانسل خجلاً، وهي في الفراش تستعد له حين تريد بإطفاء الأضواء فلا يظل يتردد سوى صوت نفسها المنتظم،

www.alkottob.com

وخلال الممارسة لا تندّ عنها ولو آهة أو حركة مهما ضؤلت، فهذه الأمور من شأن الجواري، فقط تشتعل عيناها في الظلمة ياقوتتين من الجوهر البراق والدم الحار.

ويدخل ذبّاح بالماء، تقف عارية مثل آلهة الينابيع، تفوح رائحة الأنوثة والصابون، ويدلق الماء على الجسد العاري، ولا تهتم بنظراته الخرساء، ثم تأمره:

. دونك المنشفة والثياب.

وتخطر بقامتها المياسة المبللة، وشعرها الأسود الطويل، ينحدر من قمة الرأس إلى كعب القدم، وقد امتلأ المكان بها فرساً من القهوة والهيل والجمر:

. ذبّاح.

يردّه الصوت إلى الواقع، وضجيج الأكباش، ومن بعيد تثور زوبعة من العجاج وراء مجموعة من السيارات في مقدمتها سيارة الشيخ جابر بن ضاري، يلتفت الرجال، ثم يعودون إلى عملهم الذي بات مملاً.

. إنه الشيخ وضيوفه القادمون من الشام.

قال أحد الرجال يخاطب جاره، فردّ عليه:

. والله يا فلان أرى ضيوف الشيخ كثّروا الزيارات هذا العام.

. لابد أن القنص استهواهم السنة.

. موسم القنص مضى.

. لابد ما ظلت بقايا.

قال الرجل ثم تابع عمله فالفضول أمر يكلف صاحبه كثيراً، وفي سيارة الشيخ جابر التفت ضيفه إليه وقال:

ـ عليك أن تدبر أمورك بسرعة يا شيخ جابر، فالجماعة في بغداد غير مرتاحين للوضع هذا ما قاله السامرائي، وعدونا خبيث وعيونه يقظة، إذا انكشف ضعنا فالبلد على عتبة أيام حاسمة.

. والجماعة في بيروت.

ـ العقيد صفا جاهز، والقوميون السوريون يدربون عناصرهم بانتظار ساعة الصفر للتحرك والحسم.

. والأسلحة؟

. عشرون ألف قطعة تنتظر والطرق مدروسة ومؤمنة عبر البادية ولواء من

www.alkottob.com

الجيش العراقي يأخذ مكانه على الحدود، كل ما هو مطلوب منك تأمين عبورها من الجسر والبلد دون أن ينكشف أمرها.

. هذه عليّ.

. ماذا عن الأموال؟

. مليون دينار سيكون بتصرفنا.

. إذن اتفقنا.

ـ عند أول إشارة نحرّك الناقلات، وسنهتم مؤقتاً بتهيئة الأجواء وتحريك الأقلام الصديقة في الصحافة.

ـ كما قلت لم أسمع ولم أقل ولم أجتمع بأحد، علاقتكم المباشرة بولدي شملان.

. كما تشاء.

وبدأت عبارات متفرقة ترد في حديث الضيف والشيخ جابر، وترتيبات خاصة وسرية لاغتيال بعض الرموز الحزبية، مثل الحوراني وبكداش والسراج، وتقسيم الحصص بالتساوي، مع إعطاء دور مميز للجزيرة والفرات، والشيخ يلتقط عبارات الضيف ويزينها بعناية وتركيز رجل اللعبة السياسية التي خبرها، وعاشها بروح مرنة فهو يريد أن يكون خطوة على أبيه ضاري فلا يبحث عن الشيطان ليقاسمه الدنيا بل يحالف الحكومة مقابل حصة الله والشيطان.

. على خيرة الله يا بيك.

. خير إن شاء الله.

وأطلق لسيارته العنان في عراء الحماد وقد حزم أمره ليدفع شملان في اللعبة فقد آن الأوان ليبدأ، ومن أعماقه نده الصوت:

ـ عيناك تشوف يا ضاري، إبل عنزة سترعى شجر الغوطة نعم شجر الغوطة.

***

أثُّوبْ... أثُّوبْ... أثُّوبْ.

والعرق بلَّ الثوبْ....

يسرى يا أمّ خزام

حلي لي أزرار الثوبْ...

www.alkottob.com

أنصتت زكاء إلى الصوت الطروب يأتيها من البيت المجاور، مدّت يدها إلى جانبها بعفوية فاصطدمت بديران العاري، وقد سيطر عليه التعب والنوم بعد ليال من الحب والجنس تعدّ مأثرة حقيقية في سباق الأحصنة والأفراس الجميلة.

. زكاء هل تصدقين مرّ ثلاثة أشهر على مجيئك؟!

. أصدق.

ـ وهل تصدقين أن الأمر أصبح عند الناس عادياً؟! في الأيام الأولى قرأت في نظراتهم أسئلة كثيرة، وحين تعاميت عنها نسوا الأمر كلية.

. نحن أمة النسيان.

. وهذه حسنة من حسناتنا أحياناً.

. هكذا إذن.

ـ بالتأكيد فأناسنا البسطاء أحياناً يظنون أن آثام الأقوياء مقدسة، وحق المحاسبة عليها من اختصاص الربّ، وما عليهم إلا أن يسيروا "الحيط الحيط" محافظين على لقمتهم ومنافعهم الخاصة، هكذا كان شأنهم مع الشيوخ، والأغوات والموظفين فيما بعد.

تذكرت تلك الحوارية ثم انسلت من الفراش إلى المطبخ بعدما تدثرت بثوب من ثيابها والصوت الطروب لا زال يردد الكلمات نفسها بإيقاع واحد دون ملل، وحين عادت تحمل القهوة والبخار اللذيذ يتصاعد منها، كان ديران متمدداً في الفراش، ينتظرها وعلى شفتيه ابتسامة ذابلة:

. صباح الخير مسيو.

. صباح الحمام والقهوة المرّة.

قال يردّ على تحيتها، ويتناول فنجانه بحذر، ومع الرشفة الأولى تناهى إلى سمعه الصوت من البيت المجاور، ضحك وهو ينظر إلى زكاء وقال:

. هل تفهمين ماذا يقول صاحب الأغنية؟

. لا، ولكنّ اللحن أعجبني.

. اللحن جميل أما معاني الأغنية فهي جنسية.

. جنسية؟! يبدأ صباحه بأغنية جنسية؟

. نعم.

. وماذا يقول فيها؟

www.alkottob.com

. يقول مرة بعد مرة والعرق الذي تفرزه نهود محبوبته قد بلل الثوب، ولا يُبلل الثوب عرقاً إلاّ نهد صبية صغيرة، لأنها متى كبرت توقف نهدها عن التعرّق، ثم يخاطب صاحبته المدعوة يسرى صاحبة الخزام، وهي حلية ذهبية مدورة توضع في وردينة الأنف للزينة، طالباً منها أن تفك له أزرار ثوبها المبلل بعرق نهودها الأنثوي، أما لماذا أزرار الثوب؟ ذلك أن النصف العلوي في الفتاة مباح لعاشقها، أما السفلي فتحتفظ به لزوجها ليلة الزفاف.

. معنى رائع.

. كل المعاني الشعبية لو فكرنا فيها لوجدناها جميلة وعميقة ورائعة.

قال ثم طلب منها أن تبحث له عن علبة الدخان، ولا تعرف كيف خطر الدركي رفيق رحلتها في تلك اللحظة، ربما الدخان ذكرها به.

. هل فكرت أين نذهب اليوم؟

قال يسألها... فردّت:

. لقد رأيت كل معالم البلد، وقابلت كل معارفك من الطبيب المزارع إلى شيخ العشيرة، بالمناسبة كلهم يعملون بالزراعة إلى جانب أعمالهم الأساسية.

ـ العمل في الزراعة لسببين الأول لتنمية الثروة، والثاني للوجاهة، خاصة زراعة القطن.

. عند الطبيب ما اسمه؟

. الدكتور سمير مهنا.

. بنت لطيفة لكنها مجنونة، وجنونها من وضع ما، ورجل ما.

. ملاحظتك مدهشة.

. لا يفهم المرأة مثل المرأة.

. أما الوضع فهو هذه الفتاة لقيطة.

. غير معقول، وهل تعرف؟

. كل شيء ممكن فهو معقول، وهي . على ما أعتقد . تشك، أما الرجل فهو مسيو رافي صاحب محطة المحروقات والمشروعات الزراعية.

. هل تحبه؟

. نوعاً من الحب المخذول، فيه كثير من الوهم وقليل من الحقيقة.

www.alkottob.com

. وهل يحبها؟

. ليس من النوع الحالم، وهو يعتقد أنه يقدم لها خدمة في بلد ضيق.

. رائع مسيو ديران إنك تتحول إلى عقل موسوعي تخلط المال بعلم الاجتماع.

قالت بدعابة... فردّ عليها:

ـ المعرفة هي الدرع الذي يدفع عن الإنسان وباء التسطح والسذاجة وأذى الرتابة القاتل وجنونها، تصوري أن تكوني سجينة مفردة في غرفة، ولا صوت في الخارج سوى صوت نقطة ماء تنزل من صنبور لم يغلق، هذا الصوت في الأحوال العادية قد يقلق نومك، لكنه في سجنك يتحول إلى مؤشر على الاستمرار في الحياة ونبضها وعلم الاجتماع هو علم المستقبل.

. مسيو هذا الرأس الجميل الذي تراه لي، لم يُصنع للفكر والفلسفة.

. أنا آسف.

قال ثم نهض من سريره.

***

أفرد أبو الخير ذراعيه وتنفّس عميقاً مثل ديك نمساوي عملاق.

راقب البيت الواسع، وقرميد الجدران، والحشائش التي تغطي الأسطحة المتصلة، ومن القاووش تناهى إليه صوت الخراف، خراف وسمن وصوف وقطن، عرف كيف يوظفها في بناء علاقات وثيقة مع رؤسائه هناك، بحيث بات يتصرف مطلق الحرية، يجبي، ويسجن، ويعاقب، حتى أصبح اسمه يوقع الرعب في قلوب الجميع.

في الليلة الأولى سهر مع الدركي المناوب، شرب شاياً، ودخن تبغاً، واستمع إلى أحوال البلد، وشؤون الناس، وعند الفجر غفا، رأى في منامه شمساً ورعاة وبيوتاً من الشعر وأسلحة وأجساداً مضرجة بالدم.

وحال استلامه نظم دوريتين على مدخل البلد الشرقي والجنوبي، وأمر العناصر بتفتيش كل عابر مهما كانت مكانته، وحجز الأسلحة ابتداءً من الخيزرانة إلى المسدس، ومن لا يمتثل "أطلقوا النار عليه، نعم أطلقوا النار" ثم خرج هو مع عنصر آخر إلى السوق، نظر إلى الوجوه والقامات والرؤوس الملفّعة بالكوفيات البيض والعقل السود المصنوعة من المرعز.

www.alkottob.com

. إنها الخطوة الأولى يا أبا الخير، فاضرب ضربتك.

قال لنفسه، والعيون ترقبه حذرة، تزينه بميزان الرجال وبدأ الهمس:

. قائد الفصيل الجديد.

. يبدو رجلاً من ظهر رجل.

. أنظر هذه العيون، عيون صقر.

. يكاد يأكل الرجال بعيونه.

. الحكومة حليمة لكن جماعتنا همج.

. خلهم اليوم يمدوّن رؤوسهم من غيرانهم.

. حق الله عليه هيبة ابن الحكومة.

تعالى الهمس حيث مرّ، امتد جسراً من الأقوال والحكايا بين الدكاكين الصغيرة، وزبائنها القادمين من البادية والقرى القريبة، وفي منتصف الطريق سأل أبو الخير مرافقه بدهشة:

. أبا عبدو.

. نعم سيدي.

. لماذا يميّل بعضهم عقاله إلى جانب، أو ينكّسه إلى الأسفل؟

ـ والله سيدي هذا إمّا يكون شيخ عشيرته، أو عنده ألف رأس من الغنم والإبل، أو مزارعاً كبيراً، أو نصاباً وهؤلاء كثر.

. هذا كلام جميل.

قال ثم نظر إلى شاب متأنق بثيابه العربية، وكوفيته المركزيت وعباءته السوداء وقد نكّس عقاله حتى كاد يصل أنفه:

. أبا عبدو.

. حاضر سيدي.

. أريد هذا الشاب.

قال وأشار إلى الشاب الواقف فأسرع الدركي إليه:

. كلّم الوكيل.

. نعم؟!.

قال الشاب باستغراب، فكرر الدركي مضيفاً هذه المرة إلى الرتبة كل ألقابها:

www.alkottob.com

. كلّم سيادة الوكيل قائد الفصيل.

. أنا؟!

. نعم أنت بلا لكاعة.

وتحرك الشاب مأخوذاً وحين وقف أمام أبي الخير سأله:

. هل تحمل سلاحاً؟!

. لا سيدي.

. فتّشه.

أمر الدركي تفتيشه والعيون تراقب المنظر من بعيد، تنتظر حدثاً مهمّاً وحين هزّ الدركي رأسه قائلاً:

. لا يحمل سلاحاً سيدي.

سأله أبو الخير:

. هل أنت شيخ عشيرة؟

. لا سيدي

. عندك مشروع زراعي؟

. لا سيدي.

. ملاّك؟

. لا سيدي.

. كم رأساً من الغنم عندك؟

. خمسون سيدي.

ـ إذن لا أنت شيخ عشيرة، ولا صاحب مشاريع زراعية، ولا صاحب أملاك أو قطعان أغنام، فلماذا تنكس عقالك؟

. سيدي والله يعني.

. يعني أنت نصاب وأزعر.

وارتفعت يده ثم أهوت على وجه الشاب فانقلب على ظهره، تلوثت الكوفية البيضاء والعباءة، وطار العقال، ففرخ الخوف في النفوس، وبنى التوجس أعشاشه، وبدأت العقول تعزز بدايات أمور جديدة، وشاع الخبر، كما شاع خبر الدوريات على مداخل البلد، ولم يكتفِ أبو الخير بذلك، كان يجمع حصيلة النهار

www.alkottob.com

من الموقوفين في ساحة البلد، ويأمرهم بإهانة بعضهم بعضاً، وتفنن في ذلك حتى أطعمهم روث الحيوانات والتبغ، وإذا ما قصّر أحدهم في ضرب صاحبه تناول العصا منه وأهوى بها على جلده عدة مرات صارخاً:

. بقوة، بقوة هكذا.

وخفَّت الحوادث، ثم تناقصت حتى كادت تختفي، وبدأ الحديث حول هيبة الحكومة، والخوف من الحكومة، ثم عرف الناس طريقهم إلى بيت أبي الخير وجيبه وقلبه، فتواصلت الخراف وظروف السمن وأكياس الصوف وصرر المال، وأبو الخير كالبئر مهما ألقيت فيه لا يمل ولا يمتلئ.

وظل الأمر كذلك حتى جاءه أحد عناصر الدرك إلى بيته قائلاً بعد أن ارتاح:

. سيدي، البلد الآن كخاتم في إصبعك، ولكن ظلّ عليك واجب أخير.

. وما هذا الواجب أبا عبدو؟!

زيارة الشيخ جابر بن ضاري سمعت عنه؟.

. سمعت عنه، ولكن من هو بالضبط، حتى تكون له مثل هذه الأهمية؟

ـ يا سيدي هو الصديق الشخصي لقائد الدرك العام، وزعيم كتلة العشائر وأبنه نائب في البرلمان وعن طريقه أمّن له حصانه لمدة أربع سنوات أشبه بحصانة النائب، بموجبها يكون فوق مستوى المحاسبة، إضافة إلى أنه أكبر سلطة عشائرية في المنطقة يحسب حسابها.

. وأين يكون؟!

ـ في قريته شمالاً، هكذا العادة من القائمقام إلى أصغر رئيس مخفر، وإذا كنت محرجاً، نجعلها جولة على المخافر، وفي طريقنا نمر على دياره.

. أبا عبدو.

قال بلهجة أشبه بالتهديد فردّ:

ـ سيدي كن على يقين من إخلاصي، ولا تنسى أن لي ست سنوات في المنطقة.

. نزوره.

. عين العقل سيدي.

وتمت الزيارة كما خطط لها، فعاد أبو الخير مبهوراً بذكاء الشيخ جابر

www.alkottob.com

وشخصيته الآسرة، وبدعوة مفتوحة لتكرار الزيارة متى تشاء.

***

دمشق!! كانت امتحاناً لكل قيمك يا عبد الله.

دخلتها كومة من الرمل والكلمات، فصقلتك، أعطتك قلبها النار لتكون فولاذاً دمشقياً، وسيفاً أموياً.

وكنت . يومئذٍ، مفتوناً، وعاشقاً، وصوفياً.

تخلط الشعر بالتشريح، والفكاهة بالجد، وروح الغرابة ببساطة البدوي الماكر، وشطحات الصوفية بالرياضيات في تآلف عجيب، ثم تعود إلى زقاق "دك الباب"، تناقش حصيلتك اليومية في غرفتك المطلة على الطريق وأنت تشرب الشاي أو القهوة، وتقرأ وسط نسمات الياسمين الدمشقي والجوري الفوّاح، تهبّ من البيوت المجاورة، لتملأ الحارة وأجواءها.

. هذا الشاب سيّد حقيقي.

هكذا كانت أم فؤاد صاحبة البانسيون، تصرّح لجاراتها، وهي التي خبرت كثيراً من القادمين من أماكن شتى، ولتثير خيال الجارات كانت تلجأ إلى لعبة صغيرة، فتقول ردّاً على سؤالهن من أي بلد الأفندي؟

. من جزر الواق الواق.

قد تضيف أم فؤاد أحياناً:

. لبق وذكي.

وتجد في مسلكك اللطيف مكسباً لنزلها، الذي تريده هادئاً وجذاباً للزبائن والطلبة والباحثين عن الراحة والهدوء، والشعور بأنهم في منازلهم لا في نزل عام.

. عبد الله.

كانت أم فؤاد تناديك لتسمع لهجتك البدوية الغامضة، بحروفها المعطشة، ومخارجها الفخمة القادرة على التعبير عن صاحبها، وكما تنفر الغزلان، أو يطير سرب من الإوز البري في سباق عبثي كانت تنفر الكلمات.

. شتريدين خالتي أم فؤاد؟

. ماذا قلت؟

. قلت أي شيء تريدين؟

وتضحك المرأة بصفاء... ثم تقول لك:

www.alkottob.com

. تعال اشرب معي فنجاناً من القهوة... فأنت تستحقه.

. أشكرك.

وتذكرك أم فؤاد بزوجات الموظفين والقضاة المحترمين القادمين إلى بلدتك، فهي لا تشبه أناسك هناك، لكنك تشعر بجاذبيّة الأمومة الدافئة تشع منها، فأم فؤاد أرملة بلا أولاد، افتتحت نزلها حين لم تجد بدّاً من ذلك، لتعيش، في بيئة لا تعني فيها المرأة أكثر من أنها متاع للرجل.

ولأن دمشق مجتمع نخبة، وتجارة، ومناقلات ذكية، لا يفهم تعقيداتها غير الحذّاق، استراحت روحك إليها، فلم تنزلق إلى التطرف، أو الجلافة.

. الحزن صديقنا أما الفرح فهو شيطان.

قلت لأحد أصدقائك يوماً، تعقب على كثرة الزوار لمقام السيدة زينب، زوار يأتون من كل مكان لتقديم النذور، والبكاء.

. هذا الكلام يجافي الطبيعة.

. طبيعة غيرنا.

. كيف؟!

لابدّ من مسجد ومقتول وولي لتكتمل الدائرة وتدور عجلة الزمن.

. كلام بدو.

ويضحك الصديق، ولا تضحك.

كنت يا عبد الله مليئاً بالتأريخ والحلم والخرافة، ترى في الحجر كلاماً، وفي حركة الشجر إيماءة وفي علوم النسج والتشريح طريقاً إلى الحقيقة والشعر، وآخر الليل تقودك قدماك إلى شارع بغداد، وقد طفحت رئتاك بالقول، فترتاح إلى العتمة، وقلّة الأبنية، فالحرب الكونيّة الثانية فرضت التعتيم على المدينة فتسربلت بالصمت والظلام.

حين صحا الدكتور عبد الله الرفاعي من غيبوبته.

وجد نفسه أمام باب المنزل، وكشجرة عارية في الخريف، فرّت كل العصافير من أغصان الروح، فأخرج المفتاح، دسّه في القفل، ثم عبر فراغ الباب إلى الردهة المضاءة، بضوء شاحب والصمت يخيم على البيت.

***

. أن يتزوج حاج مامو ليس مفاجأة، ولكن المفاجأة أن يموت صباح زفافه.

www.alkottob.com

قال إسماعيل الفارس حزيناً... ثم تابع حديثه مع صاحبه الذي يرفض دائماً أن يسميّه:

. خسرنا لاعباً كبيراً.

. وعروسه؟!

. سترث ثُمن ثروته العريضة.

. كل ذلك مقابل ليلة واحدة.

. الدنيا حظوظ... سيطق أولاده.

ودخل في تلك اللحظة تتباك... والنهار في بداياته. سلم، ثم جلس، وبعد بطحة العرق الأولى، وبداية الثانية، بدأ رواية ما جرى له في رهانه العجيب. فقال:

ـ يوم الخميس الماضي كنت مفلساً، وجائعاً، وعطشان للعرق، وفوقها بدون سكائر، وكنت على استعداد للمراهنة على رأسي مقابل خمس ليرات، ومن كلمة إلى كلمة حدثني عمكم جاسم عن رهاناتكم القديمة، وشجاعة جيله، حين كان أرْجَلهم، يذهب إلى خرائب الجامع العتيق، يصعد المئذنة ويضع إشارة متفق عليها في أعلاها، ثم يعود، ليقبض رهانه من المراهنين بعد أن يتثبتوا من صدقه في النهار.

ورفع تتباك رأسه ليرى صدى كلامه فرآهم جميعاً يصغون حتى آدم الآشوري.. فتابع حديثه بعد جرعة كبيرة من العرق... فقال:

ـ ولأن عمكم جاسم نصف مجنون، وداعيكم مجنون حين يفلس، سألته: ما رأيك عم جاسم أن أذهب إلى الجامع العتيق وأضع خنجري هذا في أعلى المئذنة، تراهن؟ وبعد تردّد قال: أراهن. من خمس ليرات إلى عشرين ليرة. قبلت، قلت بلهفة ولكن بشرط أن تدفع لي سلفاً نصف المبلغ، ولأنه ظنّ أنني اشترطت الشرط لأنسحب دفع لي ليرتين ونصفاً شربت منهما واشتريت دخاناً، ثم توجهت إلى خرائب الجامع.

وتوقف تتباك ريثما جرع دفعة جديدة من كأسه... ثم تابع والعيون ترقبه:

. وكالعادة أخذت معي إبرة لدفع شرّ الجنّ، وبطحة من العرق، وخنجري، ثم انطلقت إلى هناك وحدي، خلّفت ورائي البيوت، والأضواء ولا رفيق لي إلا الليل والخرائب الكثيرة التي فتحت أشداقها، لتبلعني، وبيني وبينكم خفت، فأشعلت سيكارة، وقرفت قرفة من البطحة فعادت إلي شجاعتي.. ما لكم بطول السيرة

www.alkottob.com

وصلت، فإذا ساحة الجامع كلها أنوار، والرقص والدبك شغال، والشباب والصبايا يغنون بأصوات رائعة، قرفت قرفة من البطحة وانخرطت بينهم وكان العروسان يجلسان تحت الأضواء على الكراسي، وغنيت مثل المجنون، رقصت، وقد أمسكت بيدي بنت مثل القمر، حتى نسيت الرهان وعمكم جاسم، والمصاري، سكرت... وحين جاءت عيني بعينها، تجمدت، كانتا مشقوقتين بالطول، فصرخت، وحين أشهرت خنجري، انطفأت الأضواء والأصوات واختفى العرس، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم وقرأت الفاتحة وقل هو الله أحد... ومن قبّة سيدنا وابصة خرج رجل تركي، يلبس طربوشاً، بلحية حمراء وعينين بلون الزيتون... فأسرعت في الفرار، ومضى علي اليوم أسبوع في الفراش.

تستأهل...

قال إسماعيل الفارس، وعاد آدم إلى غيبوبته.

***

تنقل أبو الخير في ساحة البيت.

ولا يعرف لماذا خطرت في باله رفيقته في السفر؟! قد تكون مشاغله أنسته التفكير فيها، وذهبت به بعيداً. حين سمع قرعاً على الباب. فأسرع يفتحه، وهو الذي اعتاد أن يدير بعض الأمور العاجلة من منزله أيام العطلة.

طالعته قامة أبي رافي صباغ المهيبة، بطربوشه الأحمر، فرحب به، وأفسح له الطريق كي يعبر إلى الداخل. كان الرجل قلقاً ومنكسراً على غير عادته.

. أهلاً أبا رافي.

. أهلاً سيادة الوكيل.

فاستغرب أبو الخير نبرة صوته الخافتة، وهو الذي اعتاد إصدار الأوامر بحزم.

. خير. أبا رافي.

. ابني رافي يا سيادة الوكيل، أنا خائف عليه.

. وهل رافي صبي لتخاف عليه.

. أولاد الحرام في البلد كثيرون.

. ماذا تعتقد؟

لا أعرف... كل ما أعرفه هو أنه اختفى.

www.alkottob.com

. كيف اختفى؟ قد يكون سافر إلى حلب أو الشام لبعض شؤونه مضطراً.

. سألنا عنه في كل مكان دون فائدة.

وبيروت؟

. لا يسافر خارج القطر دون أن يعلمنا، وإذا ما سافر مضطراً فإنه يتصل بنا مباشرة حال وصوله هاتفياً أو برقياً.

. رافي رجل عاقل ولا أعتقد أن له أعداء.

. أعداء؟! مستحيل.

. كم يوماً مضى على غيابه؟

. ثلاثة أيام.

. وآخر مرة شوهد فيها، أين؟

. في المحطة.

. ومن شاهده؟!

. عامل المحطة، نزل معه في السيارة حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً بعد أن انتهى دوامه، ليوصله في طريقه إلى البيت، فأنت تعرف البلد بعد السابعة مساء يخلو من الناس، ووسائل المواصلات، والرجل بيته بعيد.

. ما عمر هذا العامل؟ وما اسمه؟!

. في العشرينات، أو يزيد قليلاً، واسمه حسن.

. وكم عاملاً في المحطة؟

ـ ثلاثة عمال، ينصرف اثنان منهم مساء حين يخفّ العمل، ويظل الثالث إلى وقت متأخر من الليل حيث يحاسب ويسلم الغلّة ثم ينصرف.

. سأبذل كل جهدي فلا تهتمّ.

. مشكور سيادة الوكيل.

. العفو، هذا واجبنا، ولكن هناك سؤال أخير.

. تفضل سيدي.

. السيارة مع رافي؟

. نعم سيدي.

. وهل تحتفظون بأموال سائلة في المحطة؟

www.alkottob.com

. حصيلة أسبوع ثم نودعها في حسابنا في البنك.

. وهل يعرف العمال ذلك؟

. أعتقد.

. وأين تحتفظون بهذه الأموال؟

. في خزانة مفاتيحها عند رافي فهو المسؤول عن كل شيء في المحطة.

. وهل يحمل الأموال من المحطة في يوم معين؟

. على الأغلب مساء الأحد.

. وهل الحصيلة مغرية؟

. في المواسم نعم.

كانت روح المحقق تستيقظ في أعماق أبي الخير، فهي قضية من طراز نادر لا يحدث إلا في المدن تقابله، لذا فهو يسعد بها ليؤكد سلطته، ويرى ثمار عمله خلال ثلاثة أشهر من القمع العنيف لدوافع بدائية في نفوس ريفية.

***

قبل سنوات حين لم تكن البلد أكثر

من بيوت قليلة يسكنها نصف رعاة ونصف مزارعين بسطاء، وسوق صغيرة للأقمشة والعطارة والصابون وتجارة السمن والصوف، يتحكم بها تجار حلبيون، وثكنة كبيرة عدد جنودها أكثر من عدد الأهالي حسب الوثائق الرسمية المحفوظة حتى اليوم في فانسان عن حملة "دوبيوفر" على وادي الفرات، وهزيمة "ترانجيه" مع حلفائه من البدو على مشارف البلد في "رطلة" وتقارير ضباط الاستخبارات من ليوتنانت دوكوست إلى الكابتن بونو.

قبل تلك السنوات، سنوات الجوع والخوف، سنوات الزبل والروث المتخمّر حين تنعقد رائحته بفعل الرطوبة في سقف القاووش حيث العلف والحيوانات وأكداس التبن والحمري . وهو العشب الجاف . كان سعيد الأقرع خادماً في بيت الفراتي، يجلب الحطب في الشتاء من الحوائج للمضافة والبيت والماء من النهر في عربة الجرّ الخشبية وهو يغني ويضحك مرحاً مرح سلوقي، على إيقاع حوافر بغلته القوية.

اندفع من معمل "باوم" الألماني بعد رحيله يكمل مسيرته نحو الشرق، وهو أكثر خبرة ومجالدة واستعداداً للصيال، منه يوم رحيله الأول من قريته "كديران"، لم

www.alkottob.com

يسأل إلى أين؟ ولا فكر لحظة واحدة بالعمل، قال "حتى الكلاب تجد ما تأكله، فالخير كثير، والأرض واسعة للنوم والتبول والأشياء الأخرى" عليه فقط أن يملك رجلين تحملانه في رحلته ولا تخذلان، مرّ في طريقه على بيوت الشعر، نبحته الكلاب بضراوة وكأنها تشم رائحة خاصة فيه، لم تفارق جلده منذ أيام الطفولة، وراقبته عيون النسوة السود بحذر، استسقاهن لبناً، ودفعن له قليلاً من التمر والخبز معه، ثم تابع في العراء وبين شجيرات السوس النامي بزهرة البنفسجي ورائحته الحادة، وعند الظهيرة أوى إلى شجرة الغرب، وفي ظلها قال، وعند البرودة عصراً انتهى من قيلولته وتحرك إلى الشرق مثقلاً برائحة السوس والنوم والفرات عن يساره يمضي جليلاً كقطيع من الفيلة المزدحمة، وعلى صفحته الصقيلة تنعكس صورة سماء زرقاء، تندفع في فضائها عربات آلهة الشرق القديم، على شكل غمامات بيض.

وعند أبواب البلد توقف، أخذ نفساً عميقاً، ثم دخل، كانت الدكاكين تغلق أبوابها والطرق شبه خالية، اجتاز مقهى أبي شهاب بزبنه القلّة من عقلاء البلد، ومبنى السراي المغلق إلا من حرس ليلي، وفي مقهى بندر الشبلي انزوى يراقب الوجوه والطاولات، وحين جاء النادل طلب كأساً من الشاي، يذكر طعمها دائماً، طعم الغربة والوحدة والجوع.

وبعد شهور، لم يبقَ في جيبه فلس، وحين عضه الجوع راهنه أحد المعارف من العمال الذين شاطرهم مهمات تافهة في نقل الحجارة أو تقطيع اللبن، أو نقل الأتربة والوحل للبنائين وحتى الحصاد في الحقول القريبة:

ـ سعيد أنت جوعان ومفلس، وأنا عندي مجيدي، هل تسمع مجيدي؟! على استعداد لإعطائك إياه بشرط واحد.

. وما هذا الشرط؟!

. أن تسير عارياً كما ولدتك أمك من أول السوق إلى آخره.

. أرني المجيدي.

. هذا هو.

. دعني ألمسه.

. لا.

وتحمس من حولهما بعض الحضور من العمال العاطلين، فالفكرة مجنونة وهكذا هي كل أفكار صديقهم، وتوقفت كل العيون على فم سعيد الأقرع:

www.alkottob.com

. قبلت.

. حلال عليك المجيدي.

وظلت الحادثة محفورة كالعطّابات في ذاكرة البلد، وإلى اليوم يذكرها الناس ويضحكون وكأنها حدثت البارحة، حتى أقسم بعضهم أنه لا زال يرى سعيد النهري أو الأقرع عارياً ولو لبس كل لباس الدنيا، وكان بعضهم ممن سمع الحادثة من أفواه العابرين أو الذين كانوا في السوق يومها، يستعيدها منه خاصة عندما عمل عند الفراتي فيتمنع حتى يقبض رشوة صغيرة، فيبدأ بروايتها، وتتحول المضافة إلى سفينة للمرح العالي، تعبر الليل الفراتي نحو القمر الغارق وراء التلال، ويفارق الرجال وقارهم، تسقط الأقنعة والحواجز النفسية وتدور القهوة المرة على الجميع، ويقسم بعقال جده، أنه شعر بعيون تطارد عورته كما تطارد الذئبة حملان الغنم، عيون سود وواسعة لنسوة تصنعن الحياء.

. والمجيدي يا سعيد؟

. صار مجيديات وحكاية طويلة.

وجاءت اللحظة التي ينتظرها . والذئب لا يغفل عن طريدته . نادته ضربة الحظ، خرجت من غموضها وألبستها عارية مثله يوم سار في السوق، وكان يقف على سطح القاووش يصلحه، والهدوء يرفع راياته على غير العادة لحارة تجاور قوات الاحتلال الفرنسي، فتطلع إلى مصدر الضوضاء والصخب الدائم للثكنة "فرآها خالية خاوية، ليس فيها غير زوابع من الأوراق والغبار تثيرها الريح وعند الأسلاك الشائكة تجمع الأطفال الذين يأتون طلباً لفضلات الطعام التي يتركها الجنود الغرباء بعد توزيع "القروانة"، وقد تجرأ بعضهم وعبر الأسلاك إلى الداخل كالقردة، ولمّا وجد المهاجع خالية من الفرنسيين صاح برفاقه، واندفع الأولاد كالكلاب والقطط إلى هناك، وقد استيقظ في داخلهم النهب، ولكن أين الجنود؟ دار السؤال في رأس سعيد الأقرع وأشارت له اللحظة بأذرعها، فأسرع في النزول وهي دليله، وكان الأطفال يجرّون وراءهم أكياس الخبز والبرغل وعلب السمن والزيت، بطون جائعة تبحث عما يهمها، وحين صار داخل الثكنة التي أشبهت قرية غضب الله عليها، فأمر الأرض فبلعت ساكنيها، وما لا يعرفه سعيد الأقرع أو الأولاد والكلاب وسكان البلد، كان يعود إلى بلد بعيد ومعركة ضارية بين تسميات سياسية بعيدة عن عقله أو عقول الأهالي البسطاء، فالقيادة العسكرية أمرت بالرحيل لأنها موالية "لفيشي" وتريد أن تكون قريبة من تركيا، وبعيدة عن غارات الإنكليز في العراق المجاورة، فكان هذا الانسحاب العجول المفاجئ.

www.alkottob.com

ومن مهجع خالٍ إلى آخر، كانت تقوده من يده ورائحتها تدخل أنفاسه كلما التفت إليها، وإذا ما حاول أن يحمل شيئاً مما يقع في طريقه، صرفته عن ذلك وضغطت على زنده، وفي مكتب فخم توقف، ثم أشارت إلى كيس قماشي أبيض، وابتسمت فحمله بأصابع مرتعشة، ثم عادت به، وعند باب القاووش اختفت، بينما أغلق على نفسه الباب، مدّ يده في داخل الكيس فلامست أنامله الأوراق النقدية، فارتعش، ومن طاقة في أعلى الجدار جاءه صوت الناس والكلاب والأطفال يقتلعون كل شيء.

أيام قليلة واختفى سعيد الأقرع مع رواتب الجنود، ولم يلفت نظر أحد، وبعد خمس سنوات أي بعد الاستقلال مباشرة ظهر في حياة البلد من جديد، ووضع جديد تفوح منه رائحة الثراء، مدعياً أنه عمل مع تاجر حلبي في التجارة، وهل أبرك من التجارة؟! ومع المال نسي الناس سعيد الأقرع، وكأنه لم يكن سوى حكاية من حكايات ليالي الشتاء، وبدأ سعيد جديد، سعيد النهري فلقد خانه كل الناس إلا النهر.

كل ذلك تذكره سعيد النهري في الرحلة من الرميلة إلى حلب حيث بيته القديم الذي اشتراه يوم فرّ بالمال المنهوب، وإلى جانبه زوجته الجديدة التي أجبر أبا علي زوجها على تطليقها، فدار كالمجنون في الشوارع يصرخ:

. الحاج سعيد النهري أخذ فطوم مني، يا ناس.

ثم يحمل ورقة بيضاء ويحلف للناس حوله:

. والله يا جماعة، والله جلدها مثل هذه القرطاسة البيضاء.

فيبتسم من كلامه الرجال، ويمضون وكأنهم يقولون "حلال على الشاطر".

***

مثل دخان يعمي العيون، شاع خبر اختفاء رافي صباغ والتحقيقات تدور في حلقة مفرغة، العامل الذي رآه آخر مرة أفاد بأنه ركب معه سيارته وعند بداية الحي الذي يسكنه أنزله ومضى، أين ذهب؟! هذا هو السؤال الورطة الذي فيه تقبع مشكلة أبي الخير، ورغم الضرب المبرّح والتهديد، ونبش كل حجر في بيت العامل لم يصل إلى شيء، وحين اكتشفت السيارة في وادٍ قريب ظن نفسه وصل إلى الدليل، ولكنه في الحقيقة لم يصل إلا إلى اليقين بأن رافي قتل وذلك من الدماء التي وجدت في أرض السيارة، وأثبتت التحاليل الطبية، أنها من زمرة دمه نفسها، وجن جنون العائلة المنكوبة، حركت أموالها وقواها ومعارفها الأقوياء من

www.alkottob.com

بيروت إلى الرميلة، ولأول مرة تلج صاحبة الجلالة الصحافة بأقدامها عتبة البلد، وأمام مندوبيها شعر أبو الخير أنه يقف عارياً ومبلولاً، فهؤلاء الصحفيون ماكرون ولئيمون مثل بنات آوى لا تعرف من أين يأتون بأسئلتهم اللاذعة والتي تحمل دائماً الغمز وعدم الثقة والاحترام.

. حضرة الوكيل هل تعتقد بالسحر؟!

. ولا بالشيطان.

. إذا لم يكن وراء اختفاء رافي الشيطان أو السحر فأين يكون؟

. وما يدريني أنا؟!

ويندم على الجواب الأخير، كيف يورّط نفسه مع هؤلاء الناس؟! ويلجأ إلى الصمت وقراءة ملف الجريمة من جديد.

. حضرة الوكيل، هل تعتقد أن في الأمر جريمة؟

. لا.

. إذن ماذا في الأمر؟!

. اختفاء فهل كل من اختفى كان بالضرورة في عداد القتلى؟

. والدم.

. ربما كان جرحاً من تلك الجروح السطحية.

. ماذا تعني؟!

. أنا؟! لا أعني شيئاً مجرّد فرضية.

وبدأت تؤذيه أسئلتهم ومناداتهم له "حضرة الوكيل"، وهو الذي اعتاد على "سيادة الوكيل" فأطلق كل شياطينه من قماقمها، فالدافع إلى الآن غير مفهوم أو واضح، فعداوة؟ ليس لرافي أعداء، سرقة؟ وجدت الخزانة خالية من أي أثر لمحاولته فتحها عنوة، إضافة إلى أن ما فيها لا يتجاوز مبلغ ثلاث عشرة ليرة فقط، وسجلات البنك تثبت أنه أودع قبل يوم من اختفائه مبلغاً يعتقد أنه حصيلة مبيع الأسبوع.

ومع الحملة الصحفية، والاهتمام الحكومي بالأمر أخذ العطف العام والنقمة على مرتكبي الحادث يزدادان وجاء من يهمس في أذن أبي الخير "فتش بيت رافي جيداً فإنك ربما وجدت فيه ما يفيدك في البحث" وغمز باسماً ثم أردف "لا تفهم من كلامي بيت العائلة" ومضى بعباءته الجوخ وعصاه اللامعة، ودوهم البيت

www.alkottob.com

الذي كان رافي يستعمله وكراً لغرامياته، قلبه بوصة بوصة، وجد كتباً وكميات كبيرة من الدخان والمشروب، وعطوراً غالية، وبعض الكتابات بأقلام الحمرة على المرايا تقول "أحبك" أيها الولد الفاسد متى تكفّ عن حيلك"، ولم يهتم، صادف حاجات نسائية لم يحاول ربطها بالعبارات، فهو يبحث عن شيء خاص ومهم، وحين شارف اليأس عثرت أصابعه بالألبوم الخاص، ألبوم المخازي والخاصرة الطرية . كما يسميه . ولحظة فتحه توقفت أنفاسه، وضربات قلبه، وشلّت، ودار المكان أرجوحة سماوية، اختل توازن الأشياء صاح بمساعده:

. أبا عبدو.

. حاضر سيدي.

. تعال معي.

ثم أطبق الألبوم، وتحرك كأنه يخرج من وجر ضبع، ولم ينم ليلته، ظل يدخن في غرفته وحيداً، ويقلّب الصفحات على صور، وجوه وأجساد يعرفها ولا يعرفها وما عرفه من الوجوه يمكن أن يزلزل البلد "أي ابن حرام كنت؟ وقام من مكانه، دار في الغرفة، ثم عاد يقلّب الصفحات بنهم وجنون، أوضاع لا يصدق أنها موجودة ولم يسمع عنها في حياته "كل هذه الفنون تعرفن يا بنات الأفاعي؟! من يراكن في ثيابكن الطويلة والعباءات السود تغطي أجسادكن حتى كعب القدم، وأهدابكن تتكسر خجلاً يقول راهبات خرجن من الدير، وفي النهاية كل فنون الهوى نجدها عندكن، حتى لتتفوقن على بنات التياترو الأجنبيات، آه من المياه الساكنة!! ماذا سيقول غداً ذوو الكروش الكبيرة وعباءات الجوخ من أهاليكن؟! يا ربّ السموات أعني فالسكاكين تشهر والرقاب تشتهي الذبح، ورائحة البارود تختلط برائحة البنفسج، وعطر اللحظات الخاصة يعلن عن إثمه الفاضح، وأغلق أجفانه لكن الأجساد العارية في أحضان رافي لم تفارق باله، وردّد قبل أن يغرق في نومه.

. يا بنات الكائنات ماذا أفعل؟ أعني يا الله.

ورأى في منامه نملاً وفراشات وأثداء نسوة تغرق في الدم والعرق، وخناجر هلالية تحزّ عصب الرقبة فيدفق الدم عبيطاً، والبلد تهب عليه زوبعة حمراء كالنحاس.

وفي الصباح، ولم يكن صباحاً ككل الصباحات التي يعرفها أبو الخير، شرب قهوته وراقب المكتب وكأنه يراه للمرة الأولى، كل الألفة ومشاعر الفهم

www.alkottob.com

والواجب والتقدير والاحترام، أصبحت موضع شك، كل وجه يراه وراءه امرأة خائنة، وكل وجيه يزوره مثقلاً بالعطر والخواتم والمال واللحم والجوخ ورائحة الفضيحة يراه قواداً يسلم إلى رافي مفتاح البيت، ويمضي كتيس خُصيَ.

"يا تيوس الماعز، يا شيوخ النور والقرباط يلزمكم الآن ربابة وخيمة وزبائن وتكتمل الصورة، وجوه بلد؟! أقفية عارية" ويستحضر صورة الفتاة وصورة أبيها، صورة المضافة ودِلال القهوة والوجاهة، صورة بيت رافي بخموره ودخانه وأسرّته الملوثة بالرائحة والدم والأصباغ والإثم.

. أبا عبدو.

. حاضر سيدي.

. أريد كل أصحاب الموتوسيكلات العامة الذين ينقلون الركاب أمامي هنا بعد ساعة، وليوقفوا كل رحلاتهم إلى القرى.

. أمرك سيدي.

. قلت كل أصحاب...

. أمرك سيدي.

. وأنت، لا ترجع بدونهم.

. حاضر سيدي، هل تريد شيئاً آخر؟

. لا. مع السلامة.

واستدار أبو عبدو، وهو يفهم أخلاق معلّمه، لكنه هذه المرّة يقف عاجزاً عن الفهم، فمنذ عودتهم من بيت رافي انقلبت طباعه، بات الغموض، والبرم، والنزق يكتنف تصرفاته وأوامره.

وألحت عليه صورة معينة، تكررت أكثر من عشرين مرّة ويعرف صاحبتها طويلة بيضاء مثل ناقة، بوشمها الأزرق الفاتن، ورقبتها الرائعة كلما التقته عرّته من ثيابه بعيني رئم وجيد جداية ظن زماناً أنه اللوح المحفوظ تكتب فيه مصائر البشر بحبر سري، فإذا بها مجرّد... مجرّد، وهزّ رأسه وعاوده السؤال: "كيف يبدأ التحقيق؟! وهل يجب أن يكون هناك تحقيق؟! المشكلة في الأمر صحافة وضغوط من فوق وعطف شعبي على مصاب كان هو يشعر به لكنّ هذا الشعور فارقه الآن، وفترت همته في ملاحقة الوضع فقد قادته الملاحقة إلى "عش الزنابير".

www.alkottob.com

ـ "ملعونة مثل هذه القرى الكبيرة، حسنات مثل حسنات البغال في الجر والخدمة، وآثام مثل آثام سودوم وعمورة".

صحا على صوت مساعده أبي عبدو:

. كل شيء جاهز سيدي الشباب ينتظرون أمام المكتب.

. أحضرتهم جميعاً؟

. جميعاً سيدي.

وخرج إليهم، كانوا يقفون متجمعين أمامه، وعيونهم تنظر قلقة، ما يريده منهم أبو الخير القاسي، ابتسم لهم ابتسامة شاحبة وقال:

ـ اسمعوا يا شباب كلكم تعرفون أن السيد رافي صباغ اختفى قبل أسبوع، أين؟ لا نعرف، الرجل اختفى، فهل بلعته الأرض أم صعد إلى السماء؟! إنه موجود في مكان ما من هذه الأرض ويجب أن يطلع وإلا ألقيت بكل من يملك سيارة أو دراجة أو حتى حماراً في السجن، فعليكم أن تمشطوا الأرض شبراً شبراً ومن وجد دليلاً فله مكافأة مجزية من الحكومة ومن السيد صباغ الأب، والآن بدون نقاش أو كلمة توكلوا على الله وابدؤوا.

وانطلقوا والجائزة تهوّن من شعورهم بالظلم، يجوبون المنطقة بهدير وصخب يليقان بالمهمة الجليلة، ومضى يوم، ثم آخر، وقد وصلت أرواحهم إلى أنوفهم، تعب ومساءلة الرعيان العابرين والعربان والبدو في بيوت الشعر، ونباح الكلاب والعجاج والسموم والشموس، ومن تلعة إلى وادٍ حتى أقلقوا الأرانب وبنات آوى، وأخرجوا القنافذ واليرابيع من غيرانها، والضيق يلج النفوس، والشتائم تطال القاتل والمقتول والحكومة، والأب المفجوع بطربوشه الأحمر وبذلته الإفرنجية، يجلس في المقهى الشعبي الذي يستخدمونه محطة للانطلاق والاستراحة، يدخن النرجيلة ويشرب القهوة، ويراقب الباب بانتظار الخبر وعيناه زائغتان وكلما سمع صوت محرك وقف مرتعشاً.

. الرجل فقد أعصابه.

. المصيبة كبيرة، ولد يا رجل ولد ولا كالأولاد، وحيده الغالي.

. الله يساعده.

. ويساعد كل أمة محمد.

يقولها بإيمان وثقة دون اعتبار لديانة أبو نبي الطرف الأخر، وفي كل يوم يضاعف الأب الجائزة مما شجع أصحاب الموتوسيكلات على الدخول والمشاركة

www.alkottob.com

في عملية البحث، وامتص من الآخرين مشاعر النقمة والضيق، كما أعطاهم الحق بملء خزاناتهم مجاناً من محطة المحروقات العائدة له.

وفي المساء دعا أبو الخير مساعده وسلمون العبد إلى اجتماع خاص في منزله، ولم يواجه أبو عبدو غرابة في حياته مثل حيرته واستغرابه لوجود قواد عريق وعجوز مثل سلمون العبد في اجتماع حكومي في قضية تشغل الناس والسلطة من دمشق إلى الرميلة، ولكن حين رأى الألبوم فارقته حيرته ولجمه الخرس والخوف والدهشة، وبعد أن استعاد هدوءه بدأ يكتب قائمة بالأسماء والعناوين وحين انتهى توجه أبو الخير بحديثه إلى سلمون:

ـ إذا خرج حرف مما رأيت سأشنقك على أعلى عمود كهرباء في البلد، هل سمعت أيها العجوز؟! ادفن لسانك القذر وإلا سحبته من قفاك.

ـ أمرك سيدي.

وخرج الرجل المهدّم، ولا زال في رأسه ثمالة من نشوة لرائحة الفضائح والدسائس وشؤون العباد النسوية.

وفي اليوم الثالث وجدت الجثة في أحد الوديان، وأمر أبو الخير بتوقيف عامل المحطة وإعادة التحقيق معه على ضوء الواقع الجديد.

***

مثل رائحة جثته المهترئة التي وجدها.

سائق الدراجة عقلة الأحمد في وادي السيل، بدأت رائحة الفضيحة تدخل البيوت تسكن كهامة الجرب بين تلافيف الدماغ ونياط القلب، وعصب الشعور، فتغثي النفوس وتزكم الأنوف وتشل الجسد، وتنسف العطف القديم على عائلة صباغ وما أصابها ليحل محله الحقد والنقمة والعداء السافر.

ـ يا لهؤلاء الفاسقين!.

ـ قد عجل الله الجزاء،

ـ جيرو جهنم.

واستعاد أبو الخير سيطرته على زمام الأمور، تابع تحقيقاته مع العامل وقد أقسم الجوار القريب من المخفر أنهم لم يناموا ليلهم ولا الليل الذي وليه من هول صرخات التعذيب التي كان يطلقها العامل الموقوف.

ـ من قتل رافي صباغ؟

www.alkottob.com

. لا أعرف سيدي.

. ومن يعرف إذن فآخر ابن حرام رآه هو أنت؟!

. تركني عند بداية الحارة وراح سيدي.

. إلى أين راح؟

. لا أعرف سيدي.

. ماذا تعرف إذن؟!

. بعرضك سيدي، أبوس رجلك.

ـ اسمع يا هذا، أنت لم ترَ شيئاً بعد لا زلنا في "أبجد هوّز"، وإن لم تقل الصدق والله لأستلنَّ روحك شعرة وراء شعرة من هدب عيونك، ومن أظافرك، وصرصور أذنك وكعب رجلك، وكوع يدك، هل جربت طعم النار على حبة الثدي؟! وبعدها أرفعك على أعلى خازوق في البلد لتكون عبرة للناس على مرّ الزمان.

. سيدي أبوس رجلك، والله لو كنت أعرف شيئاً لقلته لك.

. كذّاب.

. بأي الأنبياء والكتب أقسم لك؟!

. كذّاب.

ويشير بيده للدركي الواقف وينطلق الجئير طويلاً متألماً يدخل البيوت من النوافذ والطوق وأعشاش العصافير، وتنكمش القلوب والأجساد، وتدور الصرخة من حي إلى حي محمولة على أجنحة سرية تقلق هدوء الناس، وتبدد سكونهم، وتطلق ألسنتهم وخوف الخائفين منهم، وقد أخذ العطف يتسلق أسوار المخفر وحيطانه العالية ليصور العامل الموقوف وكأنه انتقم لشرف البلد المثلوم.

. والتالي؟!..

قال أحد عقلاء البلد، ثم أردف:

. بنات ومحاكم وكل استدعاء وتحقيق يهدم كرامة بيت، الاستمرار في الأمر مهزلة وعرض الناس وكرامتهم ليست رخيصة إلى هذا الحد.

. والحل؟!

ـ الحل وقف التحقيق بأي ثمن، بالمال، بالتهديد، بالجاه، بالقتل لا يهم، ثم كلنا يعرف أن الوكيل يبيع أمه بالمال، والذي لا دخل له في الأمر يتحرك قبل الذي تورط لأن الفضيحة فضيحة البلد وليست فضيحة زيد من الناس.

www.alkottob.com

. إذن نذهب اليوم مساء.

ـ لا، يذهب اثنان أو ثلاثة إلى البيت زيارة عادية دون أن يلفتوا نظر أحد ويدبروا الموضوع معه.

. وإذا رفض.

. لن يرفض فالوكيل يبقى ابن ناس وخلق، ومفتاحه في يدنا، المال.

وانفض مجلس العقلاء، قاموا إلى بيوتهم استعداداً لزيارة الليل.

بعد أن ودعهم أبو الخير عاد إلى غرفته، ومشاعر شتى تغتلي في داخله، ملأ جيوبه بالمال، وأفرغ قلبه من الشعور بأداء واجب ثقيل، يجثم على صدره مع كل حركة في التحقيق، وحسم تردده قائلاً:

"هو يستأهل القتل، وأنا أستحق المال، ورضى البلد، والناس يظلون مخلوقات تستأهل الستر، إذن لم يخرج أحدنا خاسراً من اللعبة، كل أخذ حقه"..

وقبل أن يأوي إلى سريره، سمع قرعاً خفيفاً على الباب، فأسرع يفتحه، وفي ضوء القمر رآها أمامه طويلة بيضاء كالناقة، تزهو بوشمها الأزرق، وعينين واسعتين تعريانه من ثيابه.

. تفضلي.

قال وهو يوسع لها الطريق، ولم يلحظ شبح رجل يختفي في الظلام، وكأنه أوصل أمانة إلى صاحبها ومضى.

***

من الجسر إلى الجبل تخلصت زهيرة من شعورها الخانق وحاجتها إلى البكاء، ومثل جناح مكسور قلبها هذا القلب الذي توقف منذ اليوم الأول للحادث، ولم تصدق أنه تحرك، ثم جاءت الأحداث والصور وعيون الناس، وصمت والدتها القاسي، وحركة الدكتور الحذرة، لتصدع جدرانه، وتشعل في الشرايين نيرانها.

ـ "الصفقة كانت شاملة يا زهيرة، كل شيء أو لا شيء، نعم أخيراً مجد الفضيحة".

وعندما اتجهت السيارة نحو الغرب، تحرك الدم، والعصب، وتذكرت قرارها في الرحيل إلى منهل في بيروت وقد رأت فيه العائلة قراراً معقولاً ومرضياً لكل الأطراف، وخاصة بعد طي ملف القضية المتعلق بالألبوم.

. "على بلد المحبوب...

www.alkottob.com

تعالى صوت من راديو السيارة، ففتحت كل جروحها، ولاذت بالصمت تكابر دموع الخيبة والأسى، وتابعت السيارة بالسفر السفر، والبلد يتضاءل رويداً رويداً حتى تشربه المسافات.

. على بلد... وديني.

الصوت يدخلها، وعقلها الباطن بعناد يلغي كلمة "المحبوب" ومن نافذة السيارة راقبت السماء والعصافير والفرات البعيد، وأكواخ الفلاحين

. خذني من سودوم... يا...

ولم تتم عبارتها، ملأ النسيم رئتها فاستراحت وانحنت تلعق جراحها.

***

أهلاً مدام أليس.

قال ديران وهو يقوم مرحباً بالمرأة الأرمنية الكهلة وهي تدخل بالعزم والحيوية والحياة، واثقة من فرض احترامها حيث حلت.

. أهلاً مسيو ديران.

. من تل أبيض أم من حلب كان القدوم؟

. من تل أبيض.

. كيف حال عين العروس هذه الأيام؟!...

. جنّة لا تليق بهؤلاء البشر.

وجلست على الكرسي بارتياح. فسأل ديران:

. قهوة أم شاي؟

. قهوة.

ومع رشفات القهوة الأولى بدأت مدام أليس شكواها، ولكن بدون ضعف:

ـ حين جئت من القامشلي إلى تل أبيض، لم تكن أكثر من قرية ميتة، لا كهرباء، ولا زراعة أو صناعة، بشر رعيان وأغنام، استأجرت الأراضي من أصحابها البدو واشتريت ممن أراد البيع حول عين العروس.

كان ديران يستمع وهو يعرف معظم التفاصيل، لكن كفاح هذه المرأة كان يسحره، ويبعث فيه الفخر.. وهي تتابع:

ـ بنيت في البداية بيتاً، ثم تجمعاً للآليات وسكن السائقين والعمال، وجئت

www.alkottob.com

بمولد كهربائي، وبدأت العمل في زراعة القطن والقمح، وحين اكتشفت حاجتي إلى المحروقات، وبعد المسافة بين تل أبيض والرميلة، أقمت محطة محروقات، ثم جئت بمعلم ميكانيك أرمني من حلب مع عماله، وافتتحت لهم ورشة مناصفة، فأصبحت القرية مكتفية، والناس يجدون ما يأكلون.

وعادت إلى ما بقي من قهوتها.. ثم تابعت:

ـ واليوم مسيو ديران... الفلاحون يسرقونني، وعمال المحطة يزورون في الحسابات، ويغشون الزبائن، حتى معلم الميكانيك الأرمني أفسدوه.. هذا وضعي، وأنا أفكر في تصفية أعمالي والهجرة إلى أمريكا.

. وتبدئين من جديد؟

. ماذا أفعل؟!... لا خيار لي.

قالت .. ثم استدركت.

. نسيت الأمر الذي جئت من أجله.

. أنا في الخدمة مدام.

قالها كما يقولها أخ لأخته الكبيرة، وانتظر أن يسمع منها ما تريد، وبالتأكيد لم تأته إلا من أجل شأن من شؤونها المالية.

وقبل أن ترحل قال لها مازحاً:

ـ احذري.. فقد أصبح أصحاب محطات المحروقات هدفاً للصوص، هذا رافي صباغ مثال على ذلك.

. مسكين رافي.

واستعدت للرحيل والعودة إلى تل أبيض، وجنتها في عين العروس.

***

. منذ آرتين مادريان لم يأتِ إلى البلد أرمني إلا ديران، وهذه المرأة.

قال اسماعيل الفارس لصاحبه الذي يرفض أن يسميه، وهو يلمح مدام أليس تخرج من البنك، فسأله صاحبه:

. ومن آرتين هذا؟!..

. جاءنا منفياً مع رفاقه من بيروت، وكنت في بداية عملي مع الفرنساوي.

سكت قليلاً ثم تابع:

www.alkottob.com

ـ تريد الحق؟؟ لقد دوّخ المخابرات، ولم يأخذوا منه حقاً أو باطلاً... كان أذكى من العصفور.

. وما زلت تذكره؟!

. الرجل مثله لا تنساه الذاكرة.

ومضى الرجلان باتجاه النهر، بانتظار المساء للعب أو الشرب... لا فرق.

***

www.alkottob.com

للمرة الثانية يرى شملان بن جابر جده ضاري.

في المرة الأولى رآه عياناً، وحيداً مع خلوجه، وفهم الإشارة "أن ابتعد عن النساء وأخص بنت "التعاويذي"، وفي الثانية رآه في المنام يقود كلابه القرباطية وجواريه السود وأولاده الخلاسيين ويمعن عميقاً في السراب، وخلوجه ترقل، والأرض بساط ينطوي تحت خفها، وقد ظللته غمامة من الجراد النجدي، وراقبته عيون الوحش والطير بخوفٍ أبكم، ولم يفهم الإشارة أو المراد، بل فهم أن روح هذا الشيفالييه البدوي . واللقب أعطته له فرنسا مقابل قبوله بالانتداب أمام لجنة كراين . مثقلة بالدم و الخطايا والآثام ولن تهدأ أو تعرف السلام".

وفي صباح شرب قهوته من يد محمد الأخرس ونادى:

. ذبّاح.. أنت يا ذباح.

. عونك يا عمي.

. السيارة جاهزة؟

. جاهزة يا عمي.

. رُحْ جهز روحك.

. إلى البلد يا عمي؟

. لا.. إلى الشام.

. علىخيرة الله.

. لا تنسَ وأنت راجع خذ "الشنطة" من البيت.

. أمرك يا عمي.

وانفتل عائداً وهو يردّد بينه وبين نفسه "كل يوم والثاني سفرة إلى الشام. ماذا جرى لك يا بن جابر، هي روحك معلقة بالشام؟!". ثم تابع إلى حيث السيارة

www.alkottob.com

وبيوت الشيخ والخيل الأصيلة،

وتذكر شملان أن كل شيء أصبح جاهزاً حتى موافقة الوكيل أبي الخير على عبور الشاحنات، هذا الوكيل الذي قبض ثمناً باهظاً مقابل عبورها الجسر وإغلاق المدينة مدّة أربع عشرة ساعة، قرية كاملة من قراهم وسيذهب اليوم لإجراء عملية التنازل في الطابو باسمه، والفرصة جاءت، الحشود التركية على الحدود، فلا أسهل من العملية، فها ساعة زودك دنت يا شملان، سترعى إبل عنزة شجر الغوطة، وفي تلك اللحظة فوجئ أبو الخير بزيارة أخرى لوالد العامل الموقوف، في الزيارة الأولى طلب الإذن في الدخول إلى ولده، علّه يعرف منه شيئاً، أو يقنعه بالاعتراف إن كان في بطنه شيء، وكان الرجل عاقلاً مهيباً، فارقه الشعور بالحرج من فعلة ابنه، بعد الفضيحة ومشاعر الناس بالعرفان وخروج العمل من الجناية إلى البطولة تمنى لو كان ولده هو الفاعل، فعلى الأقل يدخل رصيد العائلة مأثرة حقيقية في الرميلة تعتبر مفخرة، وبعد حديث قصير قام أبو الخير كالملسوع مسرعاً إلى السجن وبدأ اعتراف الشاب:

"في الليلة المذكورة أغلقنا المحطة كالمعتاد، وكان المعلم مبسوطاً، يلّوح بسلسال المفاتيح ويترنم بأغنية شائعة، وعند إطفاء آخر ضوء من الأضواء الخارجية، قال: "اركب ولك حسن، هذه الليلة بألف ليلة"، ثم انطلق ولم يكن في الشارع "دومري" اللهم إلاّ صفارات الحرس الليلي البعيد، والظلام وفوانيس الكهرباء، وعند بيت الدكتور مهنا قال مازحاً وأظنه . والله أعلم . كان سكران "روحي راحت عليكِ"، ثم أسرع في الشارع الخالي وقبل البرج القديم رأينا شبحين أشارا فتوقف المعلم، ركب أحدهما إلى جانبه، والآخر إلى جانبي وراءه تماماً، ومضت السيارة وحين أراد الانحراف إلى الحارة لإيصالي قال له الراكب الذي إلى جانبه "لم يبقَ لدينا ما يكفي من الوقت، دعه يذهب معنا فعلى ما يبدو هو ولد طيب وينفع لحراسة السيارة"، وانحرفنا إلى اليمين، خرجنا من البلد وعند الطريق المؤدي إلى الجزرة، وكنت نائماً تقريباً صحوت على صرخة ألم، وصيحة "يا حسن ذُبحتُ" لجمني الخوف وأنا أرى يد جاري مرفوعة والدم يقطر من أداة حديدية نسميها بلغتنا "راسكيته" لها ثلاثة رؤوس مدببة، وبعدها لم ينطق، واستلم المقود جاره، الذي هدّأ من سرعة السيارة ثم نزل واستلم القيادة وقد توقفت كل حركة في جسد المغدور، وقد هدداني فأنا على معرفة بالاثنين، وفي وادي السيل ألقينا بالجثة وعدنا إلى المحطة والمفاتيح معنا، وصدمنا حين اكتشفنا الخزنة فارغة وتعاهدنا على السكوت، واليوم سمعت أنهما سيهربان إلى الأردن، فها أنا

www.alkottob.com

أعترف وأقرّ بكل شيء".

. على كل فعلت عين العقل باعترافك.

قال أبو الخير ثم انطلقت البرقية إلى كافة المراكز والحدود بأوصاف شريكيه واسميهما وأصبحت القضية من اختصاص القضاء، فتنفس بارتياح، وتحركت أموال رافي وسط سخط عام ضايق محاميه فيما بعد كثيراً وساعد الجناة.

. هل السيارة جاهزة؟

. كل شيء جاهز يا عمي.

. هيا بنا الآن.

وقام شملان إلى السيارة يجرّ عباءته، وكأنه يربط الدنيا إلى خيط عقاله الأسود، والشمس فاكهة من الضوء والبهار، ومن أقصى الخيام جاءته دعوة أبيه جابر بن ضاري:

. موّفق يا وِلْدي بكل خطوة.

وكشّر ذباح عن أسنانه البيض، ومضت السيارة إلى سبيلها تاركة زوبعة من الدخان والغبار خلفها.

***

في حلب تمت إجراءات نقل الملكية بسهولة ويسر بالغ.

وعاد أبو الخير إلى البلد يحمل في جيبه أوراق ملكيته الجديدة، وحميا للعمل في حفر الخنادق الدفاعية تحسباً لهجوم محتمل من قبل تركيا الجارة، بينما تابع شملان بن جابر طريقه إلى الشام وفي أصيل ذلك اليوم عوت سيارة الإسعاف وهي تنحدر إلى السوق، وعند زاوية مقهى السراي ترجل رجلان منها واقتربا من أبي علي بائع المشبك، وربتا على كتفه، وبعد حوار قصير:

. أنت حسين بن علي حميشة؟!..

. نعم.

. مواليد حلب حارة الكلاسة؟!..

. نعم.

. اسم الأم عيوش؟

. نعم أخي، أي خدمة؟!

www.alkottob.com

. تفضل معنا.

. إلى أين؟...

. ستعرف بعد قليل.

. وجرّه الرجلان إلى داخل السيارة، وانطلقوا به فصاح:

. عدّة الشغل، المشبك... المشبّك.

. لن تحتاج إليها بعد الآن، فالمكان الذاهب إليه يتكفل بكل شيء.

. وهذا المكان بعيد أخي؟

. قبل حلب بخمسة كيلو مترات، هل عرفته؟ السرايا الصفراء.

. مستشفى المجانين يا إخوات...

جعر بألم لكن المرافقين أجبراه على الخضوع، فقال بحزن:

. فعلها الحاج سعيد النهري، أخ يا حلب الخائنة، حتى أنتِ عليَّ.

وتابعت السيارة طريقها إلى الغرب، والناس ينظرون باستغراب إلى القادمين الجدد، وظلت الصينية مليئة بأقراص المشبك الحلو أمام المقهى إلى اليوم التالي، وكأنها تنتظر صاحبها الذي لن يعود بحزن.

***

قد مرّ أيام وربما أشهر عديدة.

ولكن ما جرى تلك الليلة، يظل محفوراً في ذاكرة الناس، يمكن استعادته ولكن لا يمكن تكراره، حين تحوّل كل شيء أزرق، الوجوه واللحى والشوارع والليل، والأطفال وأدوات المنزل والأسرة، وبزات الحراس وبنادقهم، وقمر الديرة وفوانيس البترول ولمبات الكهرباء، وأجساد النسوة العاريات في الحمامات أو الفرش.

أول من اكتشف الأمر سعيد النهري الذي لا ينام إلاّ عارياً مع زوجته الأخيرة، فبعد غروب الشمس وبداية زحف الظلام، امتدت يده إلى مفتاح الكهرباء، يشعل الضوء، وكان نسي أنه دهن الزجاج ولمبات الكهرباء باللون الأزرق، ففاجأه هذا اللون الذي تدفق، فصبغ الأثاث والثياب كحبر هائل، ولمَّا نظر في المرآة، فوجئ أكثر حتى أسنانه ولسانه وشعر رأسه تحوّل إلى الأزرق.

عرَّى زوجته فرآها زرقاء، ولأول مرة ينام مع امرأة زرقاء، ففكر بخوف لو نام معها أن ينجب طفلاً أزرق فقال:

. فطوم.

www.alkottob.com

ورفعت إليه وجهاً أزرق وعيوناً زرقاء، ونظر إلى زهرتها، كانت أيضاً زرقاء فهاجمه خوف لم يعرفه من قبل، اقترب من النافذة، ونظر إلى الشارع، كانت البيوت تغرق في ليل من الحبر الهائل، ولما رفع رأسه إلى السماء طالعته النجوم زرقاء، فاكتشف لأول مرّة قيمة تعدد الألوان فأعاد نداءه:

. فطوم.

. نعم.

. البسي ثوبك وهاتي لي فنجاناً من القهوة.

لبست ثوبها ومع هذا لم يفارقها اللون، وحين عادت بالقهوة كانت الصينية والفناجين والدلة مصبوغة باللون نفسه، فقاوم خوفه وقام إليها، أغمض عينيه وقادها من يدها إلى الفراش، وقد اشتعل نصفه الأسفل، تاركاً القهوة يتصاعد منها بخار أزرق وحار.

***

أمّا العجوز "عدّولة" فبعد أن دهنت لمبة الكاز بقليل من "الزيرقون" الذي تستخدمه في الماء الحار عند الغسيل فإنها أشعلت الضوء ونامت منذ الغروب بعد أن قدّمت للعنز الوحيدة التي تملكها الأكل، وعند منتصف الليل أحست العجوز بأنفاس حارّة عند رأسها، أرادت أن تصرخ لكن لسانها خانها، فكل ما حولها أزرق، الجدران وأثاث الغرفة، وهذا المخلوق الذي يشبه عنزتها لكنه أزرق هو أيضاً.

. بسم الله الرحمن الرحيم.

أسعفتها الكلمات أخيراً، ثم وقفت على قدميها، نظرت إلى القمر و النجوم والليل كلها تحوّلت إلى لون الزيرقون، كأنما غطست في وعاء واحد، فتشاهدت ووحدت ربها جلّت قدرته وانتظرت مايمكن أن يحدث.

***

ولم يكن وقع الأمر أقل على "زغير البسَّان" وابنته سعدى.

فمنذ يومين اكتشف أن جلد الفتاة وعيونها تلونت بالأصفر، وارتمت عن حيلها وفارقتها الشهوة للطعام، انطرحت تئن، فحار في أمره، ماذا جرى للبنت؟...

سأل نفسه وهو يلعن لحظات المرض فهي تكلف مالاً ووقتاً ودكاترة متعجرفين والحلال دائماً بحاجة لمن يقف إلى جانبه فالراعي في هذه الأيام لا ينفع، يوم أو يومان ويتراجع هذا الصفار، وخاب ظنه، ازداد أكثر وقالت العجائز:

www.alkottob.com

ـ البنت عندها "أبو صفار"، ويجب أن تراجع الحكيم لأن علاج المرض يطول وعواقبه ملعونة.

وأبو صفار هو الاسم الشعبي لليرقان، ونزولاً عند إلحاح العجائز، جهزّ زغير البسان عربة الجرّ، وسقى حصانه، ثم انطلق من قريته عند الغروب فالمدينة قريبة بعد أن أوصى أهله بالخراف الصغيرة، وطوال الطريق كان ينصت إلى دواليب العربة تصارع الدرب الخشن، فتتمايل ذات اليمين والشمال، وفي منتصف الطريق غابت الشمس تماماً، فلفّ سيكارة أخيرة على ضوئها، ثم دفع حصانه وقد بدأ الطريق ينصلح.

لم يفكر زغير البسَّان أن ينام؟.. فالبلد خالٍ من الفنادق، وآخر خان كانت تستخدم شركة السوس جزءاً منه لمبيت موظفيها وإيواء بعض السفار الأجانب أغلق أبوابه، ثم لماذا الفنادق؟.. هل انقطعت المعارف والعادات، فأي بيت فيه ضوء وساكن لك حق الاستئذان والأكل والنوم فيه.

. سعدى.. سعدى.

كانت سعدى تغرق في النوم، فالتفت خلفه، ناداها، فرفعت رأسها وردت بصوت ضعيف.

. ها، يابا.

. قربنا من البلد، كيف صرتِ؟..

. زينة.

قالت وشعر زغير البسَّان بحركة الأرانب وبنات آوى العاوية تلمع عيونها، والدرب يطول، وتمتط المسافة، هل ضيع الدرب الصحيح، على كلٍ في الليل تتشابه الدروب والأرض، نظر حوله، رأى القمر يصعد من وراء التلال قرصاً من الجبن الأبيض والنور، والنجوم ضاحكة في غابة الظلام.

ـ ماذا لو انتظرت إلى الصباح يا زغير البسَّان؟.. الليل وسفر الليل وشغل الليل دائماً مذموم وناقص ثم هذا جزاءمن يطيع النسوان.

قال زغير البسَّان يلوم نفسه، ثم تابع:

. كل هذه المسافة التي قطعناها ولم تظهر أضواء البلد؟!...كل مرّة نراها من مسافة ساعات، يعني هربت البيوت أم ابتلعتها الأرض؟!...

ولفّ سيكارة جديدة على ضوء القمر، فآنس الدخان، وعاود الاستماع إلى روح البرية الساكنة، وصوت الدولابين وذيل حصانه يتحرك بعصبية وكأن ضيق

www.alkottob.com

صاحبه انتقل إليه بالعدوى، هل يعقل بعد كل هذه السنين أن يضل زغير البسان في البرية؟.. وهو الذي يعرف الأرض من هنا إلى العراق والأردن والسعودية كما يعرف راحة يده، فما أكثر ما مشاها مطارداً أو مع أغنامه، أم أن عليه أن يظل طوال عمره يدفع ثمن جريمته من فرح أيامه وأعمار أولاده الذين اخترمتهم يد المنون واحداً بعد الآخر فلم يبقَ له سوى سعدى والصغير عساف.

***

قبل ثلاثة عقود، كأنها البارحة، رفع جاسم السلمان . وهو الاسم الحقيقي لزغير . خنجره في ساعة شرّ شق بطن ابن عمه حمود، فدلق مصارينه في الأرض، وكل ذلك من أجل بئر ماء حفرها بأسنانه وأظافره مع إخوته، وفي النهاية أراد حمود التحكم بها، وحتى لا يتفانى الناس بينهم وهم أبناء عمومة دفع الدية من ماله الخاص حتى لم يبقَ له مال، ففي العرف القبلي لا تدفع العشيرة ديّة حين يكون الأمر بين أبناء عمومة منها، ثم قرّ العارفة بأن يجلي عن الديرة ولا يرى الفرات طوال عمره، ومن وجده، فدمه مباح ولا ديّة له، وغاب من ديرة إلى ديرة، ومن أرض إلى أرض، ومن عرب إلى عرب، والجزيرة تأتيه في المنام بقطعاتها وعربانها، وفراتها المهيب، كوّن مالاً وتزوج وغير اسمه، والجزيرة لا تفارقه حتى مرّ عشرون حولاً، وكلما أتاه ولد أخذته يد المنون، فطاش عقله، وفي لحظة يأس قال لامرأته:

. هذه الديرة لا توافقنا، واجب نرحل.

ولم تعترض المستورة، عافت حمولتها وتبعته، فالفرس تتبع الرسن، وقال في نفسه يعزيها:

ـ على الأقل ندفن عظامهم وعظامنا بأرض ديرتنا، إذا تتكر لنا الناس، فالأرض لا تتنكرلنا بالتأكيد.

وكان زغير البسّان قدترك لحيته كالدراويش، فما عادت تتعرف إليه حتى أمه، ويوم نام ليلته الأولى بعد أن عبر الفرات في الجزيرة، شعر بأثقال عمره التي أنقضت ظهره، وبأحزانه تفارقه، وبرائحة أهله وديرته القريبة تدخلان كل روحه وجلده فقال لنفسه:

. اليوم أنام على ظهري وأنا مستريح.

ومع هذا ظلّ زغير البسّان يدفع ثمن جريمته، ولا يقترب من عربه خوف افتضاح أمره، فالفراسة ورائحة الدم وطريقة النطق، لا تخفى على الرجال المجربين

www.alkottob.com

حتى لو استطاع أن يتستر وراء ألف قناع، وهو لا يطمع في أكثر من البقاء قريباً من الديرة يرى أناسه من بعيد، ويشم رائحة الخضيرة كلما هبّت الريح من ديارهم، ويشاركهم الأرض التي لا يخون ربيعها، لتلمّ عظامه مقبرة الأهل كما ضمت . دون علمهم . عظام أولاده الذين ماتوا في الغربة، لقد نبش قبورهم كلصوص الآثار وجاء يحملها لتواسدها عظام من لحقهم من إخوة فيما بعد.

. آه يا زغير، يا من ليس له كبير، دنياك حجر صوان ما تلين، ولا يلين لها قلب أو يضحك لها سن مثل أم القتيل، أخذت منك الحق وثلثين الباطل وأنت تركض حفيان الروح من شيخ إلى حكيم، وما من فائدة، الموت ساكن معك بين الرفة والكاسر، الحلال يزود، والأولاد ينقصون، أي ابن حرام هذا العارفة الذي قضى عليك أن تجلي ولا ترى الفرات بعينيك؟!... لو سلمك للحكومة لكان أهون، سجن يمر وتعود. لكن.. آخ، أنت ما قتلت ابن عمك يا زغير، أنت قتلت نفسك وخلفك.

لا يعرف زغير البسّان كم مضى من الوقت، نسي الدروب، والعربة، والحصان، وهو بين اليقظة والمنام، وفجأة إثر هزة كادت تلقي به خارج العربة أفاق، فتح عينيه بدهشة وخوف، يا ربّ القدرة، ما هذا الذي يراه؟!... وأين هو؟!.. هل هو على ظاهر الدنيا أم اختطفه الجن الأزرق إلى مملكته؟ أم أن الله استدعاه إلى السماء لتصفية حسابه الأخير؟ تلفت زغير حوله، الشارع والمنازل والجدران التي يحفظ شكلها، والأشجار، وأعمدة الكهرباء والعربة والحصان وسعدى النائمة ويده التي تمسك الرسن كلها زرقاء، يا إله الكائنات رحماك، ومن جوف هذا البحر صاح أحد الدرك.

. أنت، هناك قف.

وتوقف تماماً، وجاء الدركي، كان هو أيضاً أزرق، أسنانه وبارودته وصوته البارد الآمر الناهي:

. ماذا تفعل في مثل هذه الساعة؟

. أنا؟!

. نعم أنت.

. يابن الأجواد، لا تزعل من عمك، الليل والتعب والهموم خبلنّ عقله.

. ألا تعرف أن التجول ممنوع بعد السادسة.

. وما معنى التجول؟ ثم من أين لي أن أعرف وأنا غريب عن البلد؟

www.alkottob.com

. تظلون أجحش من حميركم.

. الله يسامحك.

. خلاصته، إلى أين تذهب؟

. إلى الحكيم معي مريض.

. وأي حكيم في عيادته الآن؟!

. والحل برأيك؟!.

. ترجع، تدبر رأسك خارج البلد، لأن أية دورية تصادفك ستأخذك إلى الحبس فوراً.

ولم يجرؤ زغير البسّان على الاستفسار عن اللون الأزرق، وهذه الدنيا التي انقلبت إلى لون الحبر، فاستدار بعربته عائداً، وحين خلف البلد وراء ظهره عاد كل شيء إلى حالته الأولى.

كانت أنباء العدوان الثلاثي تملأ البلد.

فالآذان تلاحق نشرات الأخبار من محطة إلى محطة، وقد امتلأت النفوس بالزهو، والاعتزاز، فلا حديث في المقهى أو المضافات والدواوين ومخازن التجار إلا عن مصر وعبد الناصر، والعروبة التي تجمع القلوب، وقد رافق ذلك أنباء محلية غير مؤكدة عن تهويلها، فكثرت الأحاديث عن سور الدبابات والجند المسلح والمدافع وعن توقع غارات جوية ليلية على البلد، كل ذلك ينتظر إشارة من استانبول للتحرك.

وقد تأهب أبو الخير بسلاحه الكامل، وهو يمر على رجال المقاومة الشعبية من المتطوعين يتفقد سير العمل في إصلاح الخنادق الدفاعية التي حفرها الرجال في ظاهر المدينة قبل عام مضى أيام الحشود العسكرية السابقة، وكان الرجال المتعبون الذين علاهم الغبار حين يرونه قادماً ينهضون، ثم تسري في عروقهم موجة من الحماس والاندفاع فيهزجون بأناشيد شعبية تنطق من حناجرهم، تمجد البسالة وتتوعد العدو القادم بالويل والثبور.

. يمنع التجوّل من الساعة السادسة مساءً إلى الثامنة صباحاً وكل من يخالف الأوامر يعتبر جاسوساً لتركية، ويتعرض لإطلاق النار من أية دورية تصادفه، والأمر ساري المفعول إلى حين صدور تعليمات جديدة.

أعطى أبو الخير أوامره في اليوم الأول، وفي اليوم الثاني أمر:

www.alkottob.com

. يدهن زجاج النوافذ والأبواب الخارجية باللون الأزرق، وكل من يخالف يدفع غرامة خمسمائة ليرة سورية والحبس شهراً.

وفقد اللون الأزرق من البلد، فلقد صبغ الناس كل شيء الزجاج ولمبات الكاز والكهرباء وتصرف آخرون، فدهنوا لمبات النور في الشوارع، ومن فاته الدهان لجأ إلى الزيرقون الذي تضعه النسوة مع ماء الغسيل للتنظيف، وكان قد تلقى ساعة الصفر من الشيخ شملان في تلك الليلة الزرقاء فأشاع عن احتمال غارة جوية، وطلب الاقتصاد في الإضاءة قدر الإمكان، وعدم فتح الأبواب والنوافذ لأي طارئ كما نشر حرسه في كل زاوية وشارع، وبيدهم الخيزرانات والبنادق، ينقرون بها على الطوق وكأنهم يقولون للناس "نحن هنا" وعند أية حركة يصرخون.

. نوّس الضوء يا حيوان.

ثم يردفون بعد جولة حول البيت:

. أغلقوا الشبابيك جيداً.

وفي الظلام الأزرق الذي فاجأ الجميع تعالت الهمسات لعجائز خائفين:

. ياربّ بحسنة حيوان، يا ربّ بحسنة طفل، استر يا ساتر.

ثم تسبل العيون أجفانها بتبتل صوفي، ويتذكر الرجال خطاياهم، والنسوة آثامهن في خوف، وتموء القطط تحت ضوء القمر الأزرق وتعوي الكلاب بالمقلوب في الهدوء المخيف وتقول عجوز:

. هذا شيب رأسي إذا رأيت طوال عمري ليلاً أزرق مثل ليلنا.

ويتعالى وقع الأحذية العسكرية الثقيلة على الأرصفة والطرقات، وتبدو مصابيح البلدية في الضوء الخفيف والأعمدة الزرقاء، وعند الساعة الحادية عشرة كانت طلائع قافلة من السيارات الشاحنة تعبر الجسر دون توقف ثم تتابع في قلب البلد الهاجع في الظلمة الزرقاء، وقد ظنها الحرس تحركات عسكرية سورية سرّية في طريقها إلى الحدود السورية التركية، وقد مدّ الحرس عنقه وسأل رفيقه هامساً:

. ألا ترى أن القافلة صغيرة العدد؟

. وهل تظن القيادة حمقاء إلى درجة أنها تحرك كل قواتها دفعة واحدة تحت سمع وبصر العدو القريب؟... بالتأكيد تراها الآن وزعت القوات علىطول المعابر وهي في طريقها الآن إلى مواقعها الجديدة.

. معقول.

www.alkottob.com

وتابعت القافلة طريقها وسط الهدير دون توقف، وقد أخفى السائقون ملامحهم تحت واقيات قبعاتهم العريضة، ولم تصدر عنه كلمة أو حركة خارج عملهم في قيادة شاحناتهم سالكين الطريق الذي يقود إلى العين، حيث ينتظرهم رجال الشيخ لإفراغ الحمولة في مستودعات خاصة بعيدة عن القرية، كانت تستعمل للأعلاف وخزن الغلال.

وفي الساعة الثالثة كانت القافلة في طريق العودة تعبر المدينة، ثم الجسر، وتتجه إلى الشرق فالجنوب عن طريق جانبي غير مطروق، وبعدها غابت الأصوات في ملكوت بادية الشام وغاب معهم سر الرحلة، وأفرخ روع أبي الخير مع غياب آخر صوت وضوء، فعاد إلى البيت، لينام طويلاً.

****

في الصباح بعد القهوة ركب الشيخ جابر بن ضاري سيارته ومضى وحيداً يقطع الطريق إلى البليخ، وهناك توقف، نزل من سيارته ولم يتكلم، كان بحاجة إلى أن يكون وحيداً، فالآمال قادمة مع رجال الحكم الجديد فلن يكون له ربع أو نصف بل ستكون له هذه الدنيا كاملة، وسيمتد مجد ضاري وسلالته من ظهر إلى ظهر دون خوف وستكتم دعوات الإصلاح الزراعي والخوف من المستقبل وستكون سلالة من الجيل الجديد الذي لم تعرفه سلالات المشايخ، جيل يخفي تحت عباءة الشيخة ثوباً حكومياً، فله سلطة العرف وسلطة القانون تطبيقاً لشعاره الذي أعلنه: "شيل السلاح، ورفع الإصلاح".

. خلِّها في بالك يا جابر قلب الشيخ واجب أن يكون مثل البير لا يفيض بما فيه، والشيخة مثل النهر الذي لا يبدل مجراه، وأنتم اليوم مجراه وأرضه.

قالها له ضاري بن سلطان في هذا المكان، وكان طفلاً يركض وراء اليرابيع والقطا وبيوض الحمام، وما نسي، ظلت الكلمات محفورة في ذكرياته مثل كيّ الحديد الحامي واليوم أين عيناك يا ضاري؟

هجس ثم انحنى يحمل حفنة من التراب الخشن "هذا هو الشيء الوحيد الذي يملأ عين ابن آدم الفارغة، ورمى الكومة ثم استدار عائداً إلى السيارة، وقد شعر برغبة في فنجان من القهوة المرّة.

***

. سأحتفل اليوم وأسلطن مثل هرون الرشيد، فهذا الرأس نسي الكيف، وما عاد يحتمل كل هذا التعب والتفكير، فالأمر تمّ كشربة الماء، وليحكم الشيطان، فهذه

www.alkottob.com

البلاد نسيها منذ زمان بعيد.

قال أبو الخير وهو يتخفف من ثيابه طروباً، ويرمي بحذائه العسكري بعيداً، وقد بدا البيت نظيفاً مرتباً يليق بساكنه، وحين حشر جسده الضخم في الجلابية بعد الحمام انتشى برائحة الصابون والهدوء، تناول طعاماً بارداً من الثلاجة، ثم غفا، وعند الغروب صحا على جرس الباب، تحرك وهو يفرك عينيه ليطرد بقايا النوم، ولم يشعر بالغضب.

. عفواً يا سيدي.

قال له أبو عبدو وهو يفتح الباب له، فردّ عليه بتكاسل.

. خير.

. سيدي يمكن الوقت غير مناسب... سعادتكم.

. بلا وقت بلا بطيخ أبا عبدو، خير؟

. سيدي قلت بعد كل الجهد الذي بذلته لابد لك من الراحة.

. ما الفائدة وأنت ورائي مثل غراب البين.

. أعوذ بالله سيدي، من بعد إذنك؟..

قال ثم أسرع إلى باب البيت... صاح:

. عواد، تعال.

ودخل رجل يحمل سلة ومن ورائه شخصان يحملان أشياء أخرى وقد بان الخوف والحذر في الوجوه الشاحبة.

. من أين كل هذا أبا عبدو؟..

. سيدي الحاج سعيد النهري يسلم على سيادتكم ويقول لك مأكول الهنا، ومقام سيادتكم أكبر من كل أشياء الدنيا.

. وماذا في السلال؟

. فروج ولحمة وكبب وفواكه ولوازمه.

. وهل انقطع الأكل من البلد.

. أعوذ بالله سيدي، لكنه يقول لك إن زوجته الأخيرة من حلب، وهي طباخة ماهرة ومعلوم جنابكم سيدي، البلد مافيه مطاعم تليق بمقامكم.

. مقبولة وبلغ الحاج شكري.

www.alkottob.com

. لا شكر على واجب سيدي، تعالوا إلى المطبخ شباب.

وتحرك الرجال وراءه، ومن بعيد تناهت ضجة أبي عبدو وجماعته وهم يرتبون هدايا الحاج سعيد إلى سمعه، فقام إلى ساحة الدار يرقب السماء التي امتلأت بالخفافيش والأضواء الزرقاء، فطن إلى لعبته الكبيرة، فابتسم بتلذذ وانتصار وكأنه ملك الصين وما وراء النهر.

بعد رحيل أبي عبدو استسلم أبو الخير للنعومة ودماثة النسيم، ثمّة أفكار كثيرة تعبر رأسه كرفوف السنونو في موسم الدفء، ثمة مستقبل مشرق وراحة فياضة بعيداً عن الشموس والمنافي ووجع القلب في بيت دمشقي وامرأة جميلة، يا الله حتى المرأة نسيها في زحمة مشاغله، فتذكر زكاء رفيقة الرحلة، لكنه صرف النظر عنها سريعاً فهي في حمى رجل حقيقي، وشاقته تلك الزائرة الليلية في حادث رافي فحّن إليها، كانت امرأة من نار وزبدة وجوري، لها ضحكة كرنين الذهب، فيها غواية إبليس وسرّه، قالت:

. هل تصدق؟.. القائمقام العجوز السابق ظل يدفن رأسه في هذا الصدر من الرميلة إلى حلب غير عابئ بالعابرين والسائق وطول المسافة، وقائد الفصيل الذي قبلك "باس" عتبة البيت فلم ينل ولو نظرة، وابن الكلب مأمور الطابو قال متوسلاً: أنام ساعة فوق سرّتك وأسجل باسمك البلد من العراق إلى الحجاز". وسكتت لحظة ثم تابعت:

ومدير المال عرض عليّ كل مافي الخزينة، ومثلهم ضيوف من الشام جلودهم ناعمة مثل الحريم، لهم أصابع وألسنة جيدة.

. وماذا عن رافي؟!..

ـ هذا معدن آخر، المرأة بين يديه تتحول سروة ريانة وفرحانة رأسها تحت العرش وخلاخيلها على صدر إبليس.

. والشيخ جابر؟؟

. الشيخ جابر لا يجرؤ.

. والسبب؟!..

. الدليمية فهو يخاف من حرمته، لكن ابنه شملان لا يقّصر، فهو مجلّي في مثل هذه الأمور.

. والبنات الأخريات؟

. بنات كلاب، يركضن وراء الكيف والذهب.

www.alkottob.com

قالت، ثم أردفت:

. نحن في مخفر للتحقيق أم في بيت للكيف عجيب أمركم يا الدرك؟

. الحق معك.

كانت بنت حرام خالصة، تترك ندوبها في القلوب والجسد والروح كالعطّابة، كلما تحركت أوجاعها حننت إليها، إلى هذه النبعة وسط المنفى الخالي هذا، والآن ما عليك إلا أن ترسل في طلبها لتحتفل، علّ هذا الرأس ينتشي بعد كل هذه الأثقال القاصمة والتوترات.

. أين سلمون العبد؟

سأل ثم قام واقفاً، وتحرّك إلى المطبخ العامر بكل شيء، ولم ينتبه إلى الوقت الطويل الذي مرّ، لكن جرس الباب فاجأه برنين طويل.

. من هذا الزبون؟..

قال ثم توجه إلى باب الدار متثاقلاً، وحين فتح الباب هبّت نسمة من العبق العاطر، وطالعته قامة شاب ملثم بكوفيته، وقد أمال عقاله المرعز على جانب وكأنه يتحدى أبا الخير، ومن خلال الضوء الأزرق الخافت أطلت عيناه البراقتان ودون أن يقول شيئاً عبر إلى الداخل.

وتبعه أبو الخير مشدوهاً، وفي الغرفة جلس وخيزرانته بيده وقد لحظها لأول مرة، فقال:

. أهلاً وسهلاً. أية خدمة؟

. سلامات.

وأسقطت اليد القناع، فأشرع وجهها كقرص من الجبن الأبيض المشرب بالجوري وانطلقت ضحكتها ساخرة جذابة.

. هذا أنت؟

. نعم، من لا يسأل عنّا نسأل عنه، فنحن لا ننسى المعروف.

. أهلاً ومليون مرحباً.

وبدأت تتخفف من ثيابها طروباً مرحة، والبيت يتحول إلى سفينة من العطر والضوع، تمخر ليل المدينة الأزرق.

. في الطريق اعترضتني واحدة من دورياتك.

. وماذا فعلت؟..

www.alkottob.com

ـ همست في أذان العريف "عندي ورقة من أبي الخير" فتركني، على كلٍ المسافة كانت قريبة من بيتك.

. اسمعي هذا الباب لن يفتح للرئيس.

قال ثم توجه إلى باب الدار يغلقه بالمفتاح، وتابع:

. كل شيء جاهز في المطبخ عندك.

وقامت شجرة من السرو الريان رأسها تحت العرش وخلاخيلها على صدر إبليس الآثم، مثل غواية وفتنة.

***

www.alkottob.com

الكتاب السادس
زيزان الظهيرة

www.alkottob.com

www.alkottob.com

تل الهوى!! ماذا فعل بك رافي صباغ؟!

بل ماذا فعل بكل المنطقة المحيطة بك؟! هذا الرجل المفتون بالذهب والحياة والملذات دمّر روحك، عكر صفاءها الخلاب، وعذوبتها البريئة، فرهنك إلى شيطان القمار وأنفاس التبغ الثقيلة، وليالي الفسق الحرام، فكان المال نقمة بدل أن يكون نعمة، لقد حولّك القطن إلى مومس تغرق في طين الموبقات.

أطلق هذه الصيحة رحمو الجيرودي، التاجر الحلبي الذي ورث مزرعة رافي صباغ ومشروعه الزراعي بعد مقتله ورحيل أهله إلى لبنان، حيث أصولهم البعيدة، فالصدمة كانت أكبر من أن يحتملها الأب والأم.

ولم يكن رحمو الجيرودي قديساً، أو صاحب طريقة صوفية، فهو ابن ليل وخبير بفنون الحياة، وتلّ الهوى قرية صغيرة على ضفاف الفرات، لا تبعد كثيراً عن المدينة، عرف أهلها برقة الحاشية و الميل إلى العشق، فكان لهم نصيب من اسم قريتهم، وقد عاشت القرية عمرها على الزراعة ا لبسيطة للاكتفاء المنزلي لا للتجارة، وتربية الأغنام، ولأهلها غرام خاص بالشاي، يردّدون حوله أغنية مشهورة تقول كلماتها:

مَشـــــــرب شـــــــنينهْ	**أبـــــــوس ربّ الجـــــــاي**
عيـــــــون الحزينـــــــة	**ضـــــيّ الهـــــدس بالليـــــل**

ويوم جاءها القطن، وزراعة القطن على يد رافي صباغ ازدهرت، فأقام أول مشروع ضخم فيها، يسقى من الفرات بالمحركات، وكعادة الخواجات والأغوات من مزارعي القطن أناب عنه وكيلاً يسميه الأهالي (الشحنة)، ليشرف على سير الأمور في المشروع، أهم صفاته الاستعداد لكل أنواع الخدمات، ويفضل أن يكون لديه زوجة شابة حسناء أو بنات جميلات ولا بأس ببعض الخيانات المالية الصغيرة التي يتغافل عنها الخواجة.

وقد يذهب رافي خلال الموسم لتفقد العمل، أمّا في نهاية الموسم، فكان يظل

www.alkottob.com

معسكراً في استراحة جميلة على التل الذي أخذت القرية اسمها منه، تشرف على المكان من جهة وعلى الفرات من جهة أخرى، بناها للنوم والراحة، ثم تحولت مع الأيام إلى وكر للقمار والشراب والليالي الحمراء.

في البداية أغرم رافي صباغ بصيد السمك، والإوزّ.

وكان يقيم حفلات صغيرة لضيوفه الذين يرافقونه أحياناً لقضاء يوم أو يومين، ولا بأس من دعوة بعض الشباب من أبناء ملاك الأراضي التي يستأجرها، والتي بدأت تدرّ لهم دخلاً جيداً، مما أعطاه صفة الزعامة بينهم، فاكتسب احترامهم ومن لعبة ورق بريئة للتسلية، إلى رهان صغير، ومن الخمرة وصوت "الفونوغراف" الذي أحضره معه، تطورت الأمور إلى ما آلت إليه.

ومع مرور الوقت وتطور الأمور.

أصبح الخواجة رافي يستعد لرحلته العادية، ففي كل زيارة يملأ صندوق السيارة بكل أنواع المشروبات والفواكه الموسمية، والتبوغ التركية الفاخرة، لتدخين النراجيل، ويصطحب معه حسين الرميلاوي صاحب المطعم، الشهير بإعداد الوجبات على الطريقة التركية، دافعاً له ضعف ما يكسبه في المدينة من مطعمه.

وفي آخر أيامه كان يلبس كوفية بيضاء وعقالاً من المرعز فوق بزته الافرنجية، فيبدو فاتناً وأنيقاً كأمير من أمراء ألف ليلة وليلة، وينطلق مع السائق والطباخ باتجاه المشروع فإذا ما وصل، اهتزت القرية لوصوله، حيث يعامل بحفاوة وترحيب كإله صغير، لا تردّ له أوامر أو رغبات.

. جاء الخواجة.

تقول الشابات مستبشرات.

. وصل الخواجة.

يقول الشباب ممنين أنفسهم بسهرات رائعة.

. الحمد لله على السلامة، خواجة.

يقول الوكيل... فيردّ باسماً:

. الله يسلمك.

وينتظر في المقعد الخلفي حتى ينزل السائق، يفتح له الباب، فيمدّ رجله اليمنى أولاً وقد لمع حذاؤه المصنوع من أفخر الجلود في حلب عند باليان الأرمني، ثم ينسل، فيبدو للعيان بعباءته البيضاء الجوخ الطويلة المزينة بخيوط

www.alkottob.com

الذهب، وعصاه الأبنوس تمثالاً للفتنة والأناقة.

. نزّلوا الأغراض.

ويسرع بعض الشباب الفقير إلى تلبية الأمر بفخر، بينما يلتفت إلى وكيله الذي يسير بين يديه، منتظراً، أية حركة، قائلاً:

. اذبح لنا اليوم خروفاً سميناً، أريده مشوياً على الصاج. فهمت؟!...

. رغباتك أوامر خواجة.

وينطلق الوكيل إلى الحظيرة التي يربّي فيها رافي أغنامه، ليختار ما طلبه منه الخواجة ويستعد لحفلة الشواء الطويلة، هو وامرأته وبناته الصبايا، ليكونوا تحت أوامر حسين الطباخ، ويتوجه الخواجة إلى الاستراحة وحيداً، فالسائق والطبّاخ ينامان عند الوكيل، وحين يصل تكون خاتون كبرى بنات الوكيل، وجميلة الجميلات في القرية بانتظاره:

. كل شيء تمام.

. تمام التمام.

تقول باسمة، وهي تسير وراء الخواجة إلى داخل الاستراحة، وقد احتواها المكان الذي بدا مختلفاً عن كل شيء مما يحيط به.

. الحمام.

وتهرع خاتون مثل مهرة بريّة، تتفجر بالأنوثة، لإعداد الحمام.

ولأن رافي صباغ كان مجنوناً بالنساء، اصطحب معه في البداية إحدى معارفه من فنانات حلب بحجّة الإشراف على شؤونه، وحين لم يجد اعتراضاً، بدأ يقيم سهرات غنائية، يدعو إليها بعض الغجريات من الخيام القريبة اللواتي يقصدن المنطقة في المواسم للرقص والغناء في الأعراس والمناسبات، فتكون الليالي الملاح هذه فرصة الشباب للمرح والمتعة.

ويجلس رافي صباغ على المقعد الوثير، وقد بدا كل ما حوله نظيفاً، مرتباً بأناقة، وسرعان ما تحضر خاتون "الطشت" النحاسي والماء الساخن، لتبدأ طقوس غسل قدميه بالماء والصابون المعطر، وعيناه ترقبان الصدر المتفجر، والشفاه المترعة بشهوة، وهو يحلم بعريها بين يديه في الحمّام الذي أقامه فخاً لاصطياد الظباء البريّة.

تل الهوى، ماذا فعل بروحك رافي صباغ؟!... لقد مات وشبع موتاً كان

www.alkottob.com

للصيحة مبررها، فإن يلعب الشباب القمار، ويتعاطو الشراب، فهذا أمر عادي، ولكن أن تطلب شابة منك زجاجة من الشراب، لا زجاجة عطر، فهذا أمر لا يصدق في قرية اسمها تل الهوى، منسية لا تذكرها حتى خرائط الجغرافية.

ولأن الخواجة يشبه الآغا، وكلاهما من طينة واحدة، تدرّج رحمو الجيرودي في الانزلاق نحو الهاوية اللذيذة، فلم يعد يأتي في المواسم ومعه صديقة أو صاحبة للتسلية، فبدأت حفلات الشواء والشراب وغسيل القدمين والقمار.

. تل الهوى!!... ماذا فعل بك القطن!!

تلك آخر جملة أطلقها رحمو الجيرودي، وهو يقود سيارته باتجاه حلب، وفي رأسه أصداء غامضة لوجوه وأجساد وعيون... بانتظار الموسم القادم ليعود.

***

www.alkottob.com

قبل سنوات حين هجّ ضاري بن سلطان.

يمم شطر الحماد يدفع خلوجه وكلابه القرباطية وجواريه السود، ولم يقل لأحد من عربه عن وجهته، تلثّم حتى ما تبين سوى عينيه ومضى، يومذاك امتحن جابر لأول مرّة، فاجأه الأمر، لكن زوجته واجفة وقفت إلى جانبه، قالت له بثقة وشجاعة:

ـ الأمر بسيط يا جابر، كثّر للعرب اللحم والثريد، اعقد زيجات جديدة للشباب، ابذل من جيبك، لكن لا تلين، خلِّ نظرتك نظرة ذيب، ولا تكثر من التلفت حولك ووراءك، الفرح مرهم للجروح، الدراهم مرهم للقلوب، اشغلْ العرب حتى لا يعرف الرجل رأسه من رجليه.

ولم يعقّب جابر بن ضاري ، فتابعت:

. ومع هذا يلزمك شيء جديد وغريب يترك العرب يسولفون ويتهوّلون به مدة من الزمن لحين يتعودون غيبة ضاري.

. ما هذا الشيء يا واجفة؟

. فكّر معي.

. وهل ظل بي فكر وعقل يجمع ويصرف.

. هذا عيبكم يا جابر.

. نتعلّم منكم يابنة الأجواد.

ـ المعرفة زينة يا جابر، لكن اسمع أتذكر حديثك عن هذا الصندوق الذي يحكي ويغني ويسلي أهل المدن؟!...

. تقصدين الراديو.

. هذا هو الشيء يا جابر، من غد توصي عليه.

. لا بأس يا واجفة.

www.alkottob.com

وفي اليوم التالي ضاق البيت بالضيوف والأضواء وصواني اللحم والثريد، وتصدّر جابر المجلس، ضحك لوجوه الناس، وبذل المال في زيجات، وحين جاء الراديو ومدّ الحلبي أسلاكه، وذهب وجاء ثم ركع الرجل أمام الصندوق الخشبي، وفجأة كالمعجزة انطلق منه صوت يترنّم بأغنية، في تلك اللحظة خرس كل من في المجلس، ولم يعد للناس سيرة غير صندوق جابر السحري، وتوطدت سلطته، نسي الناس ضاري بن سلطان أو أنساهم إياه العزّ والأفراح.

وهاهو اليوم يتعرّض لهزّة قد تطيح بكل ما بناه وأكثر، فلقد انكشف كل شيء للحكومة، هذا ما أعلنه رئيس مجلس الوزراء في جلسة سرّية.

***

. محاولة انقلاب جديدة تكشفها الحكومة.

قال ديران لزكاء وهو يتابع القراءة في جريدة الأيام... فردّت:

. كل يوم والثاني انقلاب جديد، ورئيس جديد، هذا خائن عميل، وهذا بطل، لتتقلب الدنيا على رؤوسهم جميعاً.

ـ إنّها دوّامة، الزعيم قتل، والشيشكلي ترك ورحل، والقوتلي يريد مخرجاً للبلد قد يقوده إلى فخٍّ أو كمين، أو عمل متسرّع، وقد كثر الحديث عن الوحدة خاصة بعد الحشود التركية.

. المهم الخلاص.

قالت ثم قامت إلى المطبخ تعدّ المائدة وتستعد بعد ذلك لحياة بطيئة وثقيلة، ولكن لا مهرب منها وإن حاولت، فهي تغرق، والليالي شاخت، تحولت جمرتها إلى نوع من الرماد الباهت، ومع هذا لا مفر.

. مسيو ديران.

. نعم.

. يمكنك الحضور.

ومطّت قامة كالخيزران تتناول كأساً، فتلجلج بياض ساقها فضّة خالطها الدم، هذا البياض الذي أدار عقول الرجال وفتن سعيد النهري، ولكن هيبة ديران كانت تعيدهم إلى جادة الصواب.

. مسيو ديران.

. نعم.

www.alkottob.com

وتبخرت رغبتها في الكلام أمام ابتسامته ونظرته التي امتلأت بميلاد جديد ومساحة أكثر ثباتاً في علاقتهما.

. هل أعجبك الطعام؟..

وصبّ قدحاً من الشراب وتابع:

. أعجبتني اليد التي صنعت الطعام.

وضحكت، أشرقت في القلب الذي بحجم الكف شمس صغيرة وناعمة تشي بفرح أسود وأخلاق سوداء ولكنها رائعة.

***

. يقولون وراء الانقلاب بغداد.

قال سعيد النهري فلم يهتم زبائنه كثيراً، تابعوا شرب الشاي والتدخين ومراقبة السوق بعيون خالية من المعنى، فالإحساس بالأمور والتحولات الحاصلة لم تكن تعني كل الناس، فتابع:

. يقولون مع المتهمين شخص من البلد.

. أي بلد؟

. بلدنا.

. معقول؟ ومن يكون؟

. سمعت أطراف كلام عن شملان بن جابر.

. العلم عند ربك.

ـ على كلٍ يقولون المحاكمات ستكشف كل شيء، وستجري على مدرج الجامعة.

. اللهم سترك.

ولم يجرؤ سعيد على الإفاضة في الموضوع وإن أكد كلامه بعد يومين حضور سيارتين عسكريتين وعناصر من المكتب الثاني أوقفوا الوكيل أبا الخير، ثم توجّهوا إلى العين، فضبطوا الأسلحة وتسلموا "ذبّاح" الذي أقرّ بدور شملان، ومع هذا ظلّ الشيخ جابر بعيداً عن الشكوك لعدم توفر الأدلة وفي كل يوم كان يحسّ أنه يفقد جزءاً من مواقعه.

***

www.alkottob.com

للمرة الثالثة يرى شملان بن جابر

جده ضاري عياناً هذه المرة كانت عند الحدود السورية . الأردنية وكان شملان يهرب من ملاحقة السلطة في دمشق فلقد انكشف أمر جماعته، وانتهى الحلم الطويل وخسر كل شيء حتى ربع ضاري من الدنيا، وتحققت مقولة أبيه في "الانقلابات تكون الخيانة بنت عم الوطنية، من يربح له الحق في اتهام خصومة بالخيانة، ثم يقيم من نفسه حارساً للوطن". وكزّ على أسنانه، وهو يرى جدّه يقود كلابه القرباطية وجواريه السود، وأولاده الخلاسيين وخلوجه، وقد ظللته سحابة من سعف النخل والغيم، وفهم الإشارة "إنه عائد إلى الصحراء والديرة لتأسيس نسل جديد، يكوّنه على شاكلته، فلم يعد لنسله الآخر مكان في الجزيرة الفراتية"، كان يبتسم بلؤم وسخرية، ثم صاح بدون وعي:

. ضاري، يا ضاري بن سلطان.

ولم يردّ عليه، عوت كلابه بوحشية وضاقت عيناه... فتابع:

. ياجدّي.

وضحك ضحكة باردة لها رنين المعدن، وأطلق سوطه في خاصرة خلوجه فاندفعت في المقدمة ومن ورائها الموكب فصرخ:

. ضاري عليك اللعنة.

ثم ضرب المقود بجمع يديه بقهر وتابع:

. يا شريك الشيطان.

وضاع صوته في الفضاء، وهدير المحرّك، وقد ملأت السماء أسراب من الجراد النجدي والعجاج والدم الذي صبغ كل شيء.

. هكذا يضيع كل شيء كماء تشربه الرمال.

ولاحت له صورة حواء بنت التعاويذي، مستحيلاً جديداً، له طعم الحنظل ومرارة الدعجة.

***

. إنها لعنة التعاويذي.

قالها شملان بن جابر، وهو يودّع الحدود إلى حدود جديدة قديمة، عبرها من قبل أسلافه حين فاضوا من نجد، وقاد طلائعهم رجال باسلون مثل ابن يعيش وابن رشود تحت الشمس الكاوية، وفي عواء الريح، خزّوا الأرض والعربان كما

www.alkottob.com

يخزّ الذيب قطيع الغنم، وكانوا يدفعهم أمامهم الإبل والنسوة والأطفال، الساعات تلك الأيام كانت أثمن من الذهب، والحياة أمام الهدف أرخص من التراب، وبذا مهدوا الطريق لمن جاء بعدهم، ثم انسربوا يتاخمون البادية على شكل سيف مقبضه في الشام وذبالته في خاصرة الجزيرة الفراتية، حيث أقاموا منازلهم ومظالمهم ومآثرهم، وفيما بعد مشاريعهم الزراعية على البليخ والفرات.

هنا عالم آخر، تشمّ رائحته مع أول هبّة للهواء، هذا الصهد الكاوي، والتفرّد العاري، يوقظ كل النبوات القديمة والأرواح والأصوات، هنا صحراء من الرمل يأخذ بعضها بيد بعض، مهمه يسلمك إلى مهمه، وغمغة بدائية بتول تقودك إلى كهوف الروح لتتعرى من زهوك، ديك بين آلاف الثعالب، فحل قطا بين آلاف الشواهين، وعل بين آلاف الذئاب الجائعة.

صحراء من الرمل والصمت والنباتات الرعوية، حيث رعاة الإبل القساة يقلّبون نظرات حذرة في الزوالات العابرة، ويمدّون أرجلاً حافية خبيرة بطعم الأرض ونبض الرمل، ومسالك الدروب في الليل إذا غوّرت النجوم، وحار الدليل، وتشابهت القيعان على الساري، وهم يحملون زهابهم من التمر والصميل ويحلمون بنعاج الحبارى تضرب بأجنحتها في الهواء، وتسبح في زرقة السماء كحواري ألف ليلة وليلة والنساء الولودات تفوح من أردانهن رائحة الخبز ودخان الغضا والخضيرة وزنخ الشهوة الباطرة، أو اليرابيع والأراول والجراد النجدي المحمص وكأنه النقل في الحواضر.

أما الشيوخ . شيوخ السياسة فبطرون تافهون كجمل دخل شارع المدينة فأخافته الضجة والأبواق والسيارات فلطأ إلى الجدران . ولكن أخطرهم أولئك الذين بعدوا عن الحواضر، وعاذوا بالرمل والشمس، ولا زالت جلودهم مدبوغة بالوهج الكاوي والرمث والعرار، لم تفرّخ فيهم دودة القطن اللزجة الخضراء، ولا استفتاهم الانتداب ولجان الغرب، ولا رائحة البارات بعد، ولا امتلأت أيديهم بأموال الخوّة والنهب وسلب الفلاليح قوت الأولاد وبذار العام القادم، ولا زانوا أسماءهم بألقاب الحكومات المحتلة المتعاقبة من باشا عثمانلي إلى شيفالييه فرنسي كما حدث لجدّه ضاري وغيره من شيوخ الجزيرة والفرات والبادية الشامية.

شيوخ يرفعون رؤوسهم كالصلّ، وهم يتصدرون الربعة، ويزنون الرجال بدربة ودراية ورثوها عن أسلاف ملهمين ، عرفوا العيافة والقيافة ورموا الرجل على الدم بفراسة لا تكذب، وإلى جوار كل منهم "عارفة" وهو رجل شيخ مولج بحفظ أنساب القبيلة ومآثر رجالاتها وخؤولتها منذ الجاهلية حتى اليوم، يعدد مساكنها ومنتجعات

www.alkottob.com

كل بطن أو فخذ أو أسرة كبيرة دون أي خطأ، ولطالما حذره منهم جده ضاري إذ يقول:

ـ بالك من العوارف كلامهم مثل السمّ قليله ينفع وكثيره يقتل، لا تكثر من الحديث معهم في مجالس الأغراب، لأنهم كبريت أحمر كلمة تشعلهم مثل الشرارة فيحرقون كل شيء في طريقهم.

والعوارف شيوخ ماكرون نحيلون كأنهم مركبون من أعواد القصب، بوجوه سمر كوجوه الثعالب، وعيون متوقدة كعيون الزرازير، بلحاهم الصغيرة، وهزّات رؤوسهم المحسوبة بدقة موازين الصاغة، مع كل سؤال يردّون عليه، ولهم طريقتهم الجذابة في الإصغاء والاستدراج المدروس لصالح الدم والعظم والعصب الذي يشكل وحدة الجنون والإلهام لكائنات هامت طويلاً في هذا الفلهم، ابتدأت قبل قرون من التحنث والتلصص على هاجس الرمل والناس والعظايا والشجر الرعوي والأعشاب الطبية التي خلقت ما يسمى بالطب العربي، وربما الجنون العربي.

والعوارف يبدؤون من الأصول البعيدة ثم ينحدرون إلى البطون ثم الأفخاذ ثم العروق والفروع والخؤولات، ولابد سيسأل:

. من أي الأعمام؟

ويجيب بلازمة لابدّ منها، لالتقاط الأنفاس ودراسة الوجوه، وتدبر الأسئلة اللاحقة بروية:

. كل الإسلام أعمام.

. قحطاني أم عدناني؟

. عدناني.

. الصلاة والسلام على سيد العالمين ولد عدنان.

يدخل الدعاء كلون من المفاخرة على القحطانيين بانتماء بيت النبوة إلى العدنانية، ويتبع ذلك سؤال آخر وانتظار لا يطول حين يجيب:

. عنزي.

وتأتلق فرحة حذرة، وهم يهزون رؤوساً خفيفة ثم يتابعون:

. من أي عنزة؟

. فدعاني.

وتأتلق الفرحة من جديد لإجابته، والفرحة تكبر لقرابة قد تكون قبل ألف عام

www.alkottob.com

أو أكثر، فرح عجيب أمام قضية أعجب، وتتكرر الهزّة والسؤال، والإجابة، وتبدأ الدوائر تضيق، والنفس يضيق، والسكين يقترب من العنق، ولحظة الدوي تتسارع والوجوه المحيطة تتحول إلى أقنعة جامدة.

. على الزين، وبعد؟

. فدعاني.

. أنعم وأكرم. من أي الفدعان؟

. .....

ويلوح ضاري رافعاً يديه، يداً من دم وأخرى من طيب، وبعد الإجابة تفتر الحماسة، وتتوقف هزّة الرأس، فشيوخ الحكومات غير مقبولين هنا، والشيخة في الجزيرة الفراتية لابن غبين، وهذه مسألة لا يساوم عليها العوارف هؤلاء الصناديق الآدمية المغلقة على إرث القبائل ومآثرها، يعرّونك من ثيابك وعطورك ودم العافية، ويوقفونك على الصراط المستقيم، وصراطهم شعرة متى لمستها بقدميك انقطعت إذا كنت بلا أجنحة وسقطت، وأنت بجناح واحد يا شملان هو الدليمي أما ضاري وما قبله فلا شيء سوى رعاة إبل حفاة حفاة، وجناحك الوحيد لن يرفعك ولكنه سيجعلك ترقص رقصة مضحكة حتى البكاء أمام أعينهم.

. إنها لعنة التعاويذي.

قالها شملان وكأنه يختصر عمراً من الترقب ويودّع عالماً من الغبار والعبيد والسيارات وأبهة السلطة والرشاشات وعلى المرقب البعيد تقف واجفة بنت سلمان الدليمي نخلة مفردة تشكو للوعر قلوب الزلم الخائفة ولا أنيس إلا الرخم والحبارى وطيور اللقالق الساكنة.

***

شربت واجفة بنت سلمان الدليمي قهوتها المرّة.

بعد أن صرفت الخدم في أشغال اخترعتها، فقد كانت بحاجة إلى أن تكون وحيدة، فلاقت مرارة القهوة قبولاً من حنظل الروح في داخلها، واستراحت وهي تراقب العراء الأشهب، الواخز كشوك عوسجة جافة، والديرة سباريت موحشة، والرجال مجرد رائحة تبغ وثياب، وعيون مثل عيون النعاج، بلهاء وغبية، فأصوات الكلاب والطير والخيل والبشر تعبرها خالية من كل معنى.

ـ مظلومة يا بنت الدليمي كما ذبية ذُبحت جراؤها، كما مجدورةٍ تُركت في البر للوحش والشواهين، من حطّ يدك في النار بعد أن كانت في الطيب؟!...

www.alkottob.com

ومن التلول القريبة يتعالى النداء، مثل نغيط القطا وهو يعبر سماء الحماد في الليل يفري الكبد والطحال، ويعرف دربه إلى حشيشة القلب فتذبل، كما يعرف دربه إلى الماء والأنهار. عصرت قبضة خفيّة قلبها من الداخل فوعتْ "يا ولْدِي"، ومثل خلوج فقدت وليدها أسلمت نفسها لفراغ وهيمان أشبه بهيمان الإبل حين يطحلها العطش في البيداء.

"نثيلة ومركى دلال وجمر وهيل ريحة الفراق، وجع بين الضلع والطحال، خنجر يحزّ الزردوم والعصب، يازي، أفرّع؟!.. وأنا بنت بيت الرجا للمعاديم، أهل الصهاوي والقهاوي والعداوة المرّة، ألاحي الحزن، وأدفع سود الغربان لو ضفّ الليل، والليل ونّة حزن وخوف، ومثل زوالة ترد ماي القلب والعين أحسّك، وأكظم الوجد، ووجدك يصابحني ويماسيني يابن جوفي، مثل خلوج يأخذني يَّمك هاجوس ينتل الروح من الجوف، يا وْلِدي مركاض قلبي من المنتفق للربع الخالي والديرة خجلانة بعدك، كل البختري والخزامى ذبل عودها، والرجاجيل انطفت نارها، وما من دخاتير تفهم علة بحشاي، وحنّا حرايز يا وْلِدي مارخَّصن دمعهن لغير الولد. وأكزّ على الشفاه وأقول "كنا نسلّم أمام ثلاثة: الداب والنار والنهر.. ونقول قضاء الله فمن أين طلعت لنا الحكومة؟! وما الذي قلبها علينا؟!.. تريدني مثل واوية الزور؟!.. أصيح من ثدايا تمزق الثوب عنهن وأبرعن، ودرّن من جديد، يا ولدي هذا حليبك كله عزّة وفخار، نتتة يا ولدي مثل ريحة الضبع ريحة الخيانة، والطعن من ورا الظهر، سمّها سياسة، سمّها جنوناً، لكنك ما خوَّلت، السّاس غلب، طبع ضاري غلب، الشيخ ما يصير قاطع طريق، لكن قاطع الطريق ممكن يشيخ ويكبر ومن جوّا يظل قاطع طريق، اليرخص دم الخلق بلا سبب، رخيص، هذي دنيا جديدة، وحكومات جديدة.

شربت واجفة بنت سلمان فنجاناً جديداً، وللمرة الأولى تكتشف أنها غريبة، مهرّة شموس ضلت بين قطيع من البغال والثعالب والضباع، ومن هاجوس المرارة، المُرذّ آناً، السكوب حيناً، تستيقظ عطابات الوجع، والطفولة، والعزّ القديم، يوم كانت الدنيا سلمان الدليمي، وسلمان الدليمي الدنيا، ومن السديم يطل وجه سلمان، العيون الواثقة والعباءة، والخشم الذي يرتفع حتى لا يبقى بينه وبين العرش إلاَّ مسافة إصبع، ثم سيارات الحكومة القادمة في الليالي بعيونها البلّورية المضيئة، وهديرها الذي يقلب الدنيا تطلب رضاء الشيخ، عسكر برتب ونياشين، حكام ووزراء، وخلق تقوم وتقعد، سيارات وخيل، خطّار وضيوف، أصحاب حاجات ومطاريد، وكل شيء يتوقف على كلمة من فم الشيخ أو إشارة من

www.alkottob.com

إصبعه.

. يا عمتي.

فاجأها صوت الفتاة السوداء بلونها المائل إلى الصفرة وكأنها قهوة خرجت لتوها من المحمصة، فبدت شهّاء خالطت روحها وجلدها عوامل هجينة، كما خالطت دماءها دماء ضاري أو أحد رجاله، رفعت رأسها فطالعتها عينان قرأت فيهما عيني ضاري فارتعشت ففي عمقهما يركس تراث من الدعارة والدم والجنون، والعواء المطلق، وجر ذئب أغبر ووحيد، وتابعت الفتاة:

. تبغين شيئاً آخر؟!

. لا.

وعادت ترقب البيوت والعجاج والدروب، ودخان التبغ يفوح من كل مكان، من الثياب، والفراش، وجلود الرجال، ولحاهم، دخان كريه كقرارات الحكومة، والبليخ ما عاد للفيضان، وحقول القطن ما عادت خاضعة لسلطة الشيخ أو رجاله، وضعت الحكومة يدها عليها، وبدأ رجال جدد يتواجدون، ثمّة علّة في الأصل، خطأ كبير، وخلط قاد إلى كل ذلك، فشيخ تصنعه الحكومة ولا تصنعه عشائرهُ أو إرثه، تستطيع الحكومة أن تبدله، كما تبدل موظفيها، وبدوي يزرع ويفلح القطن "آغا" أكثر منه شيخ عشيرة، ينهيه قرار وتذكرت كلمات سلمان الدليمي في مجالسه "كرام النساء السليلات، وكرام الخيل: الأصيلات وكرام الحلال: الإبل، وكرام الزرع النخل، وعرّب وليدك عرّب، والنار من مجباسها، وعرق السوس ما ينبت إلا السوس...

ومن بعيد جاءها صوت عبدها "مجبل"، هذا الذي جاءت به معها يوم زفت إلى جابر بن ضاري يترنم بأغنية "نخل السماوة يقول طرتني سمرا.". إيه يا ديرة النخل، زمان طويل مرّ، كأنه الدهر، تغير فيه كل شيء، فالسماء حبست المطر، والحكومة حبست الرجال، والصدور حبست الآهات، والألسنة حبست الكلام، شيء يشبه الجنون، أغوات القطن بعد العزّ والسيارات وليالي الفرح باتوا اليوم مرهونين للبنوك والمصارف وأصحاب الخانات في حلب، يثرثرون في المقاهي والربعات، وأمسيات الفراغ الطويلة، ويتذكرون أمجاداً من الليل والقمار والورق، أمجاداً صنعتها هذه النبتة الخضراء، بأجراسها اللزجة وصوفها الأبيض كصوف الأرانب، وديدانها التي استوطنت النفوس فأحالتها إلى قرية للنمل والدسائس الخضراء الهشّة اللزجة.

www.alkottob.com

. يا عمتي.

جاءها صوت مجبل، حتى الألعاب باتت باهتة، مجردّ أصوات تعودها الناس بحكم الزلل أو العادة، لكن حواسها تنبهت إلى بقية من لهجة، شمّت منها رائحة الأهل والنخل "آخ" كبيرة يا دنيا، ووسيعة وسع رحمة الله، وزغار حنّا أزغر من وردة، من عطابة، من نبحة جرو بظلمة، وتأرضنت للبدوية السطوة القديمة فداست بقدمين واثقتين، ولم ترد، انحسرت إلى الداخل، كما الفرات في موسم الجفاف، تأنق الحصى والسمك والعماء العتيم، ونده رمل الحسافة "يا هلي".

. يا عمتي.

خامرها الصوت بما يشبه الخبل، ولم ترد، فانسحب منكس الرأس يسحل ظلاً من العجب والغرابة، والإحساس بفضاء من الرمل والعجاج والوحشة والرائحة الزنخة، زناخة إلية نعجة، ونبحت الكلاب، صهلت فرس بغلمة، وصعدت أشباح نسوة من العين، وماست بلا زهو رؤوس شجيرات رعوية نحيلة وصفراء، ولم تستجب نفسه لشيء من ذلك، حتى ضجيج الصبية وهم يتقافزون كالقرود بين البيوت وقد تعبوا من ملاحقة الحشرات والعظايا، بدأ يميل إلى التلاشي، ليحل محله صمت غامض لا تفهمه عقولهم الصغيرة، إنما نقلته جرثومة العدوى من عيون الكبار وحركاتهم الخرقاء إلى نفوسهم.

. مضى زمن طويل لم يعرف الفرح طريقه إلى الناس، قلَّ منذ رحيل الشيخ شملان، حتى الزواج زهد الناس فيه.

تذكر قول عواد له بالأمس، وهو يطعم النار شجر الرمث والقيصوم، ويرى النار غلالة من دم شاحب بلا حرارة أو جاذبية، فالشيخة أمرت أن تظل الأضواء شاعلة في البيت، فلم تطفئ الضوء منذ رحيل ولدها، لذا كان الشيخ جابر ينسل إلى بيت تلك الجارية السوداء الخلاسية، خفية في بعض الليالي، ابن ضاري يعيد سيرة أبيه، والشيخة، لو عرفت لحدث ما لا تحمد عقباه، ولطاحت رؤوس.

. سبحانه، ما أعزّ شيئاً إلا أذله.

تمثل مجبل بهذه المقولة التي حفظها لكثرة ما سمعها من "السيد حامد" في زياراته المتوالية إلى ربعة الشيخ جابر في المواسم، حتى هذا الدرويش الأفاق بعمامته الخضراء، ولحيته المصبوغة ما عاد يطلّ ليملأ مجالس الشيخ بأخبار الصحابة ورجال الله الذين لا خوف عليهم ومعجزات السادة.

. تفو.

www.alkottob.com

بصق مجبل بصوت عالٍ ثم مدَّ يده يقصف عوداً ، وضعه بين أسنانه، وراقب بعينين ماكرتين مياه العين الزرقاء، ومن بعيد لاحظ شبح عجوز يعرفها جيداً، ويحفظ قصتها همساً من الرعاة، والعبيد الأكبر سناً في لحظات ندموا عليها، وقد ادعوا الخرف بعدها، إنها أمّ سليمان، زينة فرسان العرب، وشيخ شباب العشيرة، الذي طار صيته حتى ملأ الجزيرة الفراتية، والشام، والحجاز، تصعد ذاهلة وهي تراقب السماء علّ ذلك الطائر المعدني يعود من جديد، ليعيد لها سليمان من جديد، وقد تتوهم أحياناً بعض الرخم والحبارى ذلك الطائر، وحين تكتشف وهمها تنطفئ كشمعة غمست في الماء.

***

عصر ذلك اليوم من عام ثلاثة وثلاثين

لا يمكن أن ينساه أحد، قيامة صغيرة، أو زلزال فعر خاصرة السماء فاستولدها ذلك المخلوق الأسطوري الذي هزَّ العالم البسيط، وجعل القناعات الدائمة قابلة للمراجعة من جديد، أو للخبل المؤقت، فبيوت الشعر المستسلمة لهبات خفيفة من العذيبي، والرجال الكسالى منصرفون إلى ألعاب أو تهويمات أو أشغال معتادة، والرعاة الذين يستعدون لرحيل قريب يؤوبون بعده إلى المراح أو النشر قريباً من النزل، وقد بدت الطلاء الصغيرة مثل غمامات مرحة تتبع أمّاتها بعد انتهاء فترة الحلب متمتعة بذلك الهامش المهم من حرية اللقاء والرضاعة بعد حبس الصباح في البيوت، والنسوة في كواسر البيوت المخصصة لعمل العصر، يقمن بالعمل اليومي من تصفية للحليب الذي لازال حاراً ورغوته الفاتنة تلبس الأصابع إذا ما مدت إليها بحنو غريب، ثم يبدأ طقس آخر، يبدأ بإشعال النار، حيث الضوء المقدس ينتشر ببهاء غريب، هذه الغرابة التي تتسلل مع سناء النار ورائحة العرار والقيصوم، وأنفاس المساء البهاري، فتهتاج غلمة غامضة لزنى مقدس في حلمات النسوة ورغبة شيطانية في شرايين الرجال، تعبر عن نفسها في السهرات بإشارات عابرة في الأحاديث وكنايات ملغزة في العبارات يتقنها البدو على وجه الخصوص.

حتى الجراء الصغيرة كانت تنبح وتعدو بين الخيام، تطارد فراشات وأعداء وهميين، وتمتحن غرائز كامنة، بينما الأمات منصرفات إلى راحة كسول، كأنها تعلن أن حماها في أمان، والأرض تتنفس مثل بقرة شبعى وهاجعة، ومن أقصى البيت كانت أم سليمان تتمتم "اللهم اكفنا شرَّ هذا اليوم، فمنذ الصباح وعيني اليسرى ترفّ، ومتى رفت لابد من شر، هكذا عودتني عساها تكذب هذه المرّة"،

www.alkottob.com

وتحمل طاسة الماء النحاسية، تقدمها إلى ولدها الذي اعتدل فلاحت سمرته الحلوة، وعيناه مثل عيني ذيب حادتان وذكيتان، وسنه الضحوك يجعله أنيساً إلى القلب يدخله بدون استئذان، حمل الطاسة بين أصابعه الطويلة وشرب بهدوء حصان أصيل ثم أعادها إلى أمه.

. علامك يا ميمة؟! تتمعنين بي كأنك ترين ولدك لأول مرّة.

. أنا؟! ما من شيء.

وانسحبت تداري هذا الإحساس الذي ظنت لو أنها أفصحت عنه أمام ولدها لأصابه مكروه، ومن بعيد لاحت لناظريها زوبعة من الغبار انعقدت كعمود بين السماء والأرض، فاستعاذت قائلة بصوت ممطوط:

. عوذاه، إبليس ماهو بعيد عن الديرة.

بينما استلقى سليمان على ظهره وعيناه في كبد السماء الأزرق الصافي، تتابعان طيوراً ووعولاً يراها وحده، وكلاباً قرباطية تنطلق وراءها، ووجه جابر بن ضاري يضحك، يضحك حتى تدمع عيناه ويده على مقبض خنجره بانتظار ساعة الذبح.

أنت يا مجبل أبعد الخيل الفتية عن بعضها، حصانان على مربط واحد، لابدّ أن يذبح أحدهما الآخر. أنت فاهم؟!

وفهم سليمان يومذاك من كلام جابر، أنه المقصود بالكلام، فغزواته الجريئة، وصيته الذي انتشر كالسعير بين العربان، وربحه في كل سباقات الخيل، وعلاقاته مع الكتلة الوطنية في البلد حركت في جابر الغيرة والخوف على الشيخة التي لم تتأتّل بعدُ فيهم، مثلما حركت في المستشار الفرنسي لوناً من حذر الثعلب العجوز والتحسب الذي يضع المصلحة العليا فوق الاجتهادات الشخصية والمبادرات غير المضمونة، فهو ليس على استعداد لخسارة ولاء البدو لحكومة الانتداب، حتى ولو كان ظهور شخصية مثل شخصية سليمان مفيدة لممارسة ضغط أكبر على جابر بن ضاري، لكن مثل هذه المغامرة غير واردة لأن سليمان كما قيل له من طينة أخرى، طينة مستقلة وحادة وأكثر بدوية من ولد ضاري، ضاري الذي لعب نصارى حلب دورهم في تدجينه وقبوله الانتداب أمام لجنة كنج . كرين.

. السموات الفسيحة لها ربٌّ واحد، هو الله بعزته وجلاله، ما رضي يكون له شريك بكل هاك الملك، وعربنا لهم شيخ واحد هو أنا وبعدي أنت وبعدك ولدك يا جابر أنت تفهم؟!...

www.alkottob.com

هكذا كان يقول ضاري بن سلطان جازماً في خلواته، أو في رحلات الصيد مع ولده، ثم يصوب نحو طير عابر . لا فرق إن كان حبارى أو صعواً . ويرميه مضرجاً بدمه، فتفوح رائحة البارود والنصر والموت والحذر الأزلي الذي يسكن كل حجر وشجيرة وغار في هذه البرية، ثم يتابع:

ـ الطمع بالشيخة مثل الحبل لابد أن يفضح الحرمة حين تكبر بطنها، ولابد أن يفضح صاحبه حين تحمر عيناه وتعلو على حاجبيه، خوفك يا جابر من ولد الغرايب، هذول خذ بالك منهم واحذرهم.

يقول ضاري وما أكثر ما يقول، ولا يعرف جابر من أين يأتي أبوه بكلامه؟!.. ربما الوحدة التي عاشها مع الوحش والرجوم وهوام الأرض، ربما هي الوساوس التي تسكنه كنمل أحمر، أو هي الدنيا التي صالحته وأعطته ما لم تعطِ لغيره بعد أن دافته مع المرار؟!...

وآخر مرّة قال ضاري لولده، وهو يرقب سليمان على ظهر مهرته في السباق، وقد سطع وجهه الأسمر الصافي، وتندى كالعجين الذي يختمر:

. جابر يا ولدي.

. ياعونك.

. خذ حذرك من ابن الشمريَّة هذا، لو خول تراه مثل ذيب شلوه.

. هذا أجرب وجوعان.

. الجوعان يشبع يا ولدي، وخوفك من الشبعان بعد جوع، أما من يجوع بعد شبع هذا لا نفع منه، وبعد... أعطِ للرجال حقها ولا تهون من شأن رجل... تخسر.

. معقول؟!

ـ مثل هذا يا ولدي رزقه بحدّ سيفه، لا تخف عليه من الجوع، لكن خوفك منه لو شبع واستراح وعرف الطريق إلى قلوب الرجال.

وبين اليقظة والحلم، في هذه الغيبوبة الطريّة، سمع سليمان الصوت والضجيج فظن غزواً دهم العرب، أو لصوصاً فاجؤوا الرعاة، فجاء الصريخ، فقام إلى سلاحه، ومدّ رأسه، الأطفال والحيوانات والنسوة والرجال تعلقت أبصارهم في السماء ترقب طائراً معدنياً ذا أذرع طويلة، يقترب ويدنو مسفّاً وقد أثار زوبعة من الغبار والضجيج الآلي المدوي المصم.

. هذي طيارة "هلكوبتر". رأيت مثلها من قبل.. فعلام الصراخ؟! قال في نفسه

www.alkottob.com

والطائرة تدور مترنحة بين البيوت تختلط أصواتها بأصوات الكلاب والأطفال والنسوة، وحين استقرت أذرعها الطويلة، وهدأت حركتها، انفتح بابها عن رجال بثياب عسكرية، نزل ثلاثة منهم، ظهر أنهم من الفرنسيين، ولكن في حركاتهم حذر وخشية.

. أشكالهم غير مريحة أصدقاء شيخنا جابر.

قال سليمان لنفسه، ثم عاد إلى مكانه، وقد شعر بانقباض عارض حاول أن يشغل نفسه عنه بالتخطيط لرحلة قنص إلى مناطق خالية، فالنار وأمسيات الهدوء المقمرة، مع فنجان قهوة تقعد النفس، وتعيد إليها نشاطها وحيويتها.

. مرحبا.

لا يعرف كم مضى عليه حين فاجأه الصوت، فرفع رأسه وقال:

. أهلاً ذباح.

. عمي الشيخ يريدك بالعجل.

. أنا؟!

. أنت. ومن غيرك؟!..

وسار إلى الشيخ، ومن بعيد كانت الطائرة تربض، وقد بدأ بعض الأطفال والكلاب يقتربون منها بحذر وخوف أبكم، والنسوة يتابعن خطواتهم بعيون امتزج فيها الهلع كما يمتزج البن بالماء.

. قل لي يا ذباح.

. يا نعم.

. الظاهر ضيوف عمك الشيخ من الكبار.

. علمي علمك يا سليمان.

. لأول مرة نرى طيارة بالديرة، وعسكر بنياشين، ظني ماهم قناصة أو طلابة صيد ونزهات، لابد أن وراء آذانهم شيئاً مهماً، يتعلق بأشغال الحكومة وبلاوي الحكومة.

. طال عمرك هذا علمه في الغيب.

. ومن عند عمك الشيخ الحين.؟...

. الضيوف.

www.alkottob.com

. ومن غير الضيوف؟

. مامن غيرهم إلا إذا جاء أحد من عربنا بعدي.

. ألا قل لي يا ذباح.

. يا عونك.

. أشوف طالت خطبة عمك الشيخ جابر.

. ما أنت عارف، مرض عمي الشيخ ضاري أجل العرس، لكن على حد زعم مرسالنا، غداً العروس تصل الديرة.

قال ذباح ثم أفسح طريقاً لسليمان ليدلف إلى الربعة، فطالعته عيون جابر بن ضاري وضيوفه كعيون الثعالب، باسمة ماكرة، تدث ظلالاً ناعمة.

. هلا بسليمان.

قال جابر وهبّ واقفاً، فتبعه الضيوف يصافحون سليمان، ولا يعرف أحد ماذا جرى في الداخل؟! كل ما رآه الناس الضيوف يخرجون ومعهم سليمان ثم تدور الطائرة في الجو، ويدخل جابر إلى الربعة، يدخن ويشرب قهوته ويجهز نفسه لاستقبال عروسه القادمة من العراق.

***

شربت واجفة بنت سلمان قهوتها المرّة.

والشمس غزالة مطرودة في هذه البرية الزرقاء، ولم يفارقها ذلك الشعور الكاوي بالوحشة والفرادة، والشوق إلى ديرة النخل والرجال الذين لم تحولهم الأيام إلى مخلوقات تبخ التتن وتتسلى بمراقبة الدروب، وقد لانت جلودهم وهشّت إلى درجة غريبة وكأنهم ديدان القطن الخضراء، الشوق الذي تكابره وتدفعه بثمالة من عزة لا تساوم، فماذا يمكن أن تقول لهم؟! هجرت جابر لأن الدنيا مالت به؟!.. أم لأن حاله تغيرت وخانته قرارات الحكومة والوقت وكلابه؟! بنت الحمولة حمولة أبداً والدليمية لا تخون.

. هيه..

تبرعمت الآهة من الداخل رأساً أخضر لثمرة الحنظل المرّ، وجنفت سيالة الشجا من الخاصرة، ومن بعيد عاودها صوت مجبل حنوناً، حزيناً، يشرخه الخذلان "نخل السماوة يقول طرّتني سمرا." فاستقادت لذلك الحزن . وهي الصعبة

www.alkottob.com

القياد . ثم اندفعت فرساً أصيلة، بدأ يحاصرها الهرم، والخوف، والشك، والعجاج، وانكسارات جابر وهزائمه أمام جراد الحكومة وأزلامها، وزيارات ضاري بن سلطان الليلية وشكواه المتكررة في مرضه الأخير: "بالليل أحسّ فراشي من شوك وعظامي كما الخناجر.". متى تهدأ يا ضاري؟!... ويهدأ هذا الإرث من المكيدة والدم؟!... وهذا القنديل لم تمتد إليه أصابعها منذ رحيل شملان لتطفئ ذبالته وتترك لجسدها سرحة قصيرة، دعي هذا الجسد يعوي مثل ذيب حاصره الثلج والجوع.

. يا عضيدي.

وعتّ من الداخل ثم أردفت:

. يا خوف قلبي من الجايات.

وتابعت إلى العين المستسلمة للضوء والعصافير وجراءة الصغار بعد أن نزل منسوبها لقلة الأمطار والجفاف الحارق كالكبريت، وقد تكومت عظام القطعان النافقة إلى جوارها، وظلال أجنحة الشواهين والغربان، تلامس سطحها الذي ما عاد يستر عري جسدها الطيني الواضح. وقد تشقق وخالطت لونه الغامق خضرة وسواد.

وحين واجهت أم سليمان في طريقها مثل شبح أو شاهد، سرت في وجه العجوز فرحة سرّية سريان الخضرة في عروق الشيح اليابس، وقد بدأت تستعد لدورة الحياة الجديدة، تلك التي تعلن عن نفسها بإشارات غامضة، وتبدلات تصوغها بطونها لظهورها بدقة وحذر خلاق لا يخدع.

. كل شيء خاو، الديرة، وقلوب الناس وبطونهم وعيونهم.

هجست وهي تحس بهذا الذبول العنيد ينشر صفرته الذاوية ويدقّ أجراسه هذه الأجراس الصماء، ليملأ البرية برائحة الجنازات القادمة وعطر النخبة الجديدة من أنصاف الرجال والمخبرين وبنات آوى يجرون ذيولهم في الحقول الواسعة يثيرون الدخان والعجاج.

شمس مطفأة من الوحول والدخان تنشر ظلها وتلص من خضرة الروح طراوتها، ومن الأرض يفاعها البتول، إحساس بالتدمير والعدم يفتك بالعصب دون أن يسمي نفسه أو تدركه واجفة، صخب ولا شيء آخر، مخافر وديكة وأبناء عرس ولا شيء آخر.

***

حين صوّت البرلمان السوري للوحدة بين مصر وسورية.

www.alkottob.com

عرف الشيخ جابر بن شملان، أن النهاية قد اقتربت، فاعتكف في العين فترة طويلة لا يريد أن يلتقي بأحد، وهو يردد لخلصائه:

. إنها بداية يوم الفلاليح.. وياله من يوم طويل!!

ولم يتوجه إلى دمشق بتاتاً... فلم يعد لأمثاله مكان.

***

. حين تولد الفطور بين الأصابع تكره كل إصبع أختها، مقولة رددها ديران ميناسيان، وهو يستعد للرحيل عن المدينة، فقد قرر الهجرة إلى أمريكا، فالدلافين تحتاج إلى بحار للسباحة، وحين عرض الأمر على زكاء رفضت، وقررت البقاء في البلد...

. لقد خسرت كل شيء... فماذا يفيدني الرحيل غير تقليب المواجع؟!...

***

. كانت الوحدة متوقعة.

. قال الدكتور عبد الله الرفاعي لضيفه جابر بن ضاري.. الذي أعلن له:

. حكيم...حنت الإبل إلى ديارها، والإبل لا تكذب، جئت أودعك.

. إلى أين. إن شاء الله؟!

. إلى ديار ضاري بن سلطان.

وبعد أيام عبر مع عشيرته الفرات، كلاباً وإبلاً ورجالاً وأطفالاً، اندفعوا إلى الأمام دون أن يلتفتوا إلى الوراء، ميممين شطر بادية الشام، باتجاه نجد، وكان جابر بن ضاري حزيناً لأن إبل عنزة لم ترع شجر الغوطة ذلك العام.

***

. جنت اللقالق هذا العام.

قال أحد الركاب في السيارة الصغيرة المتجهة إلى دمشق، وهو يرقب السماء، فتنبه ديران ميناسيان ومع حركة الأجنحة البيضاء، شعر بأنه يبعث من جديد، فأخرج سيكاراً فاخراً، أرثه، وتابع الأسراب وهي تنأى بعيداً في المجهول... ربما كانت متوجهة إلى آرارات...

www.alkottob.com

شتاء الرقة 2002

***

www.alkottob.com

المحتوى

إشارة: 8
الإهـداء..... 10
الكتاب الأول عرش على الماء 12
الكتاب الثاني العفن الوردي 38
الكتاب الثالث لحم العجل القرنفلي 68
الكتاب الرابع نجمة في الغبار 128
الكتاب الخامس الخلوج 186
الكتاب السادس زيزان الظهيرة 240

***

www.alkottob.com